



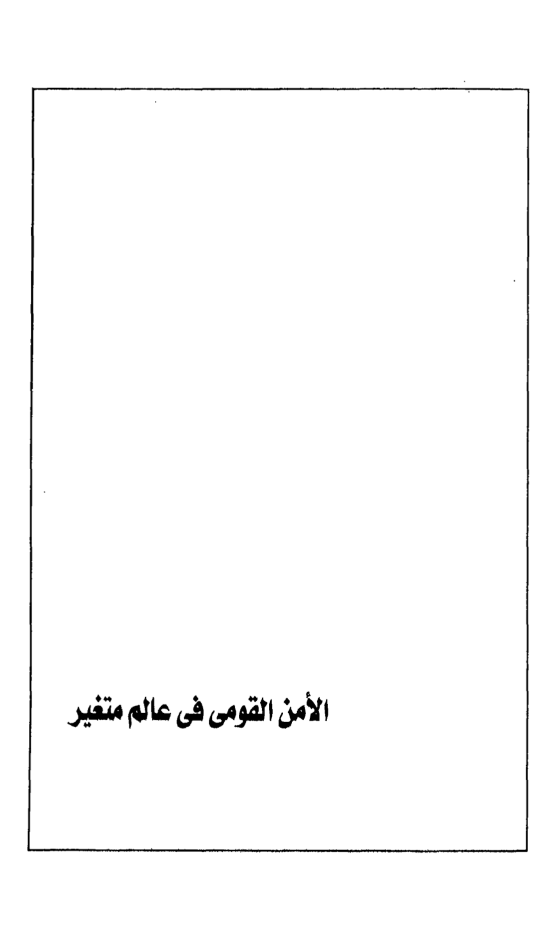
أحمد عز الدين

الأمن القومى فى عالم متغير

الأعمال الخاصة



الهيئة المصرية العامة للكتاب



الأمن القومى فى عالم متغير

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: **تشكيل بصرى**

التقنية: **وسائط مختلفة على خشب**

فيكتور فازاريللى (١٩٠٨ ـ ١٩٩٧)

فنان مجرى الأصل، فرنسى الجنسية، نعم بكل مظاهر الشهرة والثروة، وأقيم لأعماله المتاحف أثناء حياته، وأقام العديد من اللوحات الجدارية كبيرة الحجم لتزيين جدران المنشآت العامة الكبرى، مثل محطات مترو الأنفاق والجامعات، وافتتح مؤسسة فنية هائلة، عبارة عن متحف وورشة لدراسة الأعمال الفنية، وتنفيذها بطرق وخامات حديثة، هذا وكان يقوم بعمل التصميمات المعمارية. وأغلب أعمال الفنان تندرج تحت فن (الأوب آرب) أى الفن البصرى، وهو فن ذو أصل عربى، عرفته المنطقة العربية فى المشربيات وقطع الأثاث، وعرفه الفنان الشعبى فى الموالد والأسواق الشعبية.

محمود الهندى

الأمن القومى فى عالم متغير

أحمـد عزالديـن



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

الأمن القومى فى عالم متغير
أحمد عزالدين

الغـلاف
والإشراف الفنى:
الفنـان : **محمود الهندى**

المشرف العام :
د . سـمير سرحـان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشـباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخـل ضرورى

تعرضت اركان نظرية الأمن القومى المصرى . لزلزلة عنيفـة خلال السنوات الأخيرة . بحكم متغيرات عاصفة فى البيئة الاقليمية والدولية . مصحوبة بمحاولات واسعة لاعادة بناء المفاهيم الأساسيـة ، ومـن الجذور ، تحت عناوين وصيغ جذابة ، للصراع الحضارى ، والتكيف ، وثقافة الاندماج فى الآخر .

وخلال حقبة كاملة من الزمن ، لم تتعرض هذه النظرية — فقط — الى محنة ازدرائها ، واتهامها بالانغلاق ، والانحباس فى وعاء زمن قديم ، بل طالت هذه الاتهامات ، مسئولية نظرية الأمن القومى ، كمنهـج فى الرؤية السياسية والاستراتيجية ، عن كل التصدعـات والانهيـارات السياسية والاجتماعية والفكرية ، التى حدثت فى اطار محيط قومى واسع وممتد .

والحقيقة أن محاولات اذابة الخصوصية الوطنية ، باسم التكيف مع الآخر ، ومحاولة ازالة البعد التاريخى ، أو الذاكرة القوميـة ، باسـم الانغماس فى اللحظة الحضارية الراهنة ، عمدت الى تحويل نظرية الآمن القومى ، فى عيون جمهور عريض صاعد ، الى ما يشبه حائط برلين ، مستحدث ، قائم بين شرق وغرب وشمال وجنوب ، علينا أن نهدمه ، بأيدينا ، وفى أعماقنا ، اذا أردنا أن تنفتح الطرق والأسواق .

من هنا تأتى اهمية هذه المجموعة من الدراسات والمقـالات التى تصطف جميعها ، على اضلاع نظرية الامن القومى ، ومن أكثر من اتجاه وزاوية . لكنها مع ذلك ، ليست معنية باعادة تفسير الماضى ، أو اعادة تقديمه ، أو البحث عنه أو فيه ، وانما بفرز الثابت عن المتغير ، ثم التركيز على الجديد ، ومنهج رؤيته والتعامل معه ، لتعبيد طرق آمنة صحيحة ، نحو المستقبل .

الباب الأول

فى الامن القومى المصرى

١ ـ مدرسة العسكرية المصرية

أسوأ ما يمكن أن تقـع فيه رؤية استراتيجية من خطأ ، أن تحبس أكتوبر العظيم ، فى وعاء زمانه ومكانه ، فتراه ظاهرة خاصة تنتمى الى ذاتها ، وكأنها مقطوعة الصلة بمجرى التاريخ الوطنى المصرى ، أو كأنها تنتسب الى مرحلة استثنائية فيه . تضمّنه حدثاً متفرداً بحد أحداثه ، أو ورقة منفصلة فى أجندته ، فأكتوبر ٧٣ ليس لوحة مصرية يتيمة معلقة فى متحف تاريخ المصريين ، تقتصر مهمتهم على أن ينفضوا الغبار عنها ، مرة كل عام ، وأن يجلوا عيونهم بالنظر اليها فى مناسبتها ، ثم ينصرفون الى حال سبيلهم مترقبين دورة العام القادم .

نعم ان اكتوبر واجهة لوحة تاريخية مجيدة ، مشبعة بالعطـاء والبذل ، كما هى مشبعة بالابداع العسكرى ، لكنه ليس منفصلا عن تاريخه . ولا مستقلا عن مجرى التاريخ الوطنى . ولست أقصد ما يحاوله البعض . من فصل أكتوبر الحدث والعبور ، عن حرب الاستنزاف التى حركت بالدم خطوط النار ، بعد أن أريد لها أن تتثبت بدورها ، فى مكانها وزمانها . ولكننى اقصد أن أكتوبر فى المحصلة النهائية ، هو الثمـرة الناضجة فى أعلى شجرة العسكرية المصرية الباسقة ، وهى شجـرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وتتدلى منها الثمار مضيئـة سـماء تاريخ عسكرى مصرى مجيد ، تمتد ينابيعه حتى بواكير التاريخ الطفل ، فبقدر فيض هذا التاريخ ، كان فيض أكتوبر ، وبقدر شجاعته كـانت شجاعته ، وبقدر نبوغه وصلابه ارادته ، وعلو قامته ، كان أكتوبـر حاصلا حياً من النبوغ والاصرار والعلو .

وفيما أحسب فان جانباً من مشكلة ذلك ، انما يرجع الى أن عوامل كثيرة قد تداخلت عامدة الى اطفاء جذوة الذاكرة العسكرية المصريـة ، باعتبارها تحتل موقع القلب من الذاكرة الوطنية ، سواء بوضع مراحلها فى تناقض مصطنع ، أو بوضع معاركها فى تقاطع مختلق ، أو بفصل نهرها الجارف العميق عن منابعه ، وروافده ، ثم مصبه النهائى .

أن التاريخ الوطنى ، وفى اطاره التاريخ العسكرى ، ليس سلسلة منفصلة من الأحداث والوقائع والحلقات .. لكنه تيار بلا فواصل ، ونهر بلا قواطع وأرض مفتوحة بدون فجوات ، وهذا الادراك هو أحد معانى الوعى التاريخى ، كما أنه أحد تجليات الذاكرة العسكرية ، كما أنه فى الوقت نفسه ، أهم محددات الثقافة الاستراتيجية على المستوى الوطنى .

لقد عرف مفكر استراتيجى غربى بارز (جيران شاليان) الثقافة العسكرية لشعب من الشعوب بأنها : « التعبير فى زمن معين عن الذاكرة العسكرية » . وهذا لا يعنى فقط ، أن احياء الذاكرة العسكرية . ومدها بعوامل البقاء والحضور ، هو عمل وطنى من الطراز الأول ، لأنه وثيق الصلة ، بتوهج « الثقافة الاستراتيجية » ، على المستوى الوطنى العام ، ولكنه يعنى أيضاً ، أن الثقافة الاستراتيجية لشعب من الشعوب . لا يمكن أن تكون منفصلة عن الوقائع الحية فى ذاكرته العسكرية .

وعلى سبيل المثال ، فان الثقافة العسكرية الأمريكية قد حددت نفسها بقوالب ذاكرتها العسكرية . أو تاريخها العسكرى فى القرنين الثامن والتاسع عشر ، حيث لم يصادف الامريكيون خصماً لقدراتهم لا الهنود الحمر ، ولا الكنديين ، ولا المكسيكيين ، ولهذا فانهم آمنوا ، بأن يكسبوا معاركهم بنصر مطلق ، منذ حربهم ضد أسبانيا (١٨٩٨) الى الحرب العالمية الأولى (١٩١٧) . الى الحرب العالمية الثانية (١٩٤٢) . ولهذا — أيضاً — خانتهم ثقافتهم العسكرية فى حربى كوريا وفيتنام ، فقد واجهوا أوضاعا مختلفة عن تلك التى شكلت طبيعة فكرهم الاستراتيجى . ان أهمية الأمر فى هذا السياق تتجلى فى انه يبدو مختلفاً تماما بالنسبة لمكونات الثقافة العسكرية المصرية ، فهذا أقدم وأطول شعب محارب فى التاريخ ، شكل فكرة الاستراتيجى منذ آلاف السنين ، ووضعه عشرات المرات موضع التطبيق العملى . وهو بالتالى يتمتع بذاكرة عسكرية بالغة العمق ، والثراء ، والخصوصية .

الأمر الذى يدركه خصومه جيداً ، ويدفعهم الى أن يدقوا طبول الحرب ضده ، تارة باسم ثقافة السلام ، وتارة بالدعوة الى تقليص تدريس تاريخه الوطنى ، وتارة بمحاولة تشويه رموز تاريخه العسكرى — بل وتارة أخرى بالسعى الى اخفاء وجوه محاربيه القدماء ، من ساحات حياته اليومية ، ربما كتلك الأزمة الوهمية لاخفاء رمسيس الثانى من اطلالته فى قلب القاهرة ، واعتقاله فى مستودع صحراوى مغلق .

ان عمق هذه الذاكرة العسكرية واتساعها . وشمولها قد لا يحتاج الى تدليل ، ولكن قد يكون التوقف مناسبا ، أمام بعض معانيها الحية :

١ — ان مدرسة العسكرية المصرية التى تأسست خلال النصف الثانى من الألفية الثانية قبل الميلاد لم تكون فقط أقوى الجيوش العسكرية، التى ظهرت فى تاريخ العالم القديم ، ولا واحدة من امبراطوريات الدنيا الواسعة ، ولكنها قبل ذلك ، ابتدعت علم الاستراتيجية ، وعلم التكتيك ، واسس التعبئة وتنظيم الجيوش ، وقد ظلت علومها مادة صالحة للتعلم والتطبيق فى الحروب الحديثة . وحتى الحـــربين العـــالميتين ، الأولى والثانية .

ويكفى فى ذلك أن علماء الاستراتيجيا المحدثين لم يقارنوا فقط بين النجاح الذى حققه تحتمس ، وصولا الى معركته الفاصلة فى قلب آسيا ، وبين الفشل الذى لحق بنابليون ، حيث خرج بجيشه من مصر ، متجهـــا الى فلسطين عبر نفس الطريق . قاصدا فتح عكا ، ولكنهم وجدوا مقاربة كاملة بين عناصر الخطة العسكرية التى نفذها الفيلد مارشال اللنبى ، لفتح فلسطين وسوريا خلال الحرب العالمية الأولى ، وعناصر الخطـــة العسكرية التى نفذها تحتمس الثالث . وتوجت انتصاراته فى معركـــة (مجدو) ، بل ان اللنبى صحح اعتمادا على خطة تحتمس ، تلك الخطيئة العسكرية التى وقع فيها الجيش الانجليزى فى بداية الحرب العـــالمية الأولى ، عندما اعتمد على نظرية الدفاع ضد الهجوم العثمـــانى ودول المحور ، مرتكزاً على اضلاع قناة السويس .

٢ — ان هذه المدرسة فطنت ، وبشكل مبكر للغاية . وهى تجمع القوة المصرية ، لرد احتلال الهكسوس لمصر ، ان التمسك بالعمـــق الاستراتيجى المصرى فى أفريقيا ، يشكل قاعدة ارتكاز حتمية لازاحـــة القوى الطامعة من آسيا . والتى تشكل مصدر الخطر الثابت ، وقاعـــدة الهجوم الدائم .

٣ — ان هذه المدرسة ادركت وبشكل مبكر للغايـــة ، ان خـــط الدفاع الطبيعى ، عن مصر ، يقع شرقى حدودها الشرقية ، ولقد كان هذا هو الدرس الذى تعلمه وتوارثه كل الفراعنة المصريين ، ومارسوه بابداع ، وكان نفس الدرس الذى طبقت أسسه ، مصر الاسلامية ، ومارسته بابداع أيضاً . وهو ذاته الدرس الذى طبقته العسكريـــة المصرية فى العصر الحديث ، فهكذا واصل تحتمس زحفه فى مواجهـــة

الآسيويين ، حتى الفرات والأرخبيل اليونانى ، وهكذا قاد أحمس الأول ، قواته المنتصرة ، حتى آسيا الصغرى ، وشمالى العراق .

وهكذا تقدمت مصر العربية فى مواجهة الغزوات الصليبية ، حتى الفرات ، وتخوم أرمينية ، وهو ما كرره — بشكل حرفى — صلاح الدين والغورى وابراهيم باشا ، وأكدته معارك ، قادش ، وقرقميش ، وحطين ، وعين جالوت ، ومرج دابق ، وحمص ، ونصيبين ، وعكا ، وحلب ، وطرطوس ، وقونية ، فمسير مصر ، ظل مرتبطا ارتباطاً عضوياً بخط دفاعها الطبيعى ، الذى يقع شرقى حدودها الشرقية .

٤ — ان هذه المدرسة ادركت وبشكل مبكر للغاية . ان مصر الموحدة ، بدولتها المركزية القوية ، هى عاصمتها من الانهيار . وسبيلها الى المقاومة والانتصار .

ولهذا انتهى منذ ذلك التاريخ ، أى تسامح مركزى تجاه النزعات الانفصالية ، سواء باسم الدين ، أو باسم الاقطاع ، والتى كانت سمة مميزة لفترات الاضمحلال .

٥ — ان هذه المدرسة قد أدركت بعمق ونفاذ . أن نجاح « شعوب البحر » فى الهجوم على مصر ، ظل مرتبطاً ، كما حدث فى عصر « الرعامسة » ، بانهيار مركزية الدولة المصرية ، وانقسام الديانة والثقافة الشعبية ، وبروز مراكز قوى تعمد الى اضعاف ، ثم تحلل السلطة المركزية ، وأدركت أيضاً ، أن مردود نجاح الغزو الخارجى ، ينعكس بدوره على الأوضاع الداخلية ، فى شكل مزيد من الانقسام والتجزئة ، فعندما حدث الانهيار فى الامبراطورية المصرية الأولى ، تحت الأسرة العشرين . ودخل الغزاة من جديد ، عاد الوجهان البحرى والقبلى الى الانقسام . وظهرت المدن المستقلة ، بل وتعامل الاغريق والرومان ، مع الدلتا على أنها جزء من آسيا ، دون بقية مصر التى تنتمى الى أفريقيا .

ولكن ذلك كله لا يعنى أن مصر فى توجهها التاريخى العام ، سعت الى الحرب ، وانما خاضت كل حروبها ، سعيا نحو السلام ، فبمنطق التاريخ العسكرى المصرى كله ، وليس بمنطوق دروس حروب المواجهة المصرية الاسرائيلية وحدها ، فان الحرب ، قد فرضت على مصر دائماً ، فلم تدق مصر طبول حرب واحدة على امتداد عمرها الحافل بسبعمائة

قرن من الحضارة والعطاء . ولم تمارس فى موقعة واحدة ، دور القــوة المعتدية ، أو اللصة . بل ان تاريخ الحروب المصرية ، الذى يمتد الى ما قبل حدود التاريخ ، لم يتضمن معركة واحدة ، حملت مصر فيهـــا السلاح ، الا لرد عدوان ، او مواجهة غاصب ، أو مستعمر ، أو تحرير أرض . وأسباب ذلك لا ترجع الى أن المصريين ، كانوا يملكون احساسا طاغياً بالعدل ، ومشاعر فياضة بالحرية — مع ان ذلك صحيح — ولكنها ترجع الى أسباب أخرى ، هى نفسها ، نقيض الأسباب ، التى جعلت مصر ، هدفاً ، لقوى العدوان ، ومسرحاً لأطماعها :

● ان الحدود المصرية — مثلا — هى من أحدث الحدود تخطيطاً فى المنطقة . فلم تخطط مصر حدودها الشرقية الا فى عام ١٩٠٦ ، عندما وقعت حادثة (طابا) الشهيرة . لكن هذه الحدود ، مع ذلك ، ظلت من اقدم وارسخ الحدود ، فى تاريخ المنطقة والعالم ، بحــكم طبيعتهـــا الواضحة .

● والحاجات المصرية — مثلا — ظلت مشبعة عبر التاريخ ، فقد كان لدى مصر فائض من كل شىء ، حتى انها لم تكن تحتـــاج الى غيرها ، يضاف الى ذلك انها كانت بحكم موقعها ، ممراً ، وهكذا كان كل شىء يأتى اليها .

غير أن مصر لهذه الأسباب نفسها ، عاشت دائماً فى خطر ، وقدر لها أن تظل شاكية السلاح ، وأن « تبقى فى رباط الى يوم القيامة » :

● كانت — أولا — بحكم بيئتها الفيضية الغنية مستودع غلال العالم ، ولم تكن صيحة موسى لبنى اسرائيل : « اهبطوا مصر فان لكم ما سألتم » سوى صيحة كل الجراد الصحراوى ، من بعده ، الباحث عن الخضرة والماء .

لهذا السبب دفعت آسيا فيض قلبها الجائع مع الهكسوس ومـــع المغول ، ومع التتار ، فى موجات متتابعة . اكتسحت العراق والشـــام الكبير كله ، قبل أن تدق على ابواب مصر . ولهذا جاءت الموجـــــات الصليبية المتتالية ، التى خرجت بغزارة رمال البحر ، ونجوم السماء ، مدفوعة بمشكلة الانفجار السكانى ، فى ظل الاقطاع والكنيسة الاوربية معتبرة مصر « راس الافعى » .

● وكانت — ثانيا — بموقعها الاستراتيجى ، الذى يشكل قلب العالم . وعاصمته الاستراتيجية ، قبلة الذين ارادوا أن يحتكروا شرايين النقل البحرى حول العالم ، وأن يفرضوا سطوتهم على المنطقة . ولم تكن مقولة « نابليون » : « قل لى من يسيطر على مصر . اقل لك من يسيطر على العالم » ، ابتكاراً خاصا به ، فقد رددها قبله الاسكندر ، وطبقها الاغريق والرومان ، ولذلك فان الصراع على المنطقة قد حسم دائماً بين ذراعى مصر ، واذا لم يحسم فوق أرض مصرية ، فى كل مرة ، فقد حسم مصريا ، فى كل حرب .

● وكانت — ثالثاً — بتفاعلات الموقع والتاريخ والدور والقوة عامل توحيد ، وتحديث ودفاع عن المنطقة كلها .

كان احتلال الشرق الأوسط ، لا يمكن أن يتم أو يكتمل دون احتلال مصر ، كما كان « أسر » موقعه ، لا يمكن ان يتم الا من خلال « أسر » موقعها ، ولهذا السبب كانت فى تاريخها المتصل ، ملحمة متواصلة من القتال والحرب . ولكنها — أيضاً — ملحمة متصلة من البطولة والفداء ، وربما للسبب نفسه . كانت الضربات التى توجه اليها من اقلوى الطامعة ، بل كان هناك غالباً ، اجماع ، واتفاق بين القوى الكبرى ، فى العالم ، على كسر ارادتها ، وتحطيم قوتها .

لقد توحدت أوربا كلها مرة واحدة فى تاريخها كله ، هى تلك المرة التى اتفقت فيها على أن تجبر محمد على ومصر ، على أن تنكفىء داخل حدودها . بعد أن اقتطعت من بين يديها الشام الكبير ، وشبه الجزيرة العربية .

ولم يفلح (الفرس) فى دخول مصر ، الا بعد أن البوا عليها قوى آسيا الفتية جميعها ، واستخدموها . وقوداً لحملتهم ضدها . ولم يصل (المغول) الى أبواب مصر . الا بعد أن اختزلوا فى عضلاتهم العسكرية ، كل ما جمعوه من مصادر القوة ، وهم يهدمون بغداد ، عاصمة الخلافة العباسية ، ويكتسحون الشام كله ، ثم تكرر المشهد القديم ، بملامح حديثة ، فى عدوان عام ١٩٥٦ .

كان مصير المنطقة اذن — معلقا بمصير مصر ، كما كان مصير مصر ومكانتها ، معلقين بمصيرها ومكانتها فى المنطقة العربية ، وبقوة وفاعلية وحضور دورها الاقليمى ، لكن قوة مصر فى النهاية ، لم تكن تعنى القوة السياسية وحدها ، وانما كانت تعنى فى المحصلة النهائية

القوة العسكرية ، ولهذا كانت ضربات الاستعمار بعد كل معركـــة او انكسار توجه دائماً نحو أداة هذه القوة ووعائها المنظـــم ، ثم كـــانت التضحيات . بعد ذلك ، عزيزة ومتصلة .

لقد قدمت مصر على امتداد سلسلة من المعارك فى السودان خـــلال بضعة أشهر من عام ١٨٨٤ ما يساوى ٣٢ الف و ٤٠٠ شهيد . وهو ما يساوى ضعف الجيش العامل فى مصر آن ذاك ، عندما كان تعدادها ٦ ملايين نسمة . بل قدم الجنود المصريون عدداً غير محســـوب مـــن الشهداء . وهم يمدون خطوط السكك الحديدية فى السودان لمسافـــة ٣٢٥ ميلا ، وهو ما وصفه احد الضباط بقوله : « تحت كل شبر من هذه الخطوط جثمان جندى مصرى » . بل قدمت مصر فى معارك الشام الممتدة ٢٠٪ من جيشها جرحى . و ٦٪ شهداء ، بينما كان تعداد جيشها كله ، ٧٠ الف رجل . اننا ـــ اذن ـــ حاربنا نيابة عن الشرق كله أحياناً ، ودافعنا عن الحضارة الانسانية كلها دائماً ، وقدمنا من أنفسنا سوراً ومتراساً ، حمى المنطقة من زحف أوربا وآسيا ، لكننا حاربنا فى كل مرة ، دفاعا عن أنفسنا ، وعن ترابنا ، وعن أمننا القومى . وعن دورنا الأقليمى ، ولم تكن حرب أكتوبر فى النهاية ، ببعيدة عن هذه المعانى كلها . ولم تكن كذلك ، مستقلة عن دروسها وخبراتها وارصدتها ، وذاكرتها العسكرية .

لذلك فان أحياء الذاكرة العسكرية هو جزء جوهرى فى احياء الذاكرة الوطنية ، وطمسها هو طمس ، لأبدع صفحات هذه الذاكرة ، وهى كما قلت متصلة الحلقات ـــ مترامية الاطراف حتى آخر حـــدود التـــاريخ الانسانى . هل يكفى تدليلا على ذلك . تلك الشهادة التى قدمها ، خبير غربى عند استرجاعه لصورة العبور فى ظهيرة السادس من أكتوبر ، عندما انتصبت على القناة بعد ٥ ساعات فقط ، ٨ كبارى ثقيلة ، و ٤ خفيفة ، اضافة الى ٣٠ معدية ، عبر فوقها ، خلال خمس ساعات أيضاً ، ٣٣ الف مقاتل ، بكامل أسلحتهم ومعداتهم .

لقد كتب ذلك الخبير الآجنبى يقول مندهشاً :

« أن تنظيم العبور فوق الجسور المصرية ، على قناة السويس ، اكثر دقة من تنظيم المرور فى شوارع القاهرة » .

٢ ـ عن العلاقة بين « المكان » والمكانة :

هل فقدت مصر ـ حقا ـ موقعها الاستراتيجى ؟!

هل هناك علاقة بين « المكان » و « المكانة » ؟

لقد حاولت بعض الأدبيات المستحدثة فى فقه العولمة ، أن تقطع بين الأمرين بالسكين . فالمكانة حسب هذه الآدبيات ، لم تعد تنبثق من المكان ، بعد أن فقد الأخير ، خصوصيته الحاكمة ، وانطفأت أهميته الاستراتيجية، كموقع تاريخى ثابت ، أو كموقعة تاريخية متصلة .

فاذا كانت القوة للاقتصاد لا للجيوش ، واذا كانت الاموال تنتقل عبر الحدود كالعفاريت ، دون أن تطلب اذنا ، أو تطرق بابا ، فما قيمة المكان ؟ ثم اذا كان الفضاء مفتوحاً ، واذا كانت ثقافة الآخر ومفرداته وحضارته ، (بل وصواريخه أيضاً) ، لا تحتاج حتى الى مظلة واقية . لتهبط فى غرف نوم الناس جميعاً ، فى حدود تلك القرية الالكترونية العالمية ، فماذا بقى من خصوصية المكان ؟

واذا كان المكان ينطوى موضوعياً على زمان ، فقد لحق بالأخير ما لحق بالأول ، فما قيمة الزمن خارج اللحظة العالمية ، التى ينبغى أن ننتمى اليها ؟ ما قيمة التاريخ ــ كما يقول عقل ما بعد الحداثة ــ أمام الاستثمارات ، وما قيمة الايديولوجيا أمام التكنولوجيا ؟ وما قيمة الجغرافيا فى القرية الالكترونية ، وما قيمة الدولة فى ذلك السياق كله ؟ ان الذين أعلنوا موت الحتميات والمرجعيات ، وموت الفلسفة ، يعلنون موت الجغرافيا ايذانا بموت الدولة التى ينبغى أن تتفكك وتضمحل ، بعد أن تبدى استجابة سلوكية لعدة قناعات . قناعة بتدنى أهمية المكان ، وهبوط وزنه الاستراتيجى ، وقناعة بتدنى منفعة القوة العسكرية ، ثم قناعه بتقويض الحاسة الوطنية ضد زيادة تأثير العامل الخارجى .

ربما لهذا السبب ، تحديداً ، استحسنت نتائج رحلة الرئيس حسنى مبارك الى قلب آسيا الناهض ، فلاشك عندى على الصعيد السياسى قبل

الاقتصادى ، أنها أعادت طرح جدلية العلاقة بين المكان والمكانة ، على نحو ادق وأصح يستوجب الالتفات والتوقف .

ينبغى أن أضيف أن المكان والمكانة اللذين أتحدث عنهما لا علاقة لهما بتلك الأطروحة التى قدمها مؤخراً (بول كنيدى) وأخران الى مركز صنع القرار فى الولايات المتحدة تحت عنوان « الدول المحورية » .. والذى يحرض الادارة الأمريكية على اعادة تشكيل علاقتها مع المستويات الاقليمية المختلفة من خلال العلاقات الوثيقة مع الدول المحورية فى كل اقليم . وقد حددها على نحو قاطع فى البرازيل والمكسيك فى أمريكا الجنوبية ، تركيا والهند وباكستان وأندونيسيا فى آسيا ، جنوب افريقيا والجزائر ومصر فى أفريقيا ، اختارها كما يقول — وفق المساحة الجغرافية والسكان والموقع وامكانيات التأثير فى القضايا العالمية والاقليمية ثم — وهو الأساس — العوامل المتعلقة بالاهتمام الأمريكى الأول .

لماذا ؟

لأن نظرية الدوله المحورية كمدخل مقترح للسياسة الأمريكية لا ترتكز جوهريا ، على القاعدة السابقة وانما على أن هذه الدولة بألفاظ الباحث « يهدد اضطرابها محيطها الاقليمى من خلال انتشار العنف والهجرة والتلوث البيئى فى المحيطين الاقليمى والدولى » . فهذا مدخل يسبق فيه دفع الضرر ، استجلاب المنفعة ، وهذا مدخل لا ينطبق على مصر علاوة على أنه يضعها فى اطار غير اطارها الصحيح بمنظور مكانها ومكانتها استراتيجيا وتاريخيا . فمصر لم تكن ولن تكون منجما لنشر العنف والهجرة والتلوث البيئى سواء فى المحيط الاقليمى او العالمى ، وما قد ينطبق على غيرها فى الاقليم ذاته أو غيره ، لا ينطبق بالضرورة عليها فهى فى أدنى أوضاعها تاريخيا ، لم تكن مصدر خطر على الاقليم ، بينما كان غيابها أو تغييبها داخل حدودها ، أو تمدد قوة أخرى ، اقليمية أو أجنبية ، لشل دورها ، هو مصدر الخطر الداهم والدائم على الاقليم .

ان مصر لم يخرج تأثيرها فى حدود اقليمها عن بعدين محددين : الأول هو توظيف طاقتها الجغرافية ، وحيويتها التاريخية لنشر رسالتها الحضارية ، وفرض « السلام المصرى » على المنطقة ، انسجاما اقليميا ، وتوازنا وظيفيا ، وتفاعلا حضاريا .. أما الثانى فهو ما يترتب على

غياب مصر أو فرض الانكفاء الذاتى عليها . والذى ينعكس بدوره على أوضاع المنطقة كلها ، اختلالا فى التوازن ، وخللا فى الوظيفة وصداما بين الاطماع والاحلام . أى ان تأثير مصر فى أوضاع المنطقة يأتى دوراً ايجابيا بالفعل والحضور وسلبيا بالانكفاء والغياب ، دون أن تتحول بذاتها الى مصدر للقلاقل والتلوث .

وهذان مدخلان مختلفان تماما فى النظر الى الدور المصرى وبالتالى فى صياغة علاقة صحيحة معه ومع المنطقة كلها بالتالى ، فمصر ليست دولة محورية وفق هذا الفهم أو المفهوم ، لأنها اذا لم تكن فى الاقليم الدولة القائدة ، فهى الدولة الحارسة ، واذا لم تكن مخزن القوة العضلية الأولى فهى مخزون الحكمة والعقل التاريخى ، واذا لم تكن الروح الحضارية الغالبة فهى رمانة التوازن القلق فى قلبه ، أو قل بين قلبه وأطرافه .

★ ★ ★

لقد سبق أن شدد « بول كنيدى » فى أطروحته الأساسية عن صعود وسقوط القوى العظمى ، وهى يتحدث عن متوالية القوة الاقتصادية والقوة العسكرية والدور الامبراطورى والاضمحلال ، على أنه لا يحاول البرهنة على أن الاقتصاد يحدد نصيب كل حدث ، وأنه السبب وراء نجاح كل دولة أو فشلها ، فهناك دلائل كثيرة ــ حسب تعبيره ــ تشير الى أشياء أخرى منها الجغرافيا والتنظيم العسكرى والروح المعنوية والروح المعنوية القومية ..

ولذلك عندما يتحدث عن النجاح الصينى ، أو اليابانى يدمج هذا النجاح فيما يطلق عليه « الحس الوطنى الرفيع » ، وما يقرله عن أن القوى العظمى تستجيب بالفطرة لزيادة نفقاتها على الأمن فى مرحلة التدهور ، ينطبق حرفيا على الولايات المتحدة . فالدولة الكبرى عنده تنفق على الدفاع وهى فى حالة أكثر تأزماً وأقل نهوضاً ، أويد مما تنفقه فى مرحلة فتوتها وازدهارها وصعودها الاقتصادى وربما يفسر هذا ما فعله « غليوم الثانى » بمدافعه . فقد أمر بأن تحفر عليها هذه الحكمة « الحجة الأخيرة للملوك » .

و « بول كنيدى » هو الذى لاحظ ــ مثلا ــ تلك العلاقة السببية ، التى يمكن رصدها ، بين التحولات التى طرأت بمرور الزمن على الموازين الانتاجية والاقتصادية العامة ، وبين المكانة التى تحتلها قوة متفردة

فى النظام الدولى ، فالتحولات الاقتصادية كانت ارهاصا لقيام القوة الكبرى الجديدة.التى قد يكون لها يوماً أثراً حاسماً على النظام العسكرى الجغرافى ، وهذا هو السبب — فى تقديره فى أن تحرك الموازين الانتاجية العالمية باتجـاه المحيط الهـادى ، ينطوى على ارهاصات واضحة بولادة قوى كبرى جديدة ، وبالتـالى فانه ليس تعبيرا اقتصاديا فقط ٠

غير أن بقاء القوة الكبرى فى موقعها الامبراطورى المتفرد ، هو فى النهاية حسابات تكلفة ، واذا عجزت الفوائد عن الوفاء بالتكاليف فان الانهيار سيأتى فى الطريق ٠

ان ما يقوله « كنيدى » فى نظريتـه لصعود وسقوط الدول العظمى ينطبق حرفيـا على الولايات المتحدة ، فهل أطروحة الدولة المحورية ، هدفها تقصير الخطوط الخارجية وتقليل حسابات التكلفة ، أو حصـد قدر أكبر من الفوائد ، بأقل قدر من التكاليف ؟ ٠

اذا صح ذلك فهو منهج صحيح بالطبع من منظور الولايات المتحدة ، لكنـه ليس صحيحا بالضرورة ، من منظور أى من الدول التى حشرها فى اهاب « الدولة المحورية ٠ وما يعنينا أنه ليس صحيحا تماما ، من منظور مصر ٠

واذا وضعت مصر والجزائر من دول الشرق الأوسط فى اهاب الدولة المحورية فأين توضع اسرائيل بالضبط ؟ كذلك اذا وضعت الهند وباكستان واندونيسيا بالاطار نفسه فى البيئة الآسيوية المضطربة ، فأين توضع الصين أو اليابان أو روسـيا ؟ ألا يعنى ذلك أن الدولة المحورية هى نسق اقليمى آخر غير الدولة الحارسة ، أى ضابط التفاعل الاقليمى أو دولة الزعامة الاقليمية أو القوة الكبرى الاقليمية ؟

فى كل الأحوال فان نظرية « بول كنيـدى » وامتداداتهـا ليست جديدة ٠٠ فقد سبقتها — مثلا نظرية الصعود والهبوط وفقـا للتفـاوت فى المكانة ، أى تحقيق القوة دون الحصول على المكانـــة ، وبالتـــالى الاشتباك فى عمل عدوانى للحصول عليها وسبقتهـا — مثلا — نظرية التناقض بين ثبات بنية النظام الدولى فى مرحلة وتغيير توزيع القوة والسلطة ، وكذلك نظرية الدورة الطويلة ، (تستهلك القوة العظمى بموجبها ثلاثة أجيال للهبوط) ، وهناك وهو الأهم نظرية (روبرت جبلين) عن انحلال القوة المهيمنة ونهوض المتحدى ، وهى لا تختلف جوهريـا عن

نظرية حسابات التكلفة ، مع دمج قانون النمو غير المتوازن على الصعيد الدولى بها ٠

غير أن المكانة والصدام حولها لا يعــزى فى كل الأحــوال الى أســباب اقتصادية فهو صدام بين المصالح الاستراتيجية والقومية أى أنه صراع على السلطة ، وليس صراعا اقتصاديا ، فهو صراع فى المكان وفى الزمان ، وليس فوق المكان وخارج الزمان ، فــهو صراع على الجغرافيــا وبالجغرافيــا !

★ ★ ★

الدولة المحورية وفق هذا الفهم هى دولة ذات وظيفة اقليمية بحــكم قوانين الطبيعة ، وينبغى احتواؤها ، ومنع تأثيرها فى صياغة التوازنات الاقليمية ، ولا علاقة لها بنظرية الدولة الحارســة للاقليم ٠ والتى دخلت الى حيز التطبيق أمريكيا ، بعد فشل سياسة « دالاس » لبناء شبكة من الأحلاف الاقليمية ، كانت قد شكلت محور هذه السياسة بعــد الحرب العالمية الثانية وهى دولة لا تزال اسرائيل تمثل نموذجاً تشريحياً لهــا . ولذلك فاننى لا أعرف معنى هذا الاستحسان الذى وصل حد هز الأعطاف طربا ، فى كتابات بعض الصحفيين المصريين عند عرض أو مراجعة أفكار « كنيدى » حول الدولة المحورية ، ثم محاولة تسـكين مصر فى اطارها ٠

فالدولة العصرية على هذا النحو هى مفهوم عصرى يحتفظ بجوهر سياسة دول غرب أوربا البحرية تجاه مصر خاصة بريطانيــا ، وهو مفهوم يتلخص فى عدم السماح بقيام مركز قوة دولى حقيقى فى مصر ، وبالتالى فهو نقيض سياسة مصر منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر التى كانت فى جوهرها محاولة على الجانب الآخر ٠ لبنــاء قاعدة قوة فى المنطقة ، تسترد مصر بموجبها وظيفتها الحضارية الاقليمية ، التى طوقتها الدولة العثمانيــة ٠

والحقيقة أن الأمر لم يكن خاصاً ببريطانيا فلقد كان هذا هو حال الدولة العظمى الأولى تجاه مصر دائما وهذا ما يفسر عمق المضاربة السياسية بين القوة العظمى كاحدى الركائز التاريخية لمدرسة الدبلوماسية المصرية ، فعلى بك الكبير ، وليس جمال عبد الناصر هو الذى تحــالف مع روســيا القيصرية ، ومحمد على ، وليس حسنى مبــارك هو الذى سعى الى بنــاء جسور قوية مع فرنسا ٠ وفى كل مرحلة تاريخية لصعود

قوة عظمى كانت مصر ، لا يمكن استبعادها من الاستراتيجية الكونية للقوة العظمى الساعية الى الهيمنة المنفردة على الساحة الدولية ، فدون اخضاع مصر يصعب على استراتيجية دولة عظمى أن يكتمل نجاحها ، ولهذا فان انجلترا لم تنجح فى بناء امبراطوريتها بغزو الهند .

وانما بانتصارها فى معركة أبو قير البحرية ، ولهذا فان امبراطورية نابليون انهارت ، ليس بنتائج معركة واترلو وانما بنتائج معركته لاحتلال مصر ، والامبراطورية الرومانية نفسها لم تصبح قوة دولية الا عندما تقدمت فوق الجسور المصرية .

وقد يصعب أن يتخيل أحد ، مدى عنف الضربات الأجنبية التى وجهت الى مصر ، وما تكبدته مصر ، من نزيف فى الطاقة والقوة ، ربما الى حد التصفية ، فى أعقاب كل محاولة ، لبناء قوة يرتفع على أكتافها دور اقليمى فاعل يزيل التناقض بين ثوابت الجغرافيا ومتغيرات السياسة ، بعمل حاسم ، أو يزيد التوافق بين المكان والمكانة ، أو بين الموقع والموضع ، على حد تعبير عبقرية حمدان .

دعك من التاريخ الحديث حتى لا يصدح نشيد ادانة فكر المؤامرة .. ولنعد قرونا طويلة الى الوراء .. ففى أعقاب رد مصر على موجات الهجمة الأوربية التى جاءت مدفوعة بالانفجار السكانى والطغيان الاقطاعى ، تحت علم الحملات الصليبية ، وبعد تحرير « عكا » نهائيا ، تعرضت مصر ، لأول حصار دولى تجارى فى التاريخ ، خاصة على مستوى السلع الاستراتيجية ، وقد استند هذا الحصار الى قوانين ملزمة . هى قوانين الكنيسة باسم السلطة الروحية . قبل الدنيوية ، بدءا من حظر تصدير الخشب والحديد اليها ، وانتهاء بالمواد الغذائية ، ومن مرسوم « نيقولا الرابع » الذى حرم توريد الأسلحة والخيل والحديد والخشب لمصر ولكافة البلاد الخاضعة لسلطانها . وأوقع على المخالفين عقوبة الحرمان من الحقوق المدنية والوطنية ، ومن أهليتهم لأن يوصوا وان يورثوا ، الى مرسوم « البابا كليمنت الخامس » الذى حرم التجارة مع مصر فى كل البضائع ، وفرض على المخالف أن يعامل كرقيق ، ويوصم بالعار . والحرمان الكنيسى . الى مراسيم مجمع فيينا الدينى ، ورئيس كهنة « بواتييه » و « هنرى الثامن » ، التى نصت جميعها . على « تحريم كل تجارة مع مصر » . بل ان كليمنت الخامس ، وحلفاءه تنادوا الى تخصيص تشكيلات من السفن الحربية فى البحر الأبيض المتوسط : تتجول بين آسيا الصغرى ومصر ، لتطارد وتأسر وتحاكم السفن التى تضبط متلبسة بالتجارة معها ..

وهناك مئات الأوراق والوثائق عن محاكمات هذه الأيام وقصصها وحواديتها ، تستطيع من خلالها أن تتبين أن الهدف الثابت والنهائى هو انهاك مصر ، وضرب قوتها ، واضعافها ، ولذلك فان تاريخ مصر ، ليس تاريخ الهيمنة الأجنبية . ونقيضها . سواء مع الظاهرة الاستعمارية التى دفنتها مصر بيدها حية ، قبل أقل من نصف قرن ، أو مع الأمـــواج البشرية التى جاءت من أوربا مدفوعة بالأقطاع والانفجار الســكانى قبلها بعشرين قرنا ، أو مع الأمواج البشرية الأسيوية ، التى جاءت مدفوعة بالجفاف من قلب آسيا الذابل · قبلها بعشرات القرون ، فتاريخ مصر ليس تاريخ الهيمنة ونقيضها فحسب ولكنه فى تلخيصـه العميق تاريخ البنـاء الحضارى ، والنقل الحضارى ، كماهو تاريخ التجارة الدوليـة أيضا · ولذلك اذا كانت الخبرة التاريخية المصرية ليست مستقلة عن الخصائص الاقليمية والجيوبولوتيكية المصرية · فان خبرة القوى الدولية مع مصر ، معاشـــة أو منقولـــة ، ليست منفصلة أيضـــاً عـــن هـــذه الخصـــائص ·

ان عندى رأيا مختلفا فى موضوع تركيـا مثلا ـ والتى تستيقظ حواسها الاستراتيجية جنوبا من جديد ، بغض النظر عن الحديث عنهـا كدولة محورية كما فعل « بول كنيدى » أو توظيفها لجذب حدود حلف الأطلنطى جنوبا ، وتنشيط محور فعـال بينها وبين اسرائيل · فلاشك أن مصر تمارس حكمة بالغـــة فى صياغة علاقة الاقليم بتركيا من خلالهـــا .

ولكن الدور التركى كالدور الاسرائيلى ، يعبر عن أزمة معنى ، كما انه لا يمكنـــه من منـــظور الجغرافيـــا السياســـية أن يرث الدور المصرى ·

لماذا ؟

لأن تركيا رغم أهمية موقعها الاستراتيجى شأنها شأن اسرائيل ، لا تنتمى الى نظام اقليمى قومى ، يمكنها التأثير فيه بعوامل يمكن البناء فوقها ، كالثقافة » واتســاق الدور التاريخى ، ويبقى تأثيرها فى حدود القوة المسلحة ، ثم ان تركيـا كبولندا قد تقبـل القســمة على اثنين أو ثلاثة ، بينما مصر كائن تاريخى عضوى غير قابل للقسمـــة . لقــد انقسمت بولندا ـ مثلا ـ عند مطلع القــرن الثــامن عشر ثلاث مرات متتالية ، خلال ربع قرن ، والمانيـا نفسها انقسمت على نفســها أكـثر من مرة وكذلك حدود تركيا وحتى قبلها قد تعرضت للمد والجزر · ومازالت تقع تحت تأثير تهديد انفجار عرقى لكن مصر فى الاقليم وفى

غيره ، قد تماثلها الصين فى الشرق ، وقد تقاربها فرنسا فى الغرب ، فما يجمع بين مصر والصين ، هو ثبات الرقعــة السياسية عبر التاريخ الطويل ، بدورات حروبه ، وانتصاراته ، وهزائمه ، أو قل • احتماء التاريخ عبر الزمن بقلعة الجغرافيا ، واحتماء الجغرافيا ، بالدولة المركزية القوية ، ولذلك سواء اتسع الدور المصرى أو انكمش ، فاضت مصر حتى وسط آسيا وشـمال المتوسط وجنوب وشرق أفريقيـا ، أو انكفأت مرغمة داخل حدودها ، فان الوطن الســياسى المصرى ، راسخ فى موقعه يشبه السد الجغرافى الهائل ، لا تأكل منه عاديات الزمن • ولا يضيف اليه النهر من تحتــه ، فى فيضانه أو جفافه • فمصر دولة لم تتفكك وحدتها السياسية منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد (وربما يفسر ذلك هذا القدر الدائم من القداسة التى تحيط بنظامها السياسى) •

ولهذا ليس من قبيل المبالغــة القول ، ان الدولة المركزية المصرية ، ليست صنو الاستبداد ، فقد أتى الاستبداد من الخــارج أغلب الوقت ولكنها صنو الأمن القومى ، فمصر أول دولة فى التاريخ ، صاغت نظرية لأمنها القومى ، وانتبهت قبل كل أبجديات العلوم السياسية الحديثة الى ان وظيفة الدولة الأولى هى حماية الأمن القومى ، قبل آلاف السنين من محاولة عالم أمريكى (سموك) لصياغة مثل هذا التعريف •

فالأمن القومى ، ظل ملتصقا بقرنيــة عيون كل حاكم وطنى فى تاريخ مصر ، أيا كانت خياراته ، أو حساباته فى الحفاظ عليه ، واذا كانت مصر هى قلب الاقليم ، فقد حافظت عليه ، بقلبها المركزى القوى ، تماما كما وضعت فرنسا قلبها المركزى القوى أيضا ، فى خدمة تلك الحقيقة التى عبر عنها الجنرال ديجول بجلاء ووضوح : « ان الجغرافيا هى العامل الثابت فى صنع التاريخ » •

★ ★ ★

ماذا اذن ، عن العلاقة بين المكان ، والمكانة ؟

عن المكان ، فان قارات الدنيـا ، لاتزال تتقابل حول مصر ، وحول شـواطئها تبدأ البحار التى تتحكم فى الاستراتيجيات الدولية والتجــارة الدولية على السواء •

ولا تزال مصر بالضرورة ــ كما يقول حمدان ــ مركزا حتميا وأبديا من مراكز القوة الطبيعية ، لا تزال مركز دائرة استراتيجية لهــا فــلك ومحيط ، وظل وشبه ظل ، ومجال مغناطيسى وجاذبية •

لا تزال آسيا تبدأ فى القاهرة ، وأفريقيا فى الجيزة ، وأوربا فى الاسكندرية ، ولا تزال مصر قلب كل ذلك . حتى لكأنها بقـوة المكان ، العاصمة الاستراتيجية للعالم ، ولكنها بقوة المكانة ، واحــدة من أهــم عواصمه الحضارية ٠

وإذا كانت مصر لم تستثمر الطاقة الكاملة فى موقعها الاستراتيجى ، فانها أيضاً ، لم توظف الطاقة الكامنة فى حضورها الحضارى ، ان العامل الثقافى على العكس مما يقول به فقه العولمة ، قد أصبح أكثر أهميــة بحكم تفاعل الحضارات والثقافات ، وبحكم بروز الحضارات الانسانية القديمة كقوة كوكبية صاعدة فى آسيا ، سواء أكنا نتحدث عن الصين واليابان أو الهند ، لذلك فان وزير الخارجية الشديد الانتباه والنباهة قد لا يحتاج الى دعوة منى ٠ لدمج البعد الثقافى بفاعليــة وقوة فى علاقات مصر الخارجية بعيداً عن السياسة الثقافية الضحلة كاستخدام دبلوماسية فرقة رضا وما شابهها ، فالتعبير الجغرافى المصرى هو تعبير حضارى ، كما هو تعبير ثقافى ودون تركيز على البعد الثقافى فى صياغة السياسة الاقليمية والدولية ، فاننا لن تستثمر جانبــا خطيرا من تراثنا وتفوقنا ومصادر قوتنا .

ان اسرائيل التى لا يمكن لأحد أن يدعى لهــا دورا ثقافيــا أو حضاريا ، ولا يمكن لنفسها أن تدعى لعلاقاتها التى تدفعها بقوة فى عروق آسيا (خاصة الصين وروســيا) أن الثقــافة حافزها ، وليس تكنولوجيا الســلاح والتجارة ، قد افتتحت فى مدينة شنغهاى الصينية ، خمسة مراكز ثقافية دفعة واحدة ، بينما لا يبدو أثر فاعل واحد للثقافة المصرية فى جميع أركان الصين . ان الثقافة قد لا تكون مدخلا ضروريــا لصياغة علاقة تجارية أو اقتصادية مع الولايات المتحدة ، لكنها مدخــل مهم لصياغة نمط العلاقة نفسها مع أوربا غربيــة أو شرقيــة ، وهى مدخل أكثر أهمية بكثير لصياغة نمط العلاقة نفسها مع كافة مراكز القوى الحضارية الصاعدة فى آسيا ان مثل هذا العمل العظيم لا يشكل جانبا من استثمار التاريخ فقط بل هو تجديد للجغرافيا ، وتجويد للموقع ، وتصعيد للمكانة ووضعها فى الاطار الذى تستحقــه حضــارة وسبقــا وتفردا ٠

* * *

كان تخلف حضارى فى تاريخ هذا الوطن كان مؤقتا ، فمصر تسابق كى تسبق ، وتســتيقظ كى تقــوم ، وتقــوم لتنهض ، وتنــهض لتصــعد ،

وتتبوأ مكانها الصحيح ، وتضبط الموازين ، وتعـدل وتجدد ، وتفـرض السلام ٠

ان أحدا لا يتصور فداحة الثمن الذى دفعته مصر ، لكى تصون موقعها ، وتحرر ارادتها ٠ وليست ثمة دولة فى الدنيـا ، تقف تحت قبة مركز الكون ، وتتاح لها فرصة المناورة بموقعها ، كما يتاح لمصر ٠

اذا انتقل البندول الاستراتيجى غرباً ، فهى جزء أصيل من حوض الأبيض المتوسط ، الى حد أن حمدان عدها « نصف أوربيـة » واذا انتقل البترول شرقا بحكم نمرات فى الثروة والطاقة فهى على خطوط الحركة المباشرة ، ليست قضبانا ، ولكنها قاطرة ، واذا تمحورت الجهود الدولية نحو أفريقيا فهى عاصمتها الطبيعية ، بالمكانة والمكان ، والعروبة والاسلام والنيل ورياح الثورة التى زرعتها فى انحائها ٠

من ذا الذى تتاح له فرصة المناورة بموقعه الاستراتيجى فى وجه المتغيرات ، كما تتاح لمصر ؟ لنلاحظ أن محمد على كان قصد جهده هو تجديد الامبراطورية العثمانية من داخلها ، ارتكازا على أمرين : وصل الاسلام بقاعدة العروبة أى بقاعدة الاسلام الحضارى فى مصر ، ثم تعبئة القدرة المصرية المستندة الى طاقة الجغرافيا والتاريخ كقاعدة اقليمية صالحة لنهوض امبراطورية مترامية الأطراف (سادت نصف قارة أوربا) ٠

ولنلاحظ أيضا أن الانجليز ورثوا عن الرومان فى علاقاتهم بمصر ، مبدأ تحطيم دور العاصمة الحضارية ، فعندما تحولت مصر الى عاصمة رومانيـة ، تم تحويلها الى مزرعة خالصة للقمح والشـعير كمـا تم تحويلها ، مع الاحتلال البريطانى الى مزرعة خالصة للقطن ٠

وتحطيم دور العاصمة الحضارية ، يعنى تحطيم الدولة المركزية ، كمقدمة لتحطيم الدور ، وقد نجح الآخرون فى تحطيم الدولة المصريـة مرات ، ولكن الأمة بقيت ، واستطاعت أن تعيد بنـاء الدولة القوية فى كل مرة ٠

ان الخطر يأتى من هنا فى كل الأحيان ، يأتى من تحطيم الدولة المصرية أو تقزيمها ، ويأتى من الغـاء الوظيفـة الاقليميـة المصريـة ، أو اقتناصها ، وهو أمر يثير القلق حوله ٠ ما يجرى رسمه للمنطقة من خرائط جديدة ، سواء على مستوى تقسيم العمل الاقليمى ، أو على

مستوى شبكة الطرق التى يجرى تمهيدها بين القارات وغير ذلك من محاولات دفع البندول الاستراتيجى بعيدا عن مصر ، سواء تعلق الأمر بآسيا الصاعدة أو أوربا الموحدة ٠

ان الأمر يستحق فى هذا الاطار ، عناء موقف آخر ، ولكن علينـا قبل ذلك أن نؤكد باليقين ، أن مصر ، مكانا ومكانة ، سائدة لا متنحية ، ثابتة لا متغيرة ٠ راسخة لا مهتزة ، هى الأقوى ، ونحن الأضعف ، وهى الأغنى ونحن الأفقر ، وهى المطلق ونحن النسبى ، فيها ومن حولها ، فى الأمس ، واليوم والغـد ٠

٣ ـ أكتـــوبر ٧٣ :

الزواج العصرى بين الأسطورة والمعجزة •

أجازف بالقول ـــ مقدماً ـــ ان أعظم ما فى هذه الندوة الاستراتيجية للقوات المسلحة ، انها أعادت تنشيط الذاكرة الوطنية للشعب المصرى ، وأجازف بالقول ـــ أيضاً ـــ ان اسوأ ما يمكن أن يتعرض له شعب من شعوب الدنيا ، أن تظهر على ذاكرته الوطنية أعراض الشيخوخة ، وأن يثلم نصلها الذى يتحتم أن يبقى لامعاً ومصقولاً .

هناك حكاية جانبية تحتل وريقات قليلة فى احدى روايات الكاتب الكولبى المبدع « جارسيا ماركيز » ، لكنها تقدم أكثر من غيرها ، صورة ناطقة لمعنى تآكل الذاكرة الوطنية لشعب من الشعوب .

لقد استيقظت قرية معلقة فى صدر منطقة جبيلة على ظاهرة غريبة ، أخذت تزداد انتشاراً بين مواطنيها ، فقد أخذ كل منهم يشعر بوهن فى ذاكرته الشخصية ، وبأنه يعجز عن اعادة تذكر الحوادث القديمة التى المت به ، ثم ازدادت الحالة حدة ، فقد أصبح الناس لا يتذكرون أسماء بعضهم عندما يتخاطبون ، ثم تفاقمت أعراض فقدان الذاكرة الجماعية ، فقد نسى الناس أنسابهم ، وصلاتهم ، حتى وصل الأمر الى نسيانهـم لأسماء الأدوات والآلات التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية ، ولهـذا اجتمعت القرية كلها ، وتصارحت بالمشكلة التى تواجهها ، وتوصلت الى علاج لمقاومة زحف أعراض المرض ، بكتابة ورقة على كل أداة أو موقع أو مكان ، يحمل اسمه ، وهكذا علقت ورقة على كل انسان او حيوان او نبات أو جماد ، تحمل اسمه ، وطالت الأسماء اللافتات المعلقة على كل شىء ، من الشاكوش حتى البقرة ، ومن النافذة حتى المسمار .

لكن أعراض مرض فقدان الذاكرة لم تتوقف ، فلم يكن ثمة بديـل عن زيادة مساحات الكلمات المكتوبة فى البطاقات المعلقة بالأسمـاء . فأضيف الى بطاقة الشاكوش ما يفيد وظيفته ، وأضيف الى بطاقة البقرة

ما يفيد فوائدها ، غير أن استمرار الأعراض ومرور الوقت ، حول البطاقة الخاصة بكل آلة ، الى مجلد كبير ، فعند ذكر المسمار — مثلا — لابد من ذكر الخشب الذى يحتاج الى ذكر الشجر ، ثم يحتاج بالمتوالية اللغوية ، الى ذكر أشياء لا نهاية لعدها .

وكانت الملاحظة الأولى أن اللغة المشتركة نفسها تفقد دلالتها الاجتماعية ووظيفتها العملية ، لفقدان الذاكرة . وكانت الملاحظة الثانية ، أن الشيخوخة لم تقتصر على الذاكرة ، حين دبت فيها ، ولكنها دبت فى الحياة نفسها ، ففقد الناس ناموس حياتهم ، ولم يجدوا بدبلا عن أن يتفرقوا فرادى خارج اسوار قريتهم . أما الدرس الأكثر بلاغة ، فكان منطوقه يعنى أن الذاكرة الوطنية للشعب ، ليست مصدر وحدته القومية فحسب ، ولكنها عاصمته من التآكل والاندثار .

ان « أعداءنا فى الشرق » يدركون هذه الحقيقة جيداً ، ولذلك بقدر ما كان الهجوم ضارياً على الذاكرة الوطنية المصرية ، وفى قلبها الذاكرة العسكرية ، وبقدر ما تعددت محاولات طمسها ، بقدر ما حولت اسرائيل « الجيتو » الى جدارية كبيرة ، كأنها متحف حىّ للتاريخ — مع انه تاريخ مصنوع أو مسروق — وذلك أمر بالغ الوضوح على مستوى الرموز ، والصور ، والأسماء من الشوارع الى المبانى والحدائق ، بل ان هذا التاريخ المصنوع ، يخبز مع الدقيق ، ويصب فى أطباق الطعام ، ويلصق على كراريس المدارس ، وواجهات المحال ، فلا شىء فى اسرائيل ، خارج التاريخ اليهودى ، بأسطورته الصهيونية ، من أحمر الشفاه ، حتى أسماء الصواريخ أرض / أرض .

ولكن ما هى العلاقة بين هذه الندوة ، والرؤية الاستراتيجبة التى طرحتها ، وبين الذاكرة الوطنية .. الحقيقة أن الأولى فى كل الأحوال هى بالمصطلح العلمى ، دالة للثانية ، أى أنه كلما تسطحت الرؤية الاستراتيجية أو ضاقت ، كان ذلك دليلا على غياب الوعى التاريخى ، وانطفاء الذاكرة الوطنية ، مثلما أن هذا الانطفاء ، لا ينطوى فقط على ما من شأنه تسطيح الرؤية الاستراتيجية بل — أيضاً — على ما يهدد أسس الوحدة الوطنية .

لذلك فاننى أريد أن أؤكد — أولا — ومن واقع هذه الندوة أننى مدين باعتذار ، للعقل الاستراتيجى الوطنى ، فقد دأبت خلال عام كامل على صياغة تحذيرات متتالية ، من جراء ما يلحق بالرؤية الاستراتيجية العامة

من ضمور ، منبها الى أن هذا الضمور فى أعصاب الرؤية الاستراتيجية ، قد يؤدى الى أعراض مرض شائع ، اسمه « العمى الاستراتيجى » . لكن هذه الندوة الاستراتيجية للقوات المسلحة المصرية ، بأوراقها وأطروحاتها ، ومداخلاتها ، قدمت أبعاد منظومة فكرية استراتيجية مصرية ، بالغة الرصانة والاجتهاد والعمق . مما يقطع بأن شباكى لم تتجاوز مياه سطح المحيط المصرى ، وأنها بالتالى لم تنفذ الى تلك المدينة الاستراتيجية العائمة ، قرب القاع ، وكأنها بقايا قارة مفقودة . ثم اننى أريد أن أؤكد — ثانياً — ان المفارقة من جراء ذلك ، تبدو — بالنسبة لى — أكثر استعصاء على الفهم ، والتفسير ، فاذا كان العقل الاستراتيجى الوطنى مشحوناً الى هذا الحد ، بطاقة هائلة الغنى ، فلماذا يتجول هذا « الفقر الاستراتيجى » ، طليقاً ، ويثبت أعلام تسطحه ، وتخلفه ، وجهالته ، على افتتاحيات أغلب الصحف ، قبل زواياها الداخلية ، وعلى أوراق مراكز علمية تلف حول وسطها لافتة الاستراتيجية ، قبل أوراق ومطبوعات ، وبيانات ، تصدر عن أغلب أطر ومؤسسات ، ما يسمى بالمجتمع المدنى .

ثم أى مانع ترابى أو مائى ذلك الذى يستعصى على العبور الفكرى ، ليمنع هذا الزاد الاستراتيجى ، من أن يتحول الى أرغفة عيش ، فى يد المصريين ، أى قوة تلك التى يتسلح بها هذا الفقر الاستراتيجى ، ليحتل وسائل التعبير ، ويسد منافذ الرؤية ؟!

أحسب أن مدخلى قد طال الى الندوة الاستراتيجية للقوات المسلحة ، فى بعدها العسكرى ، ولذلك سأشرع فى محاولة رسم صورة بيانية ، لنبض قلبها القوى .

أولا : لقد أكدت هذه الندوة ، ووجوهها ، وأوراقها ، وتعقيباتها ، أن « **خبرة القتال** » ، هى أرقى أشكال المعرفة العسكرية فى التاريخ الانسانى ، مثلما أن الممارسة العملية ، هى أنضج صور المعرفة النظرية .

فكيف يكون الأمر اذا كان لدينا حصاد « خبرات قتال » حية متراكمة ، شاركت بفاعلية فى مشاهد مبارزة استراتيجية تاريخية ، امتدت لأكثر من نصف قرن من الزمان ، تشكل منجم ابداع فريد ، بحكم ما واجهته خلالها ، من تحديات هائلة ، بدءاً من أثقال موازين القوى المختلة ، الى تحديات تكنولوجيا أكثر الأسلحة تقدماً ، مروراً بما تفرضه الحرب الحديثة من تنظيم متطور وبالغ التعقيد لادارة معركة الأسلحة المشتركة ، وانتهاء

بجبال التحديات النفسية ، التى كانت تحتاج ، قبل العبور ، الى اكثر من عبور .

واذا كانت الدروس التى تنطق بها خبرة القتال المصرية ، الفريدة ، على امتداد الأعوام من يونيو ١٩٦٧ الى أكتوبر ١٩٧٣ وهى تستند الى تاريخ عسكرى مجيد وعميق ، قد طالت كل شىء فى الحياة المصرية ، من ايقاف نزيف تداعيات يونيو ، الى اعداد الدولة للحرب ، الى اعداد مسرح العمليات ، الى تقديم حلول مبتكرة مشاكل معقدة ، على جوانب وأعماق هذا المسرح ، مما شكل فى محصلته النهائية ، ودون مبالغة ، زواجــا عصرياً ، بين الأسطورة والمعجزة ، فان ذلك كله ما كان له أن يتم ، او يرتفع بناء وقامة دون أن تسرى فى كيانه كله ، روح صامدة ، متجذرة ، اسمها : « ارادة القتال » . واذا لم يكن تعبير ارادة القتال ، قد توفر له أن يستخدم بحروفه فى أوراق هذه الندوة ، فقد تخللها بشكل كامل . وطعم بمعانيها كل معانيها ، ثم ان ارادة القتال لم تكن حسا عسكريــاً خالصاً على جبهات القتال ، وانما كانت تعبيراً وطنياً شاملا ، يتدفق نبضه فى المجتمع المصرى كله ، ويكفى مثلا — وفقاً لشهــادة رئيس المخابرات المصرية العامة فى هذا الوقت — ان دراسة المخابرات لاتجاهات الرأى العام ، فى العمق المصرى أكدت أنه كلما اشتدت غارات الطيران الاسرائيلى فى العمق ، أبدت الجبهة الداخلية المصرية ، تماسكاً وطنياً ، بطريقة أقوى . لقد زرع المصريون ، خبرة قتالهم بالدم ، ورووها بالدم ، وحصدوها بالدم أيضاً ، ولم يكن ممكناً أن يحدث هذا الزواج العصرى بين الأسطورة والمعجزة ، دون أن تصعد هذه الخبرة على سلالم متصلة ومفتوحة ، من ارادة القتال :

١ — كيف يمكن لقوة مصرية صغيرة ، وسط انقاض الهزيمــة ، وبعد أقل من شهر واحد على صدمتها المروعة ، أن تقاتل فى ظل موازين مختلة ، فى معركة « رأس العش » ، وأن تحقق أول انتصارا لها عــلى القوة الاسرائيلية المهاجمة ، وأن تجبرها على التراجع ، بعد أن خسرت قائدها و ١٣ فرداً من قوتها .

وكيف يمكن لسلاح الطيران المصرى — الذى تم ذبــح ٨٠٪ مــن طائراته المقاتلة ، وهى تنام فى العراء ، مع أول ضوء من يوم الخامس من يونيو — أن يبدأ بعد ٦ اسابيع فقط ، فى القيام بهجمــات مركــزة وخاطفة ضد القوات الاسرائيلية ، المدرعة والميكانيكية عــلى الضفــة الشرقية لقناة السويس .

وكيف يمكن لزورق بحرى مصرى صغير ، بعد ٣ أشهر من هذه الواقعة ، أن يغرق بصاروخ بحرى ، مدمرة اسرائيلية هى « ايلات » بخسائر تجاوزت ٥٠٪ من قوتها ؟ ثم كيف يمكن بعد خمسة ايام فقط من هذه الواقعة ، أن تنفجر العملية « عاصفة » ، فى قصف مدفعى مركز ، على مواقع الصواريخ الاسرائيلية « ٢٤٠ مم » ، التى كانت تخضع لسطوة نيرانها ، مدن القناة ؟

على قاعدة من ارادة القتال اذا نمت خبرة القتال ، ومن قاعدة خبرة القتال التى اكتسبتها القوات المصرية ، فى المواجهات الممتدة خلال حرب الاستنزاف — كما يقول اللواء مصطفى خيرى البيه — انطلقت حرب أكتوبر ، ولذلك كما يقول اللواء طه المجدوب : « اذا كان المصب هو العبور ، فان المنبع هو حرب الاستنزاف » . لماذا ؟ « لأن هذه السنوات الطوال من العمل القتالى والاعداد الخططى والمعنوى ، قد شكلت من وجهة نظر العسكرية المصرية ، بوتقة للتجارب العسكرية ، والساحة التى انطلقت منها قواعد الفكر العسكرى المصرى ، مارست استراتيجية الحرب » . ولهذا كانت تلك المرحلة — التى اسماها المجدوب « الحرب الانتقالية » — جولة رابعة سبقت الجولة الخامسة ، لكنها كانت جسراً ضرورياً بل حتمياً اليها ، وباختصار فاننا لم نحصل على خبرات قتالنا بالتلقين ، ولم نقدم لمشاكلنا وتحدياتنا حلولا من النظريات والكتب ، لقد أبدعنا حلولنا فى حقل المواجهة العملية ، وانضجنا خبرة قتالنا ، بالحديد والنار ، ولهذا جاءت مصرية خالصة ، فاذا كان المنبع هو حرب الاستنزاف ، والمصب هو العبور فان المجرى الواسع لهما معاً ، لم يكن حقاً ، وصدقاً ، غير « ارادة القتال » .

٢ — كيف أمكن مواجهة تحديات التخطيط العسكرى لحرب أكتوبر ، ثم بلورة استراتيجية مواجهتها ، على مستوى القوات البحرية — مثلا — ان تلك الورقة المبهرة للواء محمد يسرى ، ترسم جوانب صورة مجسمة ، غير متداولة ، للانجاز الابداعى للبحرية المصرية ، رداً على هذه التحديات .

كان على البحرية المصرية — على سبيل المثال — ان تبتكر اسلوباً جديداً ، للقيام بخنق استراتيجى بحرى لاسرائيل كلها (قوة بحرية واسطولا تجارياً) وأن تتجنب فى الوقت نفسه أمرين : دخول الطيران المعادى المتفوق فى مواجهة مع وحداتها المفتقرة لعنصر الجو ، التأثير المباشر للعمليات العسكرية التى تجرى ، على قوام قواتها

وهكذا — ولأول مرة فى التاريخ البحرى — ابتكرت القوات البحرية المصرية ، أسلوب الخنق الاستراتيجى من بعد ، سواء عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، فى باب المندب ، أو فى وسط البحر الأبيض ، دون التخلى فى الوقت نفسه عن عرقلة حركة النقل البحرى الاسرائيلى أو أى نشاط آخر فى القطاع الشمالى للبحر الأحمر . « وقد تمت الاستعاضة عن تكثيف عمليات الوحدات البحرية فى هذا القطاع ، بتكثيف حقول الألغام فى مياه المدخل الجنوبى لخليج السويس ، لاعاقة نشاط اسرائيل البحرى ، خاصة نقل بترول سيناء عبر الخليج الى ميناء ايلات » .

واستطاعت بذلك أن تستغنى دون أن تفرط فى فاعلية عملياتها ، عن الأسلوب التقليدى للحصار البحرى المباشر والداخلى ، ومن ثم خلقت نوعاً من العمليات البحرية لم يألفها الاسرائيليون ، ولا تتيح فى الوقت نفسه ، لقواتهم الجوية أو البحرية التدخل بفاعلية (على مسافة ١٢٠٠ ميل من أقرب قاعدة بحرية اسرائيلية) .

ثم كيف استبدلت اضافة الى ذلك فى تحقيق المعاونة بالنيران للقوات البرية من جهة البحر ، المدمرات ، بوحدات خفيفة مجهزه بالصواريخ ، بسبب موازين القوى فوق مسرح العمليات ؟ ، ثم كيف استطاعت فى النهاية أن تزاوج بعبقرية ميدانية بين الهدفين ، التعبوى لها وهو اسناد عملية اقتحام القوات المصرية لقناة السويس ، وتأمينها من جهة البحر ، والاستراتيجى ، وهو الخنق الاستراتيجى للاقتصاد الاسرائيلى بحرياً .

أما السؤال الذى يبقى معلقاً ، رغم خطة التعمية الاستراتيجية الفذة ، التى صاغتها ونفذتها القوات البحرية ، كيف تمكنت هذه القوات ، فى ظروف المعركة ، أن تغطى بعملياتها ، أكثر من نصف مليون كم مربع من مياه البحرين الأبيض والأحمر ؟

٣ — ثم كيف أمكن فى سياق تلك العمليات المركبة لتمهيد مسرح العمليات للحرب ، أن يقوم سلاح المهندسين ، ببناء ما يوازى نصف مليون متر مكعب من السواتر الترابية ، و ٤٠ كم ستائر راسية معدنية فى نطاق الجيش الثانى ، لاخفاء عمليات التجهيز ، واعادة التمركز ثم الفتح التعبوى على مشارف العبور .

وأى عبقرية عسكرية مصرية ، تلك التى ابتكرت — لأول مرة — سلالم الحبال ، والعربات الصغيرة ، التى تحمل بصحبة جندى المشاة ،

الالغام والذخائر ، مع موجات العبور الاولى ، ثم كيف أمكن انجاز هـذا العبور ، بهذا الاتساع الأقصى ، وبالمواجهة ، لا بالالتفاف ، وهو أعقد عمليات اقتحام الخطوط الدفاعية فى الدنيا ، وفى النهاية ، كيف أمكن لهذا الجندى المصرى المترجل ، ان يستمر فى قتال دبابات العدو ، لمدة لا تقل عن ٦ ساعات قبل ان تبدأ الدبابات والأسلحة الثقيلة فى العبور ، انـه وغيره ـ كما يقول بحق اللواء احمد شوقى فراج ـ : « ضرب مـن الاعجاز البشرى ليس له مثيل فى تاريخ الحروب الحديثة » !!

٤ ـ على مستوى القوات الجوية ، فان ورقة اللـواء طيـار صـلاح المناوى ، تقـدم تصوراً لطبيعة الحلول التى ابدعتهـا القوات الجوية فى مواجهة المشاكل والتحديات التى فرضت عليها .

لم يكن بمقدور الطائرات المصرية بمداها المتاح ، الوصول الى القواعد الاستراتيجية فى العمق الاسرائيلى ، بينما كانت الطـائرات الاسرائيلية تستطيع الوصول بمداها الواسع الى جميـع القواعـد الجوية ، والتجمعات الرئيسية للقوات ، فكيف يمكن تغيير التفوق الجوى للعدو ، بالحصول على تفوق وقتى بديل ، وكيف أمكن التحول فى أسلوب التدريب الى تكتيك الهجوم ، وملافاة الفروق فى المدى الزمنى لعمـلى المقاتلات الاسرائيلية ، والمقاتلات المصرية (الثانية تعمل ٤٠ دقيقة فى المعركة الجوية ، والأولى تعمل ٢ : ٣ ساعات) ، ثم الدخول فى معارك قتال جوى ، دون استخدام الصواريخ المضادة للطائرات ، لصعوبـة المناورة الحادة معها ، والاكتفاء باستخدام الرشاشات والمدفعية . لقد كانت الفجوات كبيرة ، وواسعة ، وكانت محاولات سدها لا تقل عبقرية عن غيرها من محاولات سد الفجوات الأخرى .

هل يكفى ـ مثلا ـ من خلال ورقة اللواء مصطفى خـيرى ، استبصار صعوبة بناء حائط الصواريخ المصرى ، والنجاح المعجز فى بنائه تحت وابل من القصف الجوى الاسرائيلى ، خاصة مع التطـور المذهل فى أساليب الحرب الالكترونية ، ومع اتساع عمليات الدفـاع الجوى المصرى التى امتدت غرباً حتى مرسى مطروح ، وجنوبـاً حتى راس بيناس ، والذى كان يعنى أن تطبيق مبدأ الحشد فى اتجاه جبهـة المجهود الرئيسى ، للتركيز على حماية المعابر (التى وصلت قوة صـد الهجمات الجوية فوقها الى تدمير ١٢ هدفاً فى وقت واحد ، طوال عملية المواجهة) . لابد أن يتوازن معه تطبيق مبدأ الحماية الكاملة ، للأجناب والعمق التعبوى والاستراتيجى .

لقد تدخل المشير محمد على فهمى ، معقباً على التحديات التى واجهت الدفاع الجوى المصرى ، منذ نكسة يونيو ١٩٦٧ ، حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، ثم انعكاسات ذلك على الفكر العسكرى بعد ذلك ، مؤكداً أن القوات المسلحة المصرية فيما يتعلق بالدفاع الجوى قد تغلبت على أربع عقبات رئيسية ، تبدأ بالحصول على السلاح ، وتنتهى بكيفية وضع خطة غير تقليدية لمواجهة التفوق الاسرائيلى الواضح فى السلاح كما وكيفا ، الأمر الذى تجسد فى بناء حائط الصواريخ الذى أتاح لمصر فرصة أن تكسب المعركة قبل أن تبدأ ، أما التحدى الثالث ، فقد تضمنته المفاجأة الخاصة باستخدام الدفاع الجوى والقوات الجوية بصورة مركزة ومباغتة ، وفى حين كانت الثغرة هى التحدى الرابع والأخير . فان الأمر الوحيد الذى حال دون تصفيتها ، وكانت قواتها محشورة فى النهاية بين ضلعى جيشين كاملين ، هو تدخل أمريكى مباشر .

واذا كان التحدى الثالث ، يدخل فى صميم عملية ادارة معركة القوات المشتركة ، فأن ورقة المشير محمد عبد الغنى الجمسى ، تقدم تصوراً شاملا ، ليس فقط ، للتغلب على تحديات عملية العبور ، بحسابات علمية بالغة الدقة ، ولكن على جميع التحديات الميدانية ، لصياغة أسس معركة حديثة مشتركة بين جميع الأسلحة والقوات .

ثانياً : ان الندوة خاصة فى محورها العسكرى ، لم تغلق رؤيتها ولم تفرق أوراقها فى حدود التجارب السابقة ، وخبرات القتال المستمدة منها ، وانما وسعت حدود هذه الرؤية ، الى التطورات الراهنة ، وآفاق تطورها المستقبلى ، خاصة على صعيد تصنيف المخاطر المستجدة ، والمحتملة ، وكيفية التعامل معها ، وفى كل الأحوال فان ذلك ، لم ينته الى ادراك صحيح لبواطن الخطر ، وانما أيضاً الى توصيف صحيح لها .

لنبدأ بالتوقف أمام بعض « رءوس الجسور » الاستراتيجية التى فتحها هذا الجانب فى المحور العسكرى للندوة :

١ — اختارت الندوة من بين ما اختارت ان تقدم اجابة عن سؤال أساسى هو : كيف يمكن منع نشوب حرب جديد فى منطقة الشرق الأوسط ؟ وفى هذا السياق جاءت الورقة التى قدمها اللواء أحمد فخر ، ثم ما أحاط بها من مناقشات وآراء .

لقد توقفت الورقة بداية عند نقطتين مهمتين ، فى سياق تحديد المفاهيم .

الأولى : أن مصر لا تتحدث عن عدم نشوب حرب جديدة ، خوفاً من نشوب حرب جديدة ، لكن التاريخ علمنا ، أن ثمن الحـرب باهـظ وآثارها مربكة ، فوق أنها لا تحل مشكلة فى النهاية .

الثانية : أن أحداً لا ينبغى أن يتصور أن السلام فى مصلحة مصر وحدها ، بالدرجة الأولى ، لأنه فى مصلحة اسرائيل بالدرجـة الأولى قبلها ، غير أن السلام لا يعنى فى كل الأحوال ، تطابق المصـالح والأهداف أو الرؤى ، أو المفاهيم ، أنه — فقط — اختيار أسلوب لحل الأزمـات ، بغير استخدام القوة المسلحة ، ولهذا فهو لا يعنى انتهاء الأزمات ، أو غيابها ، وانما يعنى أن الأزمة فى النهاية — أية أزمة — هى نقطة معلقة بين الحرب والسلام ، ويمكن تحريكها فى اتجاه الحرب ، ويمكن تحريكها على الجانب الآخر فى اتجاه السلام .

اذن ، فى وجود الازمات ، وفى مفهوم موضعها ، واستمرارها : ما هى الشروط التى ينبغى وضعها موضع التطبيق العملى للعمل عـلى عدم نشوب الحرب ؟

● ان الضعف يغرى بالعدوان ، ولذلك فان أول شروط عـدم نشوب الحرب ، ادراك كل الأطراف ، بأننا نمتلك قوة مسلحة ، تستطيع أن تحمى السيادة والحقوق ، بما فى ذلك حماية القـانون والأرض . والمصالح الاستراتيجية ، ولذلك أيضـاً وعلى المستوى القومى الشامل فانه لا بديل عن خلق وبناء قوة دفاعية عربية مشتركة .

٢ — لا يمكن منع نشـوب الحرب ، فى وجـود غموض فى نوايا الأطراف المحيطة ، لأن هذا الغموض قد يقود الى سوء تفسير ، أو الى سوء تقدير .

ان وضوح النوايا عامل بالغ الأهمية ، وهو يطول حجم التسليح والقوات ، وشكلها ، وطبيعـة الاستراتيجيـة اى أن الغـموض فى الامكانيات يؤدى بدوره الى سوء تقدير ، ويحول الأزمة من اتجاه السلام الى اتجاه الحرب ، وبالتالى فانه لا يمكن العيش فى سلام ، فى ظل وجود غموض فى التسليح .

وبالنسبة للحالة الاسرائيلية ، فاننا نعيش فى ظل غموض كامل : غموض نووى اسرائيلى ، وغموض تسليحى ، وغموض كامل فى النوايا ،

وغموض فى الاستراتيجية المعلنة ، ومفاهيمها عن الحدود الآمنة ، وهو وضع لا يمكن القبول به ، فكيف نتفاوض ، مع شىء ، غامض ، حول اشياء غامضة ، تسليحاً ونوايا ، واستراتيجية ، ولأنه ينبغى أن يكون مفهوماً فى النهاية ، انه لا أحد ينتج سلاحاً ، لكى يضعه فى المخازن ، أو ينصبه فى المعارض .

ومن المهم تأكيد أن مسألة النوايا ، وغموضها ، تتبدى أيضاً فى سرعة اتخاذ القرار السياسى ، لاستخدام القوة المسلحة ، أى مدى السرعة فى دفع القوة العسكرية ، لحل المشكلة السياسية .

ثم ان مسألة النوايا لا يمكن أن تكون مستقلة بدورها عن طبيعة التحالفات فى المناطق المحيطة .

كيف تتحدد النوايا ، ان كل دولة تقدم ورقة رسمية تطلق عليها « ورقة الدفاع البيضاء » ، تحدد فيها حدودها ، واستراتيجيتها المعلنة ، وشكل وحجم قواتها ، وطبيعة تسليحها ، وهناك ورقة دفاع بيضاء ، أمريكية ، وأخرى المانية ، وثالثة بريطانية ، وهكذا .. ونحن — ايضا — لدينا « ورقة دفاع بيضاء » ، حقيقة أنها محدودة التوزيع ، ولكنها موجودة ، وليس مستعصياً على من يريد رؤيتها ، ان يحصل عليها .

اننا نتساءل ، ما هى الاستراتيجية النووية الاسرائيلية ؟ ، هل هى استراتيجية لضرب المدن ، هل هى استراتيجية لضرب الأهداف العسكرية ، وما هى منظومة قيمها ؟ ، ان ذلك كله جزء من غموض شامل على الجانب الاسرائيلى ، وهو غموض يجعل الأزمات — باعتبار كل منها نقطة واقعة بين الحرب والسلام — يمكن أن تميل الى ناحية الحرب .

لقد توقفت المباحثات ، فى اللجان المتعددة الأطراف منذ عام ١٩٩٥ بسبب هذا الغموض على جانب ، وبسبب رفض المفهوم الذى طرحته مصر ، لضبط التسليح فى المنطقة ، فالسلام يتأكد ، عندما تحتفظ كل دولة بقوة عسكرية دفاعية ، تستطيع الدفاع عن أمنها ، دون ان تشكل تهديداً هجومياً لجيرانها ، ولذلك أيضاً ، فان منع نشوب حرب فى المنطقة ، يتطلب بالدرجة الأولى « نزع اسلحة الدمار الشامل » ، والحقيقة أن كثيرين لا يتناولون بعمق نص مبادرة الرئيس حسنى مبارك

حول هذه القضية ؛ لأنها لا تنص فقط على نزع أسلحة الدمار الشامل وانما تنص اضافة الى ذلك ، على نزع « وسائل نقلها » .

ان أسلحة الدمار الشامل ، تبقى فى القبو ليتم اعدادها وتجهيزها فى الوقت المناسب ، ولكن وسائل نقلها ظاهرة ، وموجودة ، ودون توافر وسائل النقل ، ليس ثمة قيمة كبيرة ، لأسلحة الدمار نفسها ، ولذلك فان نزع أو تدمير وسائل نقلها ، عمل حاسم واساسى ، فى عملية نزع الأسلحة ذاتها .

لا بديل — اذن — لمنع نشوب حرب فى المنطقة ، عن شفافية ووضوح النوايا ، وعن قوة عسكرية دفاعية عربية قادرة على الردع ، وعن نزع أسلحة الدمار الشامل ووسائط نقلها من المنطقة ، ثم يبقى بعد ذلك ، رفض اى تحالفات عسكرية فى المنطقة ، والتحالفات العسكرية ، غير الاتفاقيات الدفاعية ، التى يمكن القبول بها .

٢ — تكمل هذه الصورة لأسس منع نشوب حرب ، وقضية الغموض العسكرى والاستراتيجى الاسرائيلى ، ما طرحه اللواء دكتور عبد الستار أمين (المسئول لسنوات طوال عن التخطيط الاستراتيجى فى القوات المسلحة المصرية) ، عن تأثير حرب أكتوبر على الوضع العسكرى ، الاقليمى ، غير أن رؤية اللواء عبد الستار ، أوضحت لتحديد المفاهيم منذ البداية ، ان النطاق الاقليمى المقصود هو الذى يتشكل من المحيط الأطلنطى غرباً ، حتى الخليج العربى شرقاً ، ومن سواحل البحر المتوسط الجنوبية ، حتى منابع النيل ودول القرن الافريقى ، مما يلاحظ معه ، اتساع المسرح الاستراتيجى الاقليمى ، وتداخل عناصره ، ومؤثراته ، بشكل ملحوظ .

ما هى — اذن — تأثيرات حرب اكتوبر وما بعدها على السياسة العسكرية ، ثم الاسرائيلية ؟

بالنسبة للسياسة العسكرية المصرية ، فان ملامحها قد تغيرت بالفعل بعد حرب أكتوبر ؛ لأنها — أى السياسة العسكرية — هى همزة الوصل بين المخطط سياسياً للدولة ، واستراتيجية استخدام القوة العسكرية ، ولذلك على ضوء المتغيرات الاقليمية والعالمية اتسمت هذه

السياسة العسكرية على الجانب المصرى بالعقلانية ، والرؤية الاستكشافية المبكرة للمتغيرات المحتملة ، فعملت على اعادة بناء القدرات العسكرية ، فى اطار توازن استراتيجى مقبول ، فى منطقة الشرق الأوسط ، ببناء قدرة عسكرية دفاعية تحقق الردع الاستراتيجى ، وتضمن الدفاع لتحقيق الأمن القومى المصرى والعربى ، مع الاستمرار فى تطوير الصناعة العسكرية . كما اتبعت مصر مبدأ تنويع مصادر السلاح ، والاستفادة القصوى من المساعدات العسكرية الأمريكية ، طبقاً لبرامج زمنية محددة ، كما اهتمت هذه السياسة العسكرية بتشجيع البحوث والتطوير لخدمة الآلة العسكرية المصرية والعربية ، اضافة الى بحوث للارتقاء بالفكر السياسى العسكرى ، والفكر الاستراتيجى ، فتحرر هذا الفكر الجديد من قيود الماضى ، ورحب بدعم التعاون العربى والافريقى ، كما رفض فكرة الأحلاف العسكرية ، ومنح قواعد عسكرية لدول أجنبية ، وهذا الفكر — أيضاً — يمتد لاستخدام القوات المسلحة خارج الحدود ، لدعم الأشقاء العرب ، فى مواجهة الأطماع التوسعية أحياناً .

أما بالنسبة للجانب الاسرائيلى فقد تغيرت ملامح العسكرية الاسرائيلية عقب حرب ١٩٧٣ وحتى الآن ، حيث أصرت اسرائيل على احراز التفوق فى مجال الآسلحة التقليدية وأسلحة الدمار الشامل ، بما فى ذلك ترسانة نووية ، تضم العديد من الرءوس النووية ووسائل التوصيل ، بامتلاك صواريخ « أريحا » متوسطة المدى ، وبعيدة المدى وطائرات « اف — ١٥ » ، و « اف — ١٦ » ، كما تسعى الى امتلاك عناصر الاستطلاع الاستراتيجى ، التى تمكنها حالياً من تغطية معظم الدول العربية ، وقد كانت حرب ١٩٧٣ نقطة تحول رئيسية فى مجال تطوير السلاح الاسرائيلى ، ومحاولات اسرائيل للحصول على أحدث منظومات التسليح ، حيث تم توقيع عدة اتفاقيات وبروتوكولات للتعاون الاستراتيجى مع الولايات المتحدة الأمريكية . لقد تحولت اسرائيل من الردع العسكرى باستخدام الأسلحة التقليدية قبل عام ١٩٧٣ الى تحقيق الردع باستخدام الاسلحة النووية بعد ذلك ، وسعت اسرائيل للبحث عن موطىء قدم لها فى منطقة الخليج لممارسة نشاطها ، وأصبح الهدف الاستراتيجى لها ، هو الالتفاف حول الدول العربية فى آسيا وفى أفريقيا لمحاولة تهديد الأمن الاستراتيجى للأمة العربية .

لقد أبرزت هذه الرؤية عدة نقاط اضافية :

● ان السياسة العسكرية الاسرائيلية ، الحالية ، تنطوى على مخاطر شديدة ، الأمر الذى يجعلها تمثل التحدى الأكبر والتهديد الأخطر ، سواء للأمن القومى العربى ، أو للأمن الافريقى .

● تتبدى هذه المخاطر وتتضاعف من كون طبيعة الفكر الصهيونى الراهن ، ماضية فى افراز مفهوم للتمدد خارج الأراضى العسكرية ، وعلى حساب أراضى الدول المجاورة لاقامة دولة صهيونية كبرى .

لا بديل — مع توصيف المخاطر على هذا النحو — عن عمل جماعى عربى فى المجال العسكرى لتحقيق الردع ، وبناء الاستقرار ، وحماية البقاء ، والمصالح العربية المشتركة ؛ لأن المفهوم العسكرى الاسرائيلى الراهن مازال يؤكد أن الصراع هو صراع وجود ، وليس صراع حدود .

● أن يكون لمصر دور كبير فى توحيد الجهود العربية لمواجهة العدوان ، وقيادة وادارة العمل العسكرى ضمن قيادة عربية مشتركة ، واللجوء الى الحماية بالردع والدفاع ، وعلى مستوى جميع دول الاقليم .

ان اسرائيل فى النهاية ، تطبق سياسة عسكرية واستراتيجية عسكرية عدوانية توسعية ، وهى آخذة فى تطوير علاقاتها مع تركيا ، ودعم علاقاتها مع اثيوبيا ، مستهدفة الالتفاف حول الدول العربية لتهديد العمق الاستراتيجى العربى ، وهو ما يستدعى بالضرورة — كما سبق القول — عملا عسكرياً عربياً مشتركاً من خلال منظومة قومية شاملة للردع والدفاع .

٣ — أما ورقة اللواء دكتور مهندس محمد قدرى سعيد ، فقد تناولت تطور نظم التسليح ، خلال ربع القرن الأخير ، ومنذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، مؤكداً فى البداية أن اغراق المدمرة الاسرائيلية « ايلات » قد وضع مفهوماً جديداً وهو « التأثير البعيد الدقيق » فى المعارك الحربية ، وهو ما أصبح درساً تم تعميمه والاستفادة منه ، على مستوى كثير من الدول ، أما الفكر الاستراتيجى فى مجال الدفاع الجوى ، فقد تغير من مبدأ « الصاروخ ضد الطائرة » كما حدث فى أكتوبر الى مبدأ « الصاروخ ضد الصاروخ » ولهذا مضت اسرائيل فى تطوير الصاروخ « أرو » المضاد للصواريخ ، ولذا فان ذلك يمكن أن يجعل الفكر الاستراتيجى العربى ، مطالب بالوقوف فى وجه محاولة تآكل « الدفاع الصاروخى » ، فان ذلك ، مازال ممكنا ، بوسائل كثيرة ، أهمها اعتماد مبدأ « الحشد » ، يضاف الى ذلك ظهور مستوى أكبر من

التعقيد والصعوبة فى ادارة منظومة القوة الحديثة ، حيث تتطلب المعركة الحديثة ، الاعتماد على بلورة فكرة « القيادة والسيطرة والاتصال فى معركة الأسلحة المشتركة » ، والذى تطور خلال الثمانينيات الى منظومة لادارة المعركة تستخدم نظماً للمعلومات يمكن الحصول عليها وتداولها وتحليلها ، وتتيح للقائد على المستوى الاستراتيجى أو التعبوى ، أو التكتيكى ، أن يعلم ، ويعمل فى زمن الحرب الحقيقى المواكب لأحداث المعركة ، ولهذا أصبح العالم ينظر الى القوة التقليدية من ثلاثة جوانب رئيسية :

١ ـ نظام استشعار يقوم بالكشف عن مصادر التهديد ، وتحديد الأهداف .

٢ ـ نظام للقيادة والسيطرة والاتصال يقوم بجمع المعلومات وتحليلها ورفعها الى مراكز القيادة .

٣ ـ نظام اتخاذ القرار فى ضوء ذلك ، واستخدام أسلحة القتال والاشتباك ، سواء مع الطائرات أو الصواريخ ، أو الذخائر . يضاف الى ذلك كله من تطور مهم ، تحول الفضاء الى بعد جديد لعمل القوة العسكرية . حيث يمكن الاشتباك بجميع أنواع الأهداف من الفضاء فى جميع مراحل المواجهة العسكرية ، ولكن ذلك كله يعنى ، كما تؤكد هذه الورقة المجتهدة ان « حرب أكتوبر » قد حملت الينا دروساً ورسائل للمستقبل ، فالاستعداد التكنولوجى أصبح ، مكافئاً للاستعداد القتالى ، وأصبح من الواجب ان يحظى البحث العلمى والتطور التكنولوجى ، بالتخطيط والتدريب والتقييم بنفس القدر الذى يناله النشاط العسكرى المباشر ، وبعد .. فهذا مسح دون تعمق كاف ، فى هذا العمل الاستراتيجى الفريد ، والذى لا يكفى مصر فى النهاية ، ازجاء التحية الى الذين خططوا له ، وأعانوه ، وأخرجوه الى النور ، بدءاً من وزير الدفاع المشير حسين طنطاوى ، الى هيئة التوجيه المعنوى ومديرها اللواء سمير فرج ، وتلك الكوكبة التى عكست جوانب مضيئة فى العقل الاستراتيجى الوطنى ، خاصة مقرر هذا المحور اللواء أحمد فخر ، الذى أسبغ عليه من طاقته ، وجديته وعمق رؤيته الكثير .

ثم لا يكفى أن تتحول هذه المادة الى زاد اعلامى مؤقت ، وسوف أسمح لنفسى أن أقترح ، بأن نستخلص من هذه المادة ، ما يوضع بين دفتى كتاب يدرس فى جميع الجامعات المصرية ، فسوف يكون ذلك عملا جاداً ، لتنشيط الذاكرة الوطنية وحفظها ونقلها الى الأجيال المصرية الصاعدة .

٤ ـ لماذا يطلبون دفن ثورة يوليو ؟! :

انهم يريدون تجريد الدولة من مبررات وجودها ..

لم تحظ ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مناسبة ذكراها بمثل ما تحظى به هذه الأيام من هجوم عدائى كاسح ، ومن قصف مكثف بالأسلحة الثقيلة ، وصل الى حد الغمر بالنيران . بل وصلت عمليات الضرب الى ما يعرف فى التكتيك العسكرى ، بالضرب المساحى ، وهو احداث صورة من التدمير الشامل ، تغطى جميع أحداثيات قطعة من الأرض . مع أن المستهدف ، لم يكن قطعة من الأرض ، وانما قطعة من التاريخ .

فهل المطلوب هو فصل هذه القطعة الحية من التاريخ ، وازالتها كأنها سقطت فى البحر سهوا ، ثم وصل منتصف القرن ، بالقرن الجديد مباشرة ، لكى يعطى مشروع « الانقلاب المدنى » ، باسم الملكية ، أو الرئاسة البرلمانية مشروعية الاستقواء على غيره واغلاق ساحة العمل الوطنى عليه وحده ؟!

أريد أن أقول مستدركاً : ان الثورة ليست فوق النقد ، وان تجربتها ليست فوق المراجعة ، ولذلك فاننى واحد ممن كتبوا مبكرين وملحين ، لاخضاع تجربة ثورة ٢٣ يوليو ، الى أوسع عملية مراجعة نقدية بل وساهمت عملياً فى ذلك .

لكن المراجعة النقدية ليست دفع الاتهامات الضالة ، وكأنها قطعان ماشية هائمة الى حيث تجد الماء والكلأ ، كما انها لا يمكن أن تكون على غرار تلك الدعوة ، التى أفرخت فى صندوق فكرى صهيونى ، ثم وزعت نفسها على المضللين والمخدوعين والعملاء ، محاولة اقناع الشعوب ، بأن أفضل احتفاء بالتاريخ الوطنى ، هو دفن جثمانه ، وأفضل تكريم للثورات ، هو ادخالها القبور ، باعتبارها ميراثاً من الشكوك والعواصف، ليكون التحرر من القيود كاملا ، والالتحاق بالعالم الجديد تاما ، والاعلان مدويا ، عن اننا الضعف التاريخى مجسداً ، أو أننا اللانموذج واللاتاريخ .

مع هذا كله ، فان هذا الهجوم الكاسح على ثورة ٢٣ يوليو ، فى هذا التوقيت ينطوى على عدة مفارقات مدهشة ، تستحق التوقف والتأمل .

أولا : لقد تزامن مع أوسع هجوم على ثورة يوليو المصرية فى مصر ، أوسع احتفال تاريخى بالثورة الفرنسية فى فرنسا ، فقد تزينت باريس ، هذه المرة ، بكل وردها وعقودها ، واغتسلت فى مياه السين ، وتعطرت بعبق التاريخ ، وانسكبت حركة وفرحة فى الشوارع التى استحمت بالألوان والأضواء ، وكأنها تنتظر عشاقها القادمين من فجاج تاريخها ، وقد توحدت أجيال فرنسا كلها ، ومعها كل تياراتها السياسية والفكرية والاجتماعية ، من أقصى اليمين الى اقصى اليمين الى اقصى اليسار ، ومن قمة السلطة الى سفح المجتمع ، بين ضفتى الثورة وكأنها النسب المشترك ، أو شجرة العائلة الفرنسية الواحدة .

ولا غرابة فى ذلك ، ففرنسا لم تركز عينها على « مقصلة الجلاتين » وفوضى القتل الجماعى ، وجداول الدم المسفوك فى الشوارع ، وانما ركزتها على تلك العصارة الثورية الحية ، التى اندفعت لتجدد شبابها ، وأبنيتها الاجتماعية والفكرية ، قبل السياسة ، وانعكست بالتالى على دورها الامبراطورى ، قبل الحضارى .

وتتبدى المفارقة هنا ، فى أن جرحى الثورة المصرية ، لا يساون فى ميزان التاريخ ، عودا واحدا ، فى حقول قتلى الثورة الفرنسية وضحاياها ، لكن الشعب الفرنسى ، غرق — حسب وصف أنيس منصور — فى الشمبانيا والرقص والغناء والصواريخ الملونة ، وأفلام ديجول .. أما الشعب المصرى ، فقد وجد من يحاول اغراقه ، فى النكد والشماتة ، وأكوام السباب والأكاذيب والأهم من ذلك ، فى التناقض والفرقة !

ثانياً : ان اعداداً متزايدة من أولئك الذين اختاروا ان يصطفوا على يسار جمال عبد الناصر ، فى أوج اندفاع يوليو ، هم الذين يختارون أن يصطفوا الآن على يمين حسنى مبارك ، قرب أحد شطآنها ، وتلك مفارقة أخرى تبحث لنفسها عن تفسير .

اننى أستطيع أن أضرب مثلا بعشرات الأمثلة ، وبأسماء متورمة فى الاعلام والثقافة قبل العمل السياسى ، فبعض أولئك الذين جلسوا

قبالتنا فى موضع الأساتذة ، وحاولوا ان يقنعونا ونحن براعم غضـــة ، بأن تجربة ثورة يوليو وتأميماتها وقوانينها ، ليست تجربة فى الاشتراكية، ولكنها احدى صور رأسمالية الدولة ، وانه لا بديل لذلك سوى الاشتراكية العلمية ، وحتمية الحل الاشتراكى ، هم أنفسهم الذين يرفعون عقيرتهم بالغناء الآن ، لحتمية الحل الرأسمالى ، والرأسمالية بغير حدود ، ولذلك الفجر الليبرالى القادم، الذى يحتاج ظهوره الى اطفاء شمس الدولة أولا .

ثم ان اعداداً أخرى من أولئك الذين انكفأوا فى خنادق رفضهـــم اليسارى بداية السبعينيات بالجامعة .. ووزعوا علينا فى معترك النضال الطلابى ، شعارات تتوهج حمرة قانية وكأنها تقطر دما ساخنا من منجل علم « لينين » هم أنفسهم الذين يتبجحون بالدعوة ، الى الذوبـــان فى الآخر ، والى ان تقوم الدولة نفسها ، بتعويم نفسها ، وكأنها شركـــة خاسرة ، أو مشروع أصابه الافلاس والانهيار .

واعترف ان البحث عن تفسير لهذه التحولات العنيفة من شـــاطىء الى شاطىء ، ومن نقيض الى نقيض ، قد اصابنى بالحيرة ، وقد حاولت أكثر من مرة ، أن أجد سببا يعبر عن ان يكون الأمر نزوعا الى التجديد ، لا هروبا من التجميد ، ولكننى انتهيت الى قناعة أخرى بأن هذه الفئة من المنشغلين بالثقافة أو السياسة ، انما يبدو تأثير البيئة الخارجية عليهم — عكس قوانين علم الوراثة — هو الاكثر حسما ، أقصد ان بهم آلية ذاتية للتحول . كتلك التى تستقر فى الجهاز العصبى لنبـــات عبـــاد الشمس ، توجه قنوات استقبالهم ، كما توجه أوراقه ، نحو ما يبدو أشد سخونة ولمعانا فى الفضاء الخارجى ، سواء باسم العولمة الآن ، أو باسم الاشتراكية الأممية فى أوج صعودها وتأثيرها .

وذلك هو التفسير الذى يقطع بأن الجذور بالغـــة الهشاشـــة فى التربة الوطنية ، وهذا — أيضاً — هو التفسير الذى يوضح درجة العداء الأكثر شراسة للتراث الوطنى والخصوصية الوطنية .

ثالثاً : الا يبدو من قبيل منطق الطبيعة ، ان النار تبرد بمـــرور الوقت ، وان الجروح تزداد التئاما بعامل الزمن ، وان مذاق الانتصار التالى ، يبدد طعم الهزيمة السابقة .

عند غيرنا تعمل قوانين الطبيعة على هذه الشاكلة ، لكن قوانين الطبيعة تعمل عندنا عكس الطبيعة ، أو قل ضد الطبيعة ، فبيننا وبين هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، انتصار أكتوبر العظيم ، ولكن هذا الانتصار لا يبدو

عند هؤلاء ، أكثر من مكعب من الزجاج ، يحنطون داخله جثة الهزيمة كاملة ، ويحتفظون بها ، ليعرضوها على الناس ، بمناسبة وغير مناسبة .

فهل المطلوب أن تبقى جثة الهزيمة معلقة ، وان ندفن الانتصار حياً ؟! وكأن هناك من يريد ان يقنع المصريين ، بأن هزيمتهم هى القاعدة ، وانتصارهم هو الاستثناء ، وانتصار خصومهم هو القاعدة وهزيمتهم هى الاستثناء .. أو كأن هناك من يريد الا تتحول الرؤية المصرية بعيدا عن الهزيمة ليتصرف المصريون ، بمنطق المهزومين المنكسرين .

ولذلك عندما تشم رائحة احتراق الأعصاب فى هذا الخطاب الذى استأسد مؤخرا ضد ثورة يوليو ، يمكن أن يخيل اليك أن نار يوليو قد أضرمت الآن ، وأن جرحى يوليو هم عموم الشعب المصرى ، الذى لم يكن صانع الثورة وملهمها ، وقائدها ، وانما كان فى مقدمة صفوف ضحاياها .

والمفارقة فى ذلك ، ان تلك النزعة الثأرية ضد ثورة يوليو من جانب تلك القوى التى طردتها الثورة من فوق المسرح السياسى والاجتماعى المصرى ، لا تضعف كغيرها بمرور الزمن ، وانما تستقوى بغيرها ، لأنها مجبولة على أن تحول أزمتها الخاصة .. الى أزمة عامة .. تحاول أن تغرق المجتمع كله ، بكل طبقاته الاجتماعية ، ومدارسه الفكرية ، فى بركتها الآسنة .

رابعا : لابد أن يلح عليك هذا السؤال نفسه أمام هذا الهجوم الضارى والقصف المركز :

لماذا يطرق المستقبل ابوابنا بقوة ، وتحيط بنا تحدياته من كل حدب وصوب ، ونبدو فى الوقت نفسه ــ وبالمفارقة أيضا ــ منشغلين بالماضى ، ربما حد الهوس بالهجوم عليه ، أو الاستغراق فيه ؟ هل هى نزعة حنين أم غياب يقين ، أم خوف من المجهول الذى تتواثب ظلاله ، وربما أشباحه ، وراء منحنيات السنين ، أم أننا أمام حروب ثارات لا تزال نارها مشتعلة عند حافة قرن يؤذن بالأفول ؟

لست أعتقد أن أيا من الاجابات السابقة يصلح وحده لاضاءة فراغ السؤال السابق .

ولكنه لم يستطع الغاءها او [illegible]
الحرب هدفها شطب الثورة من التاريخ ، فذلك أمر يفوق خيالات اصحابه حتى لو كانت هلاويس وكوابيس ، لذلك لا شىء فى هذه الحرب موجه الى الماضى ، وانما الى الحاضر والمستقبل ، ولا شىء فى هذه الحرب بالمعنى الحقيقى ، معنى بما كان ، وانما بما سيكون ويكفى التدقيق فى مفردات هذه الحرب ومادتها لاستجلاء هذه الحقيقة بوضوح كامل :

١ — تتعمد هذه الحروب ومفرداتها ومادتها الزج بمدرسة العسكرية المصرية بمناسبة وغير مناسبة ، وتصويرها من بعيد ، ليس فقط على انها صانعة انقلابات على الدستور والديمقراطية ، ولكن على أن وجودها كعنصر فى الحياة الوطنية ، يرتبط بالقمع ومعاداه الديمقراطية ، وازهاق روح الحوار الوطنى ، وتلك بدورها نظرة مستوردة ، تنزلت عند أصحابها من تجارب أخرى ، لكيانات سياسية ذات هشاشة اجتماعية ووطنية ، فى قارات بعيدة كأمريكا اللاتينية ٠

ان التجربة الحية للمدرسة العسكرية المصرية بعمق مئات القرون ، تؤكد أن هذه المدرسة باعتبارها وعاء القوة التاريخى المنظم ، ظلت متمسكة — أولا — بعقيدة قتالية شبه ثابتة لحماية التراب الوطنى المصرى ، وقد صاغت نظريات قتالها فى ضوء هذه العقيدة الدفاعية التى وضعتها دون تردد موضع التطبيق العملى ، وقدمت قوافل متصلة من الشهداء دفاعا عنها ، وحفاظا عليها ٠ كما أنها ظلت متمسكة — ثانيا — بصياغات ناضجة ووشائج قوية مع مجتمعها الوطنى ، بكل قواه الاجتماعية ٠٠ أتاح لها أن تلعب دورا متميزا فى صيانة وحدته الوطنية ، كما أنها ظلت متمسكة — ثالثا — بموقع خاص ، سمح لها بأن تندمج كليا فى تطلعات وطنها وطموحاته ، دون فجوات بل سمح لها هذا الموقع أن تتقدم لتسد عند الحاجة ، كثيراً من الفجوات والثغرات ، كان من بينها فى مرحلة فجوات ذات طبيعة تكنولوجية وتحديثية ٠

وحتى اذا تغاضينا عن حتمية التغيير باستخدام القوة المسلحة فى ظل نظام ملكى وصل الى حالة من التيبس الكامل ، تمنع الجديد من أن يعرف نفسه بغير القوة الجبرية ، فان الجيش المصرى لم يكن راغباً — أولا — فى التداخل ، وظل يتمنى أن يصحح النظام نفسه بنفسه .. وعندما استدعته المتغيرات والفوضى الداخلية للتدخل حاول — ثانياً —

ان يتدخل باسم غيره .. واختار أن يتدخل عقب حريق القاهرة باسم الوفد ، ولكن الوفد رد بلسان النحاس ، على رسالة الضباط الأحرار ، قائلا بالحرف الواحد : أنه لا يستطيع أن يدخل لعبة الضباط ولا يريد ذلك .. كما أنه لا يريد أن يخسر أوراقه مع الأمريكان .

ان الفوضى والتدهور ومن ثم الانهيار هى التى استدعت الجيش ، ويكفى للاستدلال أن « رالف ستيفنسون » السفير البريطانى فى القاهرة هو الذى كتب الى الخارجية البريطانية (حسب وثائقها فى بداية شهر يوليو ١٩٥٢) تلك النبوءة المقبضة :

« ... ان التدهور التدريجى للأمن والنظام وتطور الموقف السياسى المصرى منذ أن تولت حكومة الوفد السلطة فى يناير ١٩٥٠ ، وعلى وجه الخصوص السرعة المتزايدة لهذا الاتجاه منذ الصيف الماضى ، وصولا الى أعمال الشغب فى القاهرة .. وانهيار سياسة الوفد ٢٦ يناير الماضى ، قد جعل الكثير من المراقبين ممن لهم معرفة جمة بالتاريخ المصرى ، يشعرون بالتشاؤم البالغ بالنسبة للمستقبل .. لقد أخبرنى هؤلاء المراقبون ان كل هذه الأشياء ، انما هى أعراض للانهيار التدريجى والسريع لمصر الى حالة الافلاس المالى ، والفوضى الادارية ، والحرب الأهلية المحتملة ، وسيكون ذلك متفقا كليا مع واقع التاريخ المصرى » .

لقد كان ستيفنسون قادرا على رؤية عوامل الهدم ، ولكنه لم يستطع أن يرى عوامل البناء التى لخصها دور الجيش المصرى ، ليمنع الانهيار الكامل والوصول الى حالة الحرب الأهلية المحتملة .

ولذلك فان أولئك الضباط الذين انشق ليل القاهرة ثم انبلج الفجر وهم يمسكون بأغلب أركان السلطة ، لم يكونوا حتى بعد صدور بيانها الأول ، وبعد أن امتلكوا أدوات السلطة يدركون ماذا هم فاعلون بها .

وعلى مشارف ليلة ٢٣ يوليو .. وحتى فى حدود المهمة التى رسمتها طلائع القوات المسلحة لنفسها ، فلم يكن ما يدور فى خلدها يصل الى طموح تغيير النظام ، فضلا عن بناء نظام بديل .

٢ ـ الغريب فى هذا السياق كله أن أولئك الذين يستخدمون اسم الجيش المصرى ، ليقدموا ايحاءات ليست صحيحة ، فضلا عن أن الظروف لم تعد تتحملها ، هم أنفسهم الذين اخذوا يشنون الحرب علينا علنا ،

تحت دعوى أن الارتكاز على « الأمن القومى » كاطار للعمل الوطنى هو الذى أنجب الهزائم وولد الفقر واللعنات ، هم أنفسهم - أيضا - الذين يصوغون قصائد المديح علنا وسراً فى الديمقراطية الاسرائيلية ، ولا تعرف على وجه التحديد ، هل حدود رؤيتهم تقف عند سطوح الأشياء والظواهر ، أم أنها مجرد أدوات دعائية مشتراة ؟!

فى المنظور الأكاديمى البحت تعتبر اسرائيل نفسها حالة تشريحية كاملة لتبنى قيمة الأمن القومى كقيمة جوهرية فى الثقافة السياسية للدولة .

فى المنظور الأكاديمى أيضاً ، فان الصفوة الحاكمة فى اسرائيل تتطابق مع أنضج المفاهيم العلمية عن عالم الدولة العسكرية ، وهو العالم الذى تحتل فيه القيم العسكرية الأولوية والصدارة على القيم الأخرى ، ويكون فيه المتخصصون فى العنف هم أقوى جماعة فى المجتمع .

أليس المطلوب على هذا النحو ترسيخ توزيع غير عادل على جانبى التل ، فيذهب « الأمن القومى » قيمة عليا ، ومدخلا أساسيا الى اسرائيل ، وتذهب ثقافة السلام ، والقبول بالآخر قيمة عليا ومدخلا أساسياً الى مصر ؟ .. لذلك لم أبالغ حين قلت أن بعض الباحثين فى بعض صحفنا ، يعمدون قاصدين الى تقويض الأمن القومى المصرى .

ان ما يحكم اسرائيل من منظور علمى ليس الديمقراطية ، وانما حالة من حالات التسلط العسكرى ، ليس لأن الايمان بالعنف هو أفضل وسيلة يراها الاسرائيليون جميعا لتحقيق أهدافهم ، ولكن أيضا - لأن مفهوم الأمن عندهم ، هو المفهوم الغالب على غيره من المفاهيم ، ان الجيش فى اسرائيل « الديمقراطية » هو الذى يتولى مهمة تربية الأجيال الجديدة ، كما أنه مسئول عن الأنشطة التربوية التى تشمل الفقراء والمهمشين والأحداث والمستوطنين ، بل ان الخدمة العسكرية فى اسرائيل - لمن لا يعرف - تتضمن برامج مكثفة فى التربية السياسية ، فالمؤسسة العسكرية فى اسرائيل ، هى اطار منظمة الشباب الاسرائيلى ، وهى قوة دفع الشباب الى الأحزاب ، وهى المسئولة عن تعليم الناس ، دين الدولة الرسمى ، وهو « الأمن » وباختصار شديد ، فلابد أن يكون فى قلب هؤلاء الباحثين مرض ، لكيلا يروا أن المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، هى أقوى مؤسسة من حيث منظومة الفكر ، والتخطيط الاستراتيجى ، بل والاستحواذ على القرار السياسى فى اسرائيل ، وليس كمؤسسة فوقها حتى لو كان اسمها مجلس الوزراء أو الكنيست !

[illegible] السيد يسين بعد المشروعات من جماعة كوبنهاجن ٠٠ التى
تركت فى العراء ، ولكن مقاله الأخير ، ينسخ مقاله السابق تماما ، ويقدم بنفسه اعتذارية رصينة ، لا عن هذا المقال فقط ، ولكن عن سابقه وسابقه كذلك ، ففى أوج معركتنا ضد « الاختراق » والتمويل الأجنبى لأبحاث الرأى العام — على سبيل المثال — كان سند الطرف الآخر هو السيد يسين نفسه ، وقد تكرر ذلك فى أكثر من موقعة ومواجهة ٠

لكن الأستاذ السيد يسين يضم ذخيرته ، كما جاء فى مقاله الأخير الى كل ذخيرة وطنية وقومية ، وهو موقف كما يستحق فى لحظات فاصلة التقدير ، يستحق المراجعة ، وسوف أتوقف — فقد — عند تعبير واحد ، صاغه واستخدمه فى مقاله قبل الأخير ، لأنه فى الحقيقة أصابنى بالفزع ، وهو ما أطلق عليه « الوطنية المتطرفة » ٠

لقد أنفقت وقتا وجهدا فى دراسة مطولة عند تحولات مدرسة الليبرالية المصرية منذ بواكير القرن وحتى ثورة يوليو ، وراجعت معها كثيرا من الشهود والوثائق البريطانية ، وكان التعبير الأكثر شيوعا بها فى وصف شخص مثل سعد زغلول أو مصطفى النحاس ، أو مكرم عبيد ، أو غيرهم هو أنه « متطرف وطنيا » ، وكان الوصف نفسه من نصيب جمال عبد الناصر فى وثائق أخرى ٠

ولست أعرف ما اذا كانت الوطنية المتطرفة قد أصبحت فى عصر العولمة ، سبة أو عورا سياسيا وأخلاقيا ، أم أنها لا تزال فضيلة مطلوبة ، ففى الوطنية ليس ثمة طريق ثالث ، على شاكلة الجنس الثالث ٠

ولو لم يكن على قمم منظومات القوة فى الدولة المصرية ، وطنيون متطرفون ، لكان الحال غير الحال ، ولربما انتهى توصيف السيد يسين الى انشاء فرع امنى جديد تحت عنوان مكافحة « الوطنية المتطرفة » باعتبارها مصدر الخطر الحقيقى على العولمة ، فى عصر ينبغى أن تتحلل فيه الأوطان ، وينحل عقلها الوطنى ، ويسود فى جنباتها ، من يمكن أن يوصف بأنه « نصف وطنى » على طريقة « نصف عذراء » ٠

٤ — أقول ذلك فى الحقيقة تنبيها الى أنه ليس من قبيل المصادفة أن أولئك الذين يصوبون أسلحتهم الثقيلة الى ثورة يوليو ٠ ويدعون علنا الى دفن جثمانها حيا ، هم أنفسهم الذين يشكلون القوة الضاربة فى الاعلان عن معاداة « الأمن القومى » كقيمة عليا ، والدولة كاطار

تاريخى للوطنية المصرية ، على اعتبار أن الدولة شىء آخر غير السلطة وغير الحكومة ٠

وهم أنفسهم الذين يشكلون قوام مجموعة كوبنهاجن ، وهم أنفسهم أنصار نظرية « ان العدو فى الداخل » وليس فى الخارج ، وان الدولة القوميـة قد بددت طاقتها وثرواتها فى مرحلة نضالها الوطنى لاستخلاص ارادتها وسيادتها ، لأنها ركزت على أن ثمة عدوا فى الخارج اصطنعته وناصبته العداء ٠٠ لتدعيم سلطتها فى الداخل ، باستخدام مخاطر وهميـة ٠

انهم انفسهم الذين يكثفون جهودهم معززة بترسانة من الدعـاية والأموال ، لكى يتقبل الناس بعقلانية شكلية فكرة أن تبدو الدولة — على حد تعبير برل كيندى — شيئا من مخلفات الماضى ، مثلما تغـدو الثقافة القوميـة أو الخصوصـية الوطنية ، أو حتى الأهمية « الجيواستراتيجية » بدورها مخلفات تاريخ مهزوم ، وأدوار مهزومة ٠٠ وفلسفات مهزومة ، تستحق أن تدفن جميعها لتخلى الساحة لمستقبل البشرية الجديد ، الذى لن يكون — على حد تعبير هتنجتون — سوى « طريق تقف فوقه أرتال من السيارات المتشابهة » ، ولهذا لابد أن تذبح كل الأبقار المقدسة ، من التراث الى الدولة ، ومن منظومات القوة ، الى منظومات القيم ، ومن الخصوصية الوطنية الى الأمن القومى ، ليتم الابقاء على بقرة مقدسة واحدة هى السوق ، وهى البقرة التى تتمتع بقداسة العولمة ، والتى رغم رفضها القولبـة ليست الا قالبـا كبيرا واحدا ، على مقاس رأس العالم أو رأس المال ، ورغم اعلانها سقوط الحتميات ، فانها حتميـة الحتمية ، لأنها من وجهة نظرها ، نهاية التاريخ ٠ ان كاتبـا أمريكيـا حديثا هو (بنيامين باربر) هو الذى كتب مؤخرا يعرف العولمة بأنها « تجريد الدولة القوميـة من مبررات وجودها » ٠

٥ — ما هو المطلوب من ذلك الهجوم الضارى على ثورة ٢٣ يوليو ؟

المطلوب تحديدا هو اسقاط نصف قرن من الزمن المصرى الهادر ، واستعادة « الماضى » ولكن باسم « المستقبل » ٠

المطلوب تحديدا ، هو تجريد الدولة المصرية من مبررات وجودها !!

٥ ـ الطريق الثالث ، ليس طريقا ثالثا ··

ربما كانت رواية « الاخوة الأعداء » للكاتب اليونانى المبدع « نيكوس كزانتزاكس » هى أول عمل روائى ابداعى ـ يبشر بوجـود ممر سيـاسى واجتمـاعى جـديد ، اسـمه الطـريق الثـالث ليس هو الرأسمالية المتوحشـة ، ولا الماركسـية المقيـدة ، ولكنـه مزيج من فضائلهما ·

غير أن الرواية نفسها ، هى التى بشرت ــ أيضاً ــ بأن هذا الطريق الثالث ، هو مجرد ممر وهمى أو نفسى ، لا مكان له فى الواقع المادى ·· وبأن الذين يحلمون به ، ويتمسكون بندائه ، سوف يلاقون مصير الأب « ميناروف » بطل الرواية ·· الذى وقف فاتحا ذراعيه بين الاشتراكيين والرأسماليين ـ مشيرا الى طريق ثالث ·· وهو يصرخ : المحبـة ·· المحبة ، حتى أردته رصاصة ضالة لم يعرف أحد بالضبط من أى الطريقين المتضادين قدر لها أن تجىء ·

والحديث عن « الطريق الثالث » الذى يتكثف سحبا فى بريطانيا بالدرجة الأولى ، وفى الولايات المتحدة بالدرجة الثانية ، قد تحول الى زخات أمطار متصلة فى مصر ·· فقد دبجت المقـالات والدراسات ·· وعقدت الندوات ·· وجرى كتابة اللافتات المكبرة اللافتـة للابصار ·· وتحول « الطريق الثالث » ليس فقط الى قاعدة وثوب مقترحة للألفيـة الثالثة بل الى نشـيد حماسى ·· تردده جمعيـات أو تجمعـات ·· لا يخلو طموحها من وثبـة سياسـية ، نحو بناء أحزاب مصرية جديدة ·

كيف يمكن تفســير ذلك ؟

هل يمكن تفسيره على الجانب الفـكرى بأن حاجة مصرالتاريخية سياسيا واجتماعيا وثقافيا ؟ ·· تتقارب أكثر مع محددات هذا الطريق الثالث ، وان أولئك الذين يستبصرون بعمق .. هذه الحاجات فى تجلياتها المادية والفكرية ·· انما يعمدون الى المبالغـة فى عكس أفـكار وقيم

هذا الطريق الثالث بغية احداث تأثير معنوى واسع بأن « أصولية السوق » التى أطاحت بغيرها من الأصوليات ، لم يعد ممكنا أن تشكل مقدمة شرفة الأمل ·· اطلالا نحو المستقبل المصرى ·· ولذلك فان الطريق الثالث لديهم يقدم فرصة صحيحة كما يقول الباحث البارز الأستاذ السيد يسين لـ « فتح الأسواق وتطبيق الحرية الاقتصادية .. والحفاظ على الاستقرار السياسى فى الوقت نفسه ») ·

ولكن السؤال الأهم ·· هل يمكن أن تعيش هذه المتناقضات متصالحة لمدى طويل فى وعاء مشترك واحد ؟

هل يمكن تفسيره على الجانب الوطنى ·· بحساسية مصر الخاصة تجاه المتغيرات من حولها مع كافة الأشكال الفكرية والابداعية البازغة ·· سواء قدر لبذورها أن تنمو فى التربة المصرية ·· أو ماتت قبل أن تنبت ؟

لقد حدث ذلك مع كل جديد فى كافة أشكال الابداع الفنى ، حدث ذلك فى الشعر ·· من أرض اليوت الخراب البريطانية الى عيون الزا الفرنسية ·· وحدث فى المسرح من العبث الى اللامعقول ·· كما حدث فكريا من الدروابنية الى الوجودية ·

ولقد ظلت الأمواج الجديدة القادمة من الغرب تأتى ·· ثم تخلق شطا مصريا صغيراً ترسو عليه .. قد يتسع ليصبح مرفأ .. ثم مدينة ·· وقد تجرفه عاديات الزمن ·· فيغرق فى الماء ·

ولكن الثابت كذلك أنه خلال مراحل تعبير الحساسية المصرية الخاصة عن نفسها قد اختلط ما هو طبيعى بما هو مصطنع .. ما هو مفيد بما هو ضار ·· فكثيرا ما كانت موائدنا ملعبا لثمار غربية معطوبة — كما يحدث الآن مع كناسة أفكار ما بعد الحداثة ·

هل يمكن تفسيره على الجانب الذاتى بأن عمد « الليبرالية الجديدة » الجدد فى مصر ·· وقد قضوا انصاف أعمارهم ·· أشغالا شاقة فى مزرعة الماركسية — باتوا يستطيبون وقع كلمة « الطريق الثالث » ويجدون معها صدى نفسيا مريحا ·· لأنه لا ينشر صورهم من زاوية تأييدهم الحار للراسمالية المتوحشة ·· وانما من زاوية الحرب عليها — بترويضها — وانسنتها وتحليتها بأبعاد اجتماعية تجعلها

مشروعاً حصبياً للاثمار والتكاثر حتى لو كانت هذه الزاوية البديلة ٠٠ لا تنطق بغير خداع نظر ؟

أيا كان التفسير ٠٠ فهل نحن كما يقول عدد من الكتاب المصريين ، فى مقدمتهم الاستاذ يسين بصدد بزوغ أيديولوجية سياسية جديدة اسمها الطريق الثالث ٠٠ لها سماتها النوعية الخاصة ٠٠ تشكل مصالحة بين الاشتراكية التى أدانها التاريخ ٠٠ والرأسمالية التى امتزت بعنف من جراء الأزمات الداهمة .. وأن ذلك يشكل دليلا على سقوط الثنائيات الزائفة فى المرحلة الأخيرة من حضارة عالمية جديدة شعارها : وحدة الجنس البشرى ٠٠ وبالتـالى تشـكيل ثقافة كونيـة مشتركة جديدة ٠

ان الأطروحة نفسها على لسان الأستاذ السيد يسين تضيف بالحرف الواحد اضافة نوعيـة على النحو التالى : « غير أنه لا يمكن القول أن كل هذه المحاولات نظرية كانت أو عملية لا ترقى الى مستوى الحدث السياسى البارز الذى وقع فى نيويورك مؤخراً وهو ندوة الطريق الثالث التى ضمت – أساساً – الرئيس كلينتون ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير ٠٠ واعتذر عن عدم المشاركة فيها رئيس الوزراء الفرنسى جوسبان » ثم يعلق الأستاذ يسين مبديا دهشته من « راديكاليـة » الأفـكار التى طرحها « كلينتون » ٠٠ وخصوصا فى « اقترابه – أى كلينتون – من بعـض الأفكار الاشتراكية » . كما أن تونى بلير .. سلك سلوكاً أثار دهشته .. فقد لاحظ أنه قبل على الجانب الآخر : « بعض التوجهات الرأسماليـة » والخلاصة اننا لسـنا فقط بصدد ايديولوجيـة سياسية جديدة وانما ذات تأثير عاصـف على مراكـز اتخاذ القـرار فى أمريكا وبريطانيـا والعديد من الدول الأوروبية ٠٠ كفرنسا وألمانيا وايطاليا وبعض الدول الآسيوية ٠٠ وكذلك الأمريكية اللاتينية ٠

كيف يمكن اذن مناقشة هذه الأفكار ؟ ٠٠ وما هى الحدود بين اليوتوبيـا والأيديولوجية فيها ؟ وما علاقتها بالحروب الفـكرية فى مرحلة التحول المأزومة الجديدة ٠٠ وبالواقع المـادى فى الوقت نفسه ؟

أولا : ان التبشير بسقوط الثنائيات ٠٠ وهى ينحدر الينـا ترجمات مقنعـة واضحة ٠٠ كاد يصبح حمى فكرية ٠٠ فى بواطن الكتـابات الأمريكية على وجه الخصوص ٠٠ وكأن ثنائية أمريـكا – الاتحـاد السوفيتى ٠٠ كانت هى الثنائية الكونيـة الحاكمة وبانهيارها ينبغى أن تنهار معها منظومة كاملة من الثنائيات البشرية ٠٠ بدءا من ثنائيـة

الراسمالية الاشتراكية ، التى تنتهى لصالح الأولى بعد تحسينها باسم الطريق الثالث ٠٠ وانتهاء بثنائية الرجل ـ المرأة ، التى تنتهى بدورها تحت مسمى « الجنس الثالث » مروراً بثنائيات على غرار الوطنية ـ الكوكبية ٠٠ لتتم ازالة الأولى لصالح الثانية ٠٠ والثقافة القومية ـ الثقافة الكونية ـ لتتم تصفية الأولى لصالح الثانيـة ٠٠ وهكذا ٠٠

ولست أعرف تفسيرا لهذه الحمى ٠٠ الا ضغط المعيار النمطى على العقلية الأمريكية ٠٠ ولا كيف ستتم ازالة ثنائيات أخرى بعضها طبيعى مثل الليل والنهار والحب والكراهيـة والاعلى والأسفل ٠ وغيرها من الأقطاب التى تتحرك حول جاذبيتها الدراما الانسانية بالمعنى التاريخى العام ؟ وكيف سيتم اقناعنا بطريق ثالث بين الظلم والعـدل والحب والكراهية ـ والرجل والمرأة ٠٠ والوطنية والكوكبية ؟!

ثانيـا : أن الحديث المطلق عن أيديولوجية سياسية جديدة اسمها الطريق الثالث ـ ينطوى على مبالغـة ، فلم يتوقف الجهد والسعى الانسانى على المستوى العملى الخاص ٠٠ أو الفكرى الخالص ٠٠ بحثا عن هذا « الطريق الثالث » حدث ذلك فى أوج الظاهرة الاستعمارية كما حدث مع تصدعها وانهيارها ٠٠ وحدث فى عصر الامبريالية والاستقطاب الدولى ٠٠ كما أن محاولته لم تتوقف ليس فى اوروبا وانما فى العـالم الثالث ٠

وهل كانت صياغة « ماوتسى تونج » فى الصين فى أعقاب الحرب العالمية ببعيدة عن محاولة تعبيد طريق صينى ثالث ؟ وهل كانت اجتهادات نهرو فى الهند بعد انهيار الامبراطورية البريطانيـة بعيدة عن بنـاء طريق هندى ثالث ؟ ٠٠ وهل كانت فى السـياق نفسـه تجربة جمال عبد الناصر فى أعقاب ثورة مصر الوطنية ٠٠ ببعيدة عن تأسيس طريق مصرى ثالث ؟ لقد ظلت جميعها وغيرها محاولات للبحث عن طريق ثالث يعتمد على الثقافة القوميـة والخصوصية الذاتية ٠٠ أما الارتكاز على أن أطروحة الطرَيق الثالث جديدة لأن الماركسـية قد قامت مؤخرا بنقد عاصف لذاتها ٠٠ وان الراسمالية بدورها وجدت نفسها فى حالة نقد ذاتى واضح ـ وبالتالى فان شروط التقـارب غدت هينـة وسـهلة ٠٠٠ فمردود عليه بأن نقد الماركيسية أوروبيـا قد ولد معها واستمر فى صعودها كما اتصل بعـد انهيار الاتحاد السوفيتى ٠٠ ولدينـا مكتبات غربية كاملة فى نقد الماركسية وتطبيقاتها ٠٠ من بينهم مفكرون ماركسيون بدءا من جرامشى ٠٠ وانتهاء بجارودى ٠

والأمر نفسه ينطبق على الرأسمالية ‥ فالنقد الذاتى داخل المعسكرين الفكريين ، لم يبدأ لأنه ببساطة لم يتوقف على امتداد جل القرن العشرين ٠

ثالثاً : ان هذا الحديث عن أيديولوجية سياسية جديدة تعم العالم أو أجزاء كبيرة فيه ‥ اضافة الى أوروبا ‥ مثل بلاد فى آسيا فى وفى أمريكا اللاتينية ، لا يتسم بالدقة ‥ ليس لأن الجميع قد توقفوا عن مقاومة « عولمة السوق » وانما لأن طبيعة المقاومة التى تبديها دول آسيا وأمريكا اللاتينية تبدو مختلفة الى حد التناقض مع معالم هذا « الطريق الثالث » الذى سنتأكد بعد قليل أنه طبخة فكرية أمريكية ـ بريطانية خالصة ٠

فى أمريكا اللاتينية ـ مثلا ـ قررت فنزويلا (وهى البلد الثالى الذى تعتمد عليه أمريكا نفطيا بعد المكسيك) ان تقاوم وتبدى ذلك فى صعود « شافية » الى موقع الرئاسة ‥ والذى تصفه أفلام أمريكية بالتوحش لأنه وطنى اشتراكى سافر يعتبر أن معلميه التاريخيين ثلاثة :

سيمون بوليفار زعيم حركة الاستقلال الوطنى ومؤسس الهوية الخاصة ‥ وربنسون مستشاره وزامورا منظر الثورة الاجتماعية فى أمريكا اللاتينية ‥ الا لو كان ـ مقياس « الطريق الثالث » فى أمريكا اللاتينية هو البرازيل التى تتداعى وترسل موجات انهيارها ، اشعاعا ضارا فى عموم أوروبا وآسيا ٠

ثم ما هو المقصود بالطريق الثالث فى آسيا ‥ أهو ما بعد نتائج سقوط سوهارتو فى أندونيسيا ‥ أم تلك الطريقة التى تبدها سنغافورة فى المقاومة ‥ وهى طريقة اذا كانت تعبر عن « الطريق الثالث » فلماذا يدفع الرئيس كلينتون (أهم دعاته ‥ خاصة فى مرحلة اقترابه من نطق المفاهيم الاشتراكية) لكى يمارس ضدها ‥ هذا القدر الهائل من التربص والاكراه ؟ ‥ ولماذا يريد أحد قادة « الطريق الثالث » غربا تصفية نظام سياسى كامل يجد فى صياغة طريق ثالث شرقاً ؟!

رابعا : حتى حدود ذلك الحديث عن أن « الطريق الثالث » هو طريق أوروبى ‥ تفتحه ارادة أوروبية موحدة من « بلير » الى « جوسبان » وانتهاء بـ « شرودر » لا ترتكز على قاعدة صحيحة ‥ فلا علاقة بين ما يطرحه تونى بلير كخطاب لحزب العمل البريطانى ٠

وما يطرحه كلينتون كخطاب للحزب الديمقراطى · وبين توجه الأحزاب الاشتراكية الأوروبية فلا علاقة لأوروبا كلها بهذا « الطريق الثالث » الا من خلال التوجه البريطانى الذى ينتمى الى الدولية الاشتراكية ·· لأن فرنسا لم تبد أى اهتمام بالموضوع ·· ولأن ألمانيا لم تظهر بدورها ·· رد فعل مختلفا ·

وعندما انعقدت قمة الأحزاب الاشتراكية الأوروبية قبل بضعة أشهر فى مدينة « مالمو » السويدية ·· بذل تونى بلير جهودا مكثفة لاقناع القمة باعتماد بعض ما يراه أساسا للطريق الثالث · مركزا على مبدأ أساسى هو نقل مسئولية الحكومة الاجتماعية الى مؤسسات المجتمع المدنى ·· وقد مثل « ليونيل جوسبان » رئيس الحكومة الفرنسية حائط الصد الأساسى لهذا الخطاب ·· مؤكدا أن الدولة ينبغى أن تظل محتفظة بمسئوليتها الاجتماعية ·· وانها تتخلى عن نفسها اذا هى اقنعت نفسها بمثل هذا التصور ·· ولقد كان موقف جوسبان يعبر عن أحزاب اليسار الأوروبى عموما والتى تميز فكرها بحيوية دافقة من خلال منهج نقدى · يفرض تجديدا فى الأطر ووسائل الاقتراب من الهدف الأساسى وهو « تحقيق العدالة الاجتماعية » ولهذا من الصعب التسليم بأن هناك وحدة أوروبية بخصوص الطريق الثالث ··· أو وحدة بين الأحزاب الاشتراكية الأوروبية .. وبين حزب العمل البريطانى ..

بل ان مفكرى « الطريق الثالث » البريطانيين ينظرون الى العالم الثالث بنظرة استعلائية واضحة ·· فيعتبرونه غير مؤهل للدخول فى الطريق الثالث لأنه يخلو من المجتمع المدنى ويعجز عن ولادته · بل أن منظراً بارزاً للطريق الثالث مثل « ريتشار فايزمير » يرى أن دول العالم الثالث ـ عاجزة عن الاستفادة منه ··· لأنها « دول فقيرة اقتصادياً وفكرياً » وفى بريطانيا نفسها مفكرون اجتماعيون بارزون يعرفون الطريق الثالث البريطانى تعريفا صحيحا على غرار تلك الرسالة المفتوحة التى وجهها « رالف دهندروف » الى تونى بلير ·· مؤكدا أن الطريق الثالث هو « دفاع عن الريجانية والتاتشرية (أو النيوليبرالية) وأنه عاجز عن تعريف نفسه ·· لأنه انتهازية ذات وجه انسانى » !

خامسا : كيف يمكن تعريف ايديولوجية سياسية تعريفا سلبيا على طريقة وصف القرد ·· بأنه ليس غزالا ·· وليس أسداً وانه لا يحمل منقارا ولا خرطوما ·· فهل يمكن تعريف أيديولوجية سياسية بأنها ليست اشتراكية وليست رأسمالية ·· وان منهجها هو تطبيق بغير

البراجماتى .. فما هو توصيفه .. هل نفعية الحزب أم الدولة .. أم شبكة التحالفات السياسية الاجتماعية المسيطرة ؟ وما هى استراتيجية .. بقاء الرأسمالية أم البقاء فى السلطة ؟

فالطريق الثالث على هذا النحو .. وكما يقدمه أصحابه هو تطبيق بغير نظرية .. ونظرية طوباوية بغير تطبيق ولست أعرف هل يمكن اعتبار ما يقوله بعض الباحثين من تفضيل ألا يدخل فى اهتمام « الطريق الثالث » الهوية القومية ولا السياسة الخارجية ـ عاملا مساعدا على بلورة خصوصية . أى أننا بصدد أيديولوجية فوق قومية لا علاقة لتوجهها الداخلى .. بتوجهها الخارجى .. أى أنها تعانى ازدواجية فى قاعدة ادراكها الأساسية للعالم .. اذ كيف يمكن أن يكون توجه الطريق الثالث داخليا لتعزيز قيم العدل والاستقرار والمؤاخاه بين الرأسمالية والاشتراكية وأن يكون توجهه الخارجى نقيض ذلك كله .. انها تحطيم لقاعدة العدل وضرب للاستقرار .. وتعميم لبقرة السوق المقدسة باستخدام القوة .. كيف يمكن لأيديولوجية سياسية أن تقوم على ازدواجية كاملة بين منظومة أفكارها الداخلية ومنظومة أفكارها الخارجية ؛ وهل يمثل ذلك بنية فكرية صحيحة أو يمثل قناعا لمنح هذه الانتهازية السياسية وجها انسانيا ؟ !

أما الحديث عن اننا بصدد وحدة فى الثقافة الكونية ... فاننا فى الحقيقة بصدد وحدة فى ثقافة رأس المال الكونى .. وحدة فى ثقافة السوق المعولم .. أو على وجه أدق وحدة فى ثقافة الأقلية المحتكرة على المستوى الدولى .

سابعا : يمكن التوقف أمام المعطيات والدلالات التالية فيما يتعلق بتحليل التربة الاقتصادية والاجتماعية التى أنجبت هذا الطريق الثالث فى طبعته البريطانية الأمريكية المحددة والوحيدة) :

١ ـ فى آخر اجتماع سنوى مشترك لصندوق النقد والبنك الدوليين قال « ميشيل كامديسو » مدير عام الصندوق : « اننا لا نتحدث

عن دول فى أزمة وانما عن نظام فى أزمة اذ أنه غير مهيأ بشكل كاف للتعامل مع فرص ومخاطر العولمة » ٠

وكان المقصود طبعـا نظام اقتصاد السوق المعولم ، وانعـكاس تفاعلات الأزمة المالية العالمية التى تزداد اتساعاً وتأثيراً فى دائرة واسعة من العـالم ٠

لقد بدأت الأزمة فى تايلاند ثم انتشرت العدوى الى دول الجوار ماليزيا والفلبين واندونسيا واليابان وكوريا الجنوبية ، ثم قفـزت الى روسيا ، ثم الى أعماق أبعد كالبرازيل ، وخلقت موجات تأثر متفاوتـة غمرت أغلب الاقتصاديات الدولية ، ففقدت الدول الآسيوية السابقة خلال عام واحد من ٥٪ الى ١٥٪ من انتاجها القومى ، وقد انعكست مظاهـر الأزمة رغم تنوعها ، وتعددها ، وشمولها ، على الجانب الصينى مباشرة من الاقتصاد ، فانخفضت معدلات نمو الناتج المحلى الاجمالى ، وطالت التوقعات المتشائمة معدلات النمو المنتظرة حول العالم أجمع .

وحتى بالنسبة لميزانية الولايات المتحدة الامريكية (١٩٩٩) التى وصل حجمها الى ٥٠٠ مليار دولار ، فقد وصل العجز التجارى بها الى رقم قياسى بارتفاع ١٦٫٨ مليار دولار ، ليصعد اجمالى هذا العجز الى رقم ١٦٥ مليار دولار وهو الأعلى فى تاريخ الاقتصاد الأمريكى ، وعلى حد تعبير « الايكونمست » فان مستوى الرفاهية الذى بلغ اقصى احـلام المستثمرين الأمريكيين لن يستمر طويلا وقد يتعرض لانتكاسة حادة لأن السبب الرئيسى لهذه الرفاهية هو القفزات الحادة فى الأسواق الماليـة اضافة الى سهولة الاقتراض خلال السنوات الأربع الأخـيرة التى شجعت المستثمرين والمستهلكين معا على الانفاق بلا حساب ، وهذا السـلوك يجعل الاقتصاد الامريكى عرضة لتراجع حاد فى معدلات النمو ، بل وقـد يصل الى حد الركود ، فهناك من يرى أن الانتعاش الراهن قد يكـون صحوة الانهيار ، مبرهناً على ذلك بأن مقياس « داوجونز » على مشارف الأزمة الاقتصادية الكبرى فى بداية الثلاثينات كان آخذاً فى الارتفاع بينما كان الركود يدب فى قلب الاقتصاد ذاته .

٢ ــ لقد انكشفت بشكل كامل الآثار السلبية لنخب التكيف الهيكلى المفتوح ، أو لمجموعة الأفكار الاقتصادية الليبرالية الجديدة التى نسبت الى يوتوبيا ريجان أو تاتشر ، بينما هى فى الحقيقة تمثل منتوجاً مباشراً لمدرسة شيكاغو ومؤسسها « ميلتون فردمان » والتى جاءت انقلابا على

افكار كنز (التى سادت بعد الحرب العالمية الثانية) بالاعتماد الكامل على آلية السوق ، والمنافسة والمبادرة الفردية ، وتحجيم التدخل الحكومى فى الحياة الاقتصادية واطلاق الخصخصة وهو ما ادى الى الحاق ضربات موجعة بالطبقة المتوسطة على جانب والى تمزيق الدولة على الجانب الآخر ، ولذلك لم يكن مدهشاً ان يبشر « بول كيندى » باختفاء الدولة تماماً فعلى حد تعبيره : « سوق تصيب الدهشة عموم الناس فى العالم اذا ما اكدنا لهم ان الدولة القومية فى طريقها الى الاختفاء والى أن تصبح اثراً من آثار الماضى » .

يضاف الى ذلك مظاهر التصدع الشامل فى دولة الرفاهية الموعودة التى بشرت بها الليبرالية الجديدة على أساس قدرة الرأسمالية على خلق اشكال مستحدثة من التوازنات الاجتماعية على نحو تلقائى ، فقد هبط التقييم تماماً ، وتشكلت حقيقة واضحة غير قابلة للانكار غربياً ولو بدرجات متفاوتة ، وهى ان ترك قوى السوق حرة فى المطلق دون قيود سيؤدى الى تعميم الأزمات ، وتهديد الرأسمالية كنظام فى أساسه وجوهره .

٣ ـــ ان التأثيرات المتبادلة أخذت منحنى مباشراً بسبب هذا الاختلال الواضح فى الاقتصاد العالمى بين الجانب العينى والجانب النقدى أو المالى ، فقد ترتب على هذا الخلل تضخم هائل فى حجم الأصول المالية دولياً بالقياس الى قيمة السلع والخدمات المنتجة فى العالم .

لقد نمت التجارة الدولية ـــ أولا ـــ بمعدلات أكبر من نمو الانتاج العالمى ثم نمت التدفقات المالية عبر الحدود ـــ ثانياً ـــ بمعدلات أسرع كثيراً من التدفقات التجارية ، وتكونت ظاهرة الرأسمال المالى العابر للحدود ، والذى يريد أن يحصل لنفسه على أعلى فائدة ، دون انتاج ، باحثاً عن ربحية كثيفة وتراكم انفجارى مع تقليص حاد فى الانتاج عموماً والصناعة على وجه الخصوص . انه رأس مال كوكبى يصوغ استغلالا تجريدياً بغير لغة ولا منظومة قيمة ، وكاننا بصدد ظاهرة عكسية لاستقلال الاقتصادات الوطنية هى استقلال رأس المال العالمى ، الأمر الذى عمم ظاهرة المضاربات ، وضاعف من التقلبات ، وألغى الحدود الوطنية .

٤ ـــ أما تأثير هذه « الرأسمالية النفاثة » فى المجتمع المدنى والليبرالية السياسية عموماً ، فقد أصابتها بتصدعات سياسية اكثر وضوحاً هناك ، ـــ مثلا ـــ دراسة أستاذ الاقتصاد الامريكى « فردريك ستروبل » وقد ضمنها كتابين ، أحدهما عن تدهور أوضاع الطبقة

... فى بريطانيا وأمريكا بالغة الوضوح ، حيث لحقت به اضرار واسعة وبعيدة الأثر .

وعلى سبيل المثال فان نسبة المشاركة السياسية فى النقابات البريطانية قد انخفضت من ٥٣٪ عام ١٩٧٨ الى ٨ر١٨٪ عام ١٩٩٢ ، اما فى أمريكا نفسها والتى انخفض بها معدل التوظيف الحكومى من ٤٠٪ الى ٧ر١٪ بين أعوام ١٩٩٠ و ١٩٩٥ ، فيكفى أن الرئيس كلينتون قد دخل البيت الأبيض معتمداً على ٣٠٪ من أصوات الناخبين و ٥٠٪ ممن لهم حق التصويت وهو ما يعكس الأثر السلبى الذى لحق بمكونات المجتمع المدنى وبالمشاركة السياسية .

وحتى لا تبدو النتائج على الصعيدين السياسى والاجتماعى غير متكاملة فيكفى القول ان تجربة اعادة الهيكلة بريطانياً على امتداد ثمانية عشر عاما قد أدت الى ان نسبة البريطانيين الذين يعيشون تحت خط الفقر تساوى ٢٥٪ من اجمالى السكان (أى ١٤ مليونا) بينما كانت النسبة قبل هذه السنوات ٩٪ (أى ٥ ملايين) بينما زاد عدد الأطفال الذين يعيشون فى بؤس من ٤ر١ مليون طفل الى ١ر٤ مليون فى الوقت الذى انخفضت فيه دخول الشرائح الأكثر فقراً خلال الحقبة الآخيرة بنسبة ١٧٪ زادت فيه دخول الشرائح الاجتماعية العليا بنسبة ٦٢٪ خلال نفس الحقبة ، اضافة الى ما أصاب التعليم والصحة من تدهور ، ومن المهم ملاحظة أنه فى أوج الانتخابات البريطانية الأخيرة وللمرة الأولى فى التاريخ البريطانى وفى مجتمع فصل — منذ قرون وبالمبضع — نشاطه السياسى عن عقيدته الدينية تقدم اتحاد الكنائس البريطانية فى لحظات الاختيار الحاسمة ببيان سياسى ذى توجه اجتماعى خالص ، هاجم الأحزاب السياسية واتهمها بالتنكر لمصالح الطبقة العاملة ، وبتجاهل حقوق العمال ، مطالباً بوضع حد أدنى للأجور . وهكذا وبغض النظر حتى عن النتائج الاقتصادية المباشرة فقد انتهى نمط التكيف الهيكلى ، الى تقويض أسس الليبرالية نفسها ، أضعافاً للمجتمع المدنى باسم تقويته — وتاكلا لمكانة الدولة باسم تحرير المجتمع ، ثم استحضاراً اجبارياً لدور المؤسسة الدينية باسم العلمانية .

٥ — ان الحل النهائى الذى قدمه « تونى بلير » خلال آخر قمة للاشتراكية الدولية والذى يتضمن وصفه « الطريق الثالث » هو كما يلى : (اذا كانت الدولة قد أصبحت قليلة العوائد حالياً بسبب ضمور

ملكيتها بعد الخصخصة أو بسبب خفض الضرائب لتحفيز الاستثمار أملا فى تجاوز الركود أو خفض الرسوم الجمركية فى سياق حرية التجارة ، فانها بالتالى أصبحت عاجزة عن توفير النفقات الاجتماعية الأساسية) ، واذا كان عجز الدولة سيتبدى أكثر خلال الفترة القادمة لأنها حتى لو اعتمدت على نوع من الكنزية الاقتصادية لاستعادة قدر من التوازن بين ما هو اجتماعى ، وما هو اقتصادى فان التطورات الطبيعية فى مجالات العمل ستؤدى الى مزيد من البطالة ومزيد من الضغوط الاجتماعية واضافة الى بروز قيدين أساسيين لا يمكن تجاوزهما وهما « اصولية السوق » والغاء الحدود الوطنية أمام رأس المال ، ولذلك فان الحل الوحيد فى منظور هذا الطريق الثالث — كما قدمه بلير — هو ان تنقل الدولة مسئولياتها الاجتماعية الى مؤسسات المجتمع المدنى والجمعيات الخيرية .

ومع ملاحظة أن القيدين الأخيرين يطوقان تجربة الأحزاب الإشتراكية الأوروبية تبدو « الرأسمالية النفاثة » فى الغرب وقد أغلقت الطريق على نفسها قبل العالم ، ولا يبقى سوى ازالة الثنائيات على نحو فريد ، لنجد ليبراليين بغير ليبرالية ، واشتراكيين بغير اشتراكية ، وطريقاً ثالثاً بغير طريق . أو قل انه لا يختلف عن طريق الأب « ميناروف » فى رواية كزانتزاكس الشهيرة !

البـــاب الثـــانى

فى الحالة الاسرائيلية الجديدة

١ ـ تحولات الاقليم من زاوية أوسع ..

كأننى اهبط البحر للمرة الأولى وأنا أهم بالكتابة بعد غياب اجبارى عنها امتد سقفه الأسود . ما يقرب من نصف عام .. تبدو الأمواج لى متلاطمة وعالية وأبدو لنفسى ، طفلا صغيراً ، يثب على حافة فضاء بلا ضفاف بينما تسرى فى عروقه رجفة التجربة الأولى .

من أين أبدأ ؟ ، وماذا أريد أن أقول .. ؟

أولا :

من موقع تأمل دافىء لمعارك فرضت نفسها على الوطن خلال الشهور المنصرمة ، تبدو وكأنها من نوعية الخلاف الذى شرخ « بيزنطا » القديمة . حول جنس الملائكة ، هل هم من الذكور ، أم من الاناث . يمكن لى تسجيل الملاحظات التالية :

١ ــ ان الفكر الاستراتيجى . فى صيغه الوطنية والقومية ، لا يبدو متراجع النبض فحسب ، ولكنه يعانى من مظاهر شيخوخة واضحة ، تبدأ ككل شيخوخة . بضمور فى خلايا العقل ، وتآكل فى بواطن الذاكرة ، وتنتهى الى تيبس فى المفاصل والاطراف ، تعيق الحركة الطليقة عن التحليق فى الآفاق .

٢ ــ ان منهج الحالة السلفية العامة فى المجتمع . قد فرض نفسه بشدة على أغلب المدارس والمؤسسات الفكرية والسياسية ، فتحولت . اما الى هوس بالمطلق والمجرد ، واما الى استبدال الأصول بالفروع والكليات بالجزئيات .

وهكذا أخذنا نغرق جميعا فى بركة آسنة من القضايا الصغيرة ، والجزئية . التى تشبه تلخيص علوم الفقه الاسلامى وأحكامه ، فى باب واحد ، هو « باب الاستنجاء » !

٣ — مع ضمور الفكر الاستراتيجى ، وشيوع منهج سلفى عام ، يتحول الحوار الوطنى ، الى اشكال مبتكرة من الاحتراب ، وتنفتح أوردة التقسيم السياسى والفكرى ، بدماء فاسدة جديدة ، فبعد أن كان البعض يتحدث فى مصر عن مسلمين وأقباط . أصبح يتحدث عن علمانيين وأصوليين ، وعن تنويريين وظلاميين وعن سلفيين وعصريين ، بل وعن وزير للثقافة ، وشيخ للازهر .. وهكذا فان النيران الصغيرة التى قد تشب هنا وهناك ، لا تتوجه اليها خراطيم المياه الجاهزة لاطفائها . وانما توجه اليها خراطيم الوقود ، لتصب فيها مزيدا من اللهب .

٤ — فى ظل دخان هذا الاحتراب السياسى ، تتلبد الصورة العامة بمزيد من الملوثات الطبيعية ، وتصبح الرؤية ، نتفا ممزقة ، تزيد بالتالى من درجة تمركز كل مدرسة سياسية أو فكرية على نفسها . الأمر الذى يصدر بدوره الى خلايا المجتمع ، مزيدا من الاحتقان . وعلى خلفية واضحة من سلسلة أزمات اقتصادية واجتماعية ، يشد قوسها ، عجز « حكومى واضح » يتحول المناخ العام الى بؤر ساخنة ، قابلة للصدام أو الاشتعال .

٥ — دون أن اتعجل تقديم برهان يقينى ، أستطيع الجزم مقدما ، بأنه ثمة قوة دافعة غريبة ، تدفع ركام ما سبق كله ، وتفاعلاته ، الى حافة اضطراب كبير ، مستهدفة بذلك ، ثلاثة امور متداخلة :

● أولها تعمية مصر ، عما يدور حولها ، وما يستهدفها بالدرجة الأولى . لأن ما يحدث هو تغيير استراتيجى كامل فى أوضاع الاقليم . بوتائر انقلاب هادىء ، وهو تغيير لا يطول الشرق الأوسط فقط ، ولكنه يطول تخومه الأسيوية البعيدة ، وظلاله الأفريقية الممتدة .

● وثانيها : تعطيل مصر عن اداء رسالتها الحضارية التاريخية ، بتفجيرها من الداخل ، ووضعها على حافة انقلاب مدنى .

● وثالثها : ضرب مضمون الخصوصية الوطنية المصرية ، فى صيغه المتجددة ، وأصولها الثابتة ، بغية الاجهاز على هذه الرسالة الحضارية التاريخية ، التى هى جماع شخصية مصر ، وجوهر قوتها . وطاقة تاثيرها وفاعليتها .

ثانياً :

حتى لا يبدو الكلام السابق رجما بالغيب ، او احالة اخرى الى المطلق والمجرد ، فسوف أتصور اننا نقف امام صورة استراتيجية جديدة

لأوضاع المنطقة وتخومها ، ولكنها فارغة تماما الا من خطوط طـول وخطوط عرض ، تقسمها الى مربعات صغيرة ، ليكون علينا أن نفعل ما يفعله الأطفال أمام لوحة للعبة « البازل » ، فنثبت المربعات الصغيرة فى مكانها واحدا بعد الآخر ، ليكون بمقدورنا فى النهاية ، أن نرى صورة مركبة للأوضاع الاستراتيجية الجديدة التى يجرى بناؤها عـلى قـدم وساق :

١ ــ فى المربع الصغير الخاص بالانسحاب الاسرائيلى من جنوب لبنان ، فقد رأينا هرولة اسرائيل المهزومة ، وانتصار منطق المقاومـة اللبنانية الباسلة ، وامتلأت صدورنا بأريج التحرير والحرية ، لكننا لم نتفرس بالقدر الكاف ، فيما يحيط بذلك على الجانب الآخر ، وكيف سيتم توظيفه .

٢ ــ كان كافيا أن تجد ٤٠ أسرة فلسطينية (يتشكل قوامهـا من ٤٠٠ فرد) فى عاصفة هروب قوات لحد ، فرصة عبور الى الجانب الآخر من الحدود ، حيث أرض أجدادها ، حتى تتحول فى اسرائيل بعد ساعات قليلة . الى وجبة جاهزة للهجرة العكسية من فلسطـين الى المانيا ، التى أبدت استعداداً فورياً لدفع تكاليف مقدمة « الترانسفير » الفلسطينى الجديد وتوطينها ، بشرط واحد ان يتم توزيع الفلسطينيين المهجرين ، وتفتيتهم بين المدن الألمانية جميعها .

٣ ــ لقد تحدد بالفعل يوم ١٦ من هذا الشهر موعدا لبدء الهجرة الفلسطينية العكسية ، والمشكلة ليست فى أربعين أسرة . أو اربعمائة فرد ، سوف يذوبون فى تلافيف المانيا ، ولكن فى عدة مشروعات ، قـد اكتملت ملفاتها بالفعل ، وتوشك أن تدخل فى حيز التنفيذ ، تلتقى جميعها على هدف واحد ، هو الغاء حق العودة على نحو عملى . يكفى مـن بينها التوقف عند ملفين رئيسيين ، هما الملف الكندى الذى يفتح بـاب الهجرة لمائة الف شخص سنويا ، والملف العراقى الكردى (الـذى سأتوقف عنده فى التالى تفصيلا) وهو يتسع لـ ٤٠٠ الف فلسطينى .

٤ ــ عندما دارت الحوارات والمساجلات حول المستقبل اللبنانى ، كان الشغل الشاغل هو مستقبل حزب الله . وهل يمكنه تسخين الحدود اللبنانية الاسرائيلية ، ثم انعكاس وضع الحزب وجبهة الحدود ، على الصيغة الداخلية اللبنانية ذاتها .

وباستثناء ما التقطه مفكر استراتيجى نابه ، هو اللواء صلاح الدين سليم ، من أن مصدر الخطر القادم من منظور اسرائيل هـــو الكتلـــة الفلسطينية فى لبنان ، فان أحداً لم يتوقف أمام ذلك .

غير أنه عندما قدمت المخابرات العسكرية الاسرائيلية (أمان) عدة سيناريوهات للمخاطر المحتملة بعد الانسحاب من جنوب لبنان . كان السيناريو الاسوأ (وهو الأقل احتمالا) : « توتر حدود وحرب مع سوريا » . ومع أن هذا السيناريو قد أعطى احتمالية متدنية للغايـــة الا أن الجيش الاسرائيلى أجرى عليه فور الانسحاب مناورة عسكرية كبيرة بمشاركة عدة الوية ، لكن المهم أن السيناريو الذى أعطى احتمالية عالية من المؤسسة العسكرية الاسرائيلية . ومن مفكرين عســـكريين اسرائيليين بارزين هو « هدوء ثم تصعيد عبر الحدود من الفلسطينيين ، وليس من حزب الله » ولهذا فان ترتيب الآولوية فى اسرائيل ، ليس نزع سلاح حزب الله ، وانما ترحيل الكتلة الفلسطينية (٤٠٠ ألف) مـــن لبنان ، وهذا هو الملف الثانى فى الهجرة العكسية الفلسطينية والـــذى يحمل عنوان العراق ـــ المنطقة الكردية والذى ينفتح بدوره على متغيرات أخرى ، يجرى بناؤها فوق خريطة جديدة للمنطقة .

٥ ـــ ينبغى أن يكون واضحا ـــ أيضاً ـــ لأولئك الذين تصوروا ان الانسحاب الاسرائيلى من جنوب لبنان (وهو ثمرة مؤكدة للمقاومة اللبنانية الباسلة) هو اجراء مستقل من جانب اسرائيل عـــن مجـــمل ترتيبات اعادة بناء خريطة استراتيجية جديدة ، للمنطقة ، ان عليهم ان يراجعوا عدة نقاط ، تبدأ بتوظيف اسرائيل للانسحاب وفقا لقرار الأمم المتحدة (٤٢٥) بغية اضفاء صفة المشروعية الدولية الكاملة عليها ، وقد حصدت جانبا من هذا المسعى بعد ساعات من الانسحاب بالفعل ، بموافقة الأمم المتحدة على اعتبارها عضوا فى المجموعة الأوربية بالمنظمة الدولية ، بعد أن ظلت خارج سقف كل المجموعات الجغرافية بها طوال خمسين عاما .

وعليهم أن يراجعوا ـــ أيضاً ـــ انعكاس ذلـــك على الحـــالة الاسرائيلية الداخلية ، أو على الجمهور الاسرائيلى الذى أصبح على حد تعبير (زئيف شيف) ، لا يتطلب الحاحا الآن للانسحاب من الجولان وليس من طبريا ومياهها .

ثم أن عليهم أن يراجعوا ـــ أيضاً ـــ استعداد اسرائيل لاستخدام ما أطلق عليه ، (رون بن يشاى) : استراتيجية الردع الجارف ، اذا

ما حدثت مواجهة واسعة فى غزة والضفة الغربية . ثم ان اسرائيل بعد ذلك كله ، لم تغلق الجبهة الشمالية عسكريا بل عمدت خلال الانسحاب الى استخدام قطع بحريتها فى قصف عدة مواقع لبنانية مثل كونين ، ثم عمدت بعد ذلك الى استخدام سلاحها الجوى فى قصف قواعد بالقرب من الحدود قالت أنها تخص (أحمد جبريل) .

٦ ــ نزع كتلة الخطر الفلسطينى من لبنان لها الأولوية اذن ، ثم يأتى بعد ذلك ترك لبنان ، لتفاعلاته الداخلية المشروطة ، ثم ترك الدور السورى فى لبنان ، عاملا بين هذه التفاعلات . وفى الحقيقة فانه ليس رجما بالغيب ، القول ان لبنان يدفع الى استعادة دوره القديم قبل الحرب الأهلية ، منطقة ترانزيت اقتصاديا وفكريا ، والأهم أنبوبة اختبار كبيرة لتفاعلات أكثر تعقيداً . ستجرى بين محاور المنطقة وبعضها ، وبينها وبين الحافة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط .

٧ ــ ولذلك فان المطلوب من الدور المصرى فى انبوبة الاختبار اللبنانية أمرين :

الأول مشاركة رمزية مصرية فى اطار قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام . وهى اذا تمت سوف تضفى على الدور المصرى ــ خاصة اذا قررت اسرائيل لسبب أو آخر أن تتمدد عسكرياً ــ الى الشمال ــ صفة المراقب ، لا الفاعل ، وحارس الشريط الحدودى المنتدب ، لا حارس الاقليم الفعلى .

والثانى تداخل اقتصادى مع البنية الاقتصادية اللبنانية ، هدفه النهائى . تعميق التواجد المصرى فى اقتصاد الترانزيت والخدمات (وقد دشن ذلك مبكراً وزير الاقتصاد بطلب شركة لبنانية للاستفادة على حد تعبيره من شطارة اللبنانيين فى التسويق) والآهم من ذلك أن هذا التداخل الاقتصادى ، فى بنية اقتصادية خدمية خالصة ، سوف يكون من شأنه ، وضع الاقتصاد المصرى فى موضع يتأثر اكثر مما يؤثر ، ويعطى أكثر مما يأخذ .

ثالثا :

فى المربع الكبير الخاص بالقضية الفلسطينية ، والمحور السورى ، ورغم طبقات الغموض التى تلف المفاوضات السرية علــى جــانب ، والحوارات غير المباشرة على جانب آخر ، فان الصورة يمكن أن تكون ناطقة بالأبعاد التالية :

١ — ان التداعيات الذاتية للانسحاب الاسرائيلى من جنوب لبنان رغم ارتباطها بالخريطة الاستراتيجية الجديدة ، سوف تترك آثارها بعمق على الموقف الاسرائيلى ، من بقية المحاور . فاضافة الى أن الثمن السياسى للانسحاب الاسرائيلى الذى ستدفع جانبا من فاتورته الولايات المتحدة ، وأوربا ، يعنى تقليص الضغوط الخارجية على اسرائيل ، لتحقيق انسحاب ملموس آخر على جبهة أخرى ، فان القانون الداخلى الاسرائيلى ، سواء على مستوى منظومة القوة فى اسرائيل أو الدوائر المجتمعية المحيطة بها ، ينجب فى كل ممارسة مماثلة ، رد فعل عكسى . ان كل انكماش جغرافى اسرائيلى يترتب عليه تلقائياً ، تمدد نفسى ، لاعادة التوازن الى البنية الصهيونية ذاتها ، وهذا التمدد النفسى المضاد ، غالباً ما يعبر عن نفسه فى أشكال حادة ، سواء أكانت عسكرية الأداء ، أو سياسية الطابع .

٢ — قد يعنى هذا من بين ما يعنيه ، اننى قابل تماما لتصديق ما قاله وكيل الخارجية الاسرائيلية وبتعبيره : « ان الممر السورى قد أغلق الى الأبد » .

وسوف يبقى لسوريا اعترافا ، بدور محسوب فى لبنان ليشارك فحسب فى التهدئة الداخلية ، وليتوسع فى حدود مرسومة ومؤقتة لضبط التفاعلات . فى أنبوبة الاختبار اللبنانية . ثم لتنضغط سوريا بين قوسين كبيرين ، فى انتظار أن تنشق الأرض فيها عن بدائل سياسية ، تعيد دمجها فى الرصيف الاستراتيجى الكبير ، الذى أطلق عليه أحياناً : « الهلال الخصيب » ، ليمتد من اسرائيل ، موصولا بتركيا ، حتى اطار كردى جديد ستجرى له بدوره ، جراحة عميقة ، ليكون مصب هذا الجسر الذى يبدأ من اسرائيل .

٣ — وقد يعنى هذا من بين ما يعنيه اننى لا أجد داخلى ذرة تفاؤل ، بأن اسرائيل حتى لو أقدمت على انسحاب آخر ملموس من الضفة الغربية ، وحتى لو قبلت بصيغة متوازنة لاقتسام المياه ، وحتى لو سمحت بتفكيك بعض المستوطنات . وحتى لو وضعت بين يدى السلطة الفلسطينية ثلاثة قرى مؤجلة حول تخوم القدس ، وقبلت باعلان دولة فلسطينية فى نوفمبر القادم ، فانها لن تتجاوز فيما تقبل به خطين أحمرين بارزين هما : القدس وحق العودة للاجئين الفلسطينيين .

وليس سراً أن أصواتاً مصرية . بعضها ليس بعيداً عن مواقع التأثير (وان كانت بعيدة عن الخارجية المصرية) ترى باسم الواقعية والعقلانية الشكلية . ان تقبل السلطة الفلسطينية ، بما سيعرض عليها ، خاصة اغتنام الاعتراف بالدولة الفلسطينية المستقلة . ثم تبقى القدس ، وحق العودة رهينتين مؤجلتين ، فى ايدى الزمن الاسرائيلى القادم .

واذا قدر للسلطة الفلسطينية رغم أوضاعها المضغوطة والمأزومة ، ان تقبل بذلك ، فسوف تكون — على حد تعبير سعد زغلول — قد تلقت دعوة للانتحار ، فقبلتها .

٤ — وقد يعنى هذا من بين ما يعنيه ان مشروع السلام الاقليمى قد سقط استراتيجيا ، حتى وان بقى على قيد الحياة ، اكلينيكيا ، لبعض الوقت .

الغريب حقاً ، ان أول الاقلام التى بشرت بانهيار السلام ، واستبدلت سؤالها الناصع عن مرحلة ما بعد السلام ، بسؤال آخر عن مرحلة ما بعد انهيار السلام ، هى أول الاقلام التى أخذت تدفع الوطن كله ، الى رهان خاسر ، على معسكر السلام الاسرائيلى ، وعلى التطبيع مع اسرائيل باسم طمأنتها ، ولست أعرف سبباً مؤكداً لأن يستبدل هؤلاء الذين أجلسوا على أهم مواقع التأثير ، فى أكبر مراكز الدراسات الاستراتيجية بالاعلام المصرى ، جلود وجوههم التى تمزقت فى الرهان على ثقافة السلام ، وجمعية السلام ، وحوارات السلام ، بهذه السرعة الفائقة .

هل نحن بصدد مرحلة جديدة يحاول هؤلاء الفرسان المتهارون فوق جيادهم الخشبية الشائخة ، ان يستبدلوها بجياد شابة ، ليحفظوا لأنفسهم مواقعهم فى الصفوف الفكرية والسياسة الأولى ، أم أنهم وجدوا أنفسهم كجنود « لحد » وفى حالة انكشاف سياسى ، فدفعتهم ضغوطهم الى القفز تلقائيا نحو الجانب الآخر ؟!

أيا كان التفسير ، فان السؤال الذى تم طرحه من جانبين فكريين متباعدين عن مرحلة ما بعد انهيار السلام ، وجد من الجانبين اجابة يصعب وصفها بالاكتمال .

فليس صحيحاً فى المطلق ما قاله انصار تعميم نموذج المقاومة اللبنانية ، من أن منهج السلام قد سقط ، وليس صحيحاً — أيضاً —

فى النسبى مما قاله الجانب الآخر من أن مفاوضات السلام ، بذاتها ، هى التى أصابها الانهيار .

التوصيف الصحيح يقول ان مشروع السلام الاقليمى ، لا منهجه ولا أدواته التفاوضية ، هو الذى أصيب بالفشل ، وعندما نقـول ان مشروع السلام قد سقط استراتيجيا ، فهذا يعنى ان التفكير الصحيح ، فى المرحلة التالية ، ينبغى أن يستهدى بهذا التوصيف . لأن تعبير « المشروع » ، لا يعنى استبدال منهج بمنهـج ، أو أدوات تفاوضـة بسواها ، أو البحث عن وعاء تفاوضى جديد ، وعن مصادر قوة لشحنه ، وانما يعنى أن البديل لا يطول السياسة فقط ، وانما يطول دوائر كاملة ، اقتصادية ، وثقافية ، واجتماعية واعلامية .

رابعـاً :

فى المربع الكبير الخاص بالخليج العربى وتخومه الآسيوية ، فان الأمور تجرى ، وفق معادلات محسوبة :

١ ـ قبل بضعة شهور تم تسريب دراسـة للكليـة العسـكرية الامريكية ، ولمركز أبحاث الكونجرس تحت عنوان « البحث عن سـلام راسخ فى الخليج العربى » . وكانت الديباجة الأساسية للدراسة تدور حول « فتح حوار اقليمى لتخفيف حدة التوتر بين الولايـات المتحـدة والعراق وايران على جانب ، وتقليص الخلافات بينهـا اى الولايـات المتحدة ـ وحلفائها حول العقوبات » ، وذلك فى سبيل : « التعاون فى قضايا أمنية اقليمية » .

غير أن هذا الحوار الاقليمى المهدىء يستهدف من واقـع الدراسة ما يلى : « تشكيل مجموعة عمل للحد من التسلح فى الخليج ، تتولى مهمة تشكيل جهاز أمريكى على غرار لجنة الامم المتحدة المكلفـة بنزع أسلحة الدمار الشامل من العراق » . وتكون وظيفة هذا الجهاز هى : « التفتيش الدائم عن كل أسلحة الدمار الشامل فى كل دول الخليج » .

وهو ما يعنى اخضاع المنطقة كلها وفقرات هيكلها الاستراتيجى (باستثناء اسرائيل طبعاً التى وصفها مستشار الأمن القومى الأمريكى فى التوقيت ذاته بأنها دولة ديموقراطية متحضرة) ، لمبـدأ « حريـة التفتيش عن الاسلحة » .

٢ ـ بصدد تعبير « التعاون فى قضايا أمنية اقليمية » ، والذى خص بالذكر العراق وايران ، ترى ماذا يمكن أن تكون عليه طبيعة هذه

القضايا الأمنية الاقليمية ، التى يمكن صياغة تعاون فيها بين الولايات المتحدة والعراق على جانب ، والولايات المتحدة وايران على جانب آخر .. ؟

٣ — بالنسبة للعراق تحديدا ، ووفق هذا السياق الذى يمكن أن ينشأ لانهاء التوتر مع الولايات المتحدة ، وينتهى بالتالى الى القبول بالعراق كدولة طبيعية فى المنطقة ، ورفع الحصار عنها ، فان الشروط الأمريكية ، تتلازم مع قبول العراق تحديداً بمبدأ استقبال المنطقة الكردية فى الشمال وتوطينها لكتلة الخطر الفلسطينى فى لبنان .

وفيما أعلم فان أمريكا قامت بطرح هذا المشروع مبكراً على العراق ، وقبيل اندلاع حرب الخليج .

وفيما أحسب . فان أمريكا كانت تتصور أن قبولا عراقياً بمبدأ تهجير هذه الكتلة الفلسطينية الى العراق ، سوف يستند الى اغراء ، بما يمكن ان تضيفه هذه الكتلة الى الجمهور العراقى ، سواء بمنطق الموازين الديموجرافية الخالصة ، أو بمنطق التوازنات المذهبية الخاصة . وفيما — أحسب — أيضاً — فان هذا الاغراء لم يكن يحلق بعيداً عن أرض الواقع .

٤ — لكن تهجير هذه الكتلة الفلسطينية الى المنطقة الشمالية فى العراق ، يأخذ الآن منحى خاص ، اضافة الى ما يمثله من إغراءات سابقة ولاحقة . لأنه يرتبط أساساً بمشروع أكبر يتزامن معه دمج كتلة كبيرة من « التركمان » للاستيطان فى المنطقة ذاتها ، وتخفيف العبء عن تركيا ، وقد يتسع المشروع ذاته لأول ترانسفير يهودى عكسى من اسرائيل يتكون من ٧٠٫٠٠٠ يهودى كردى ، يستوطنون فلسطين الآن ، ويبقى الهدف الأخير فى ذلك هو انشاء اطار جديد فى شمال العراق ، وبين العراق وتركيا ، متعدد القوميات والديانات ، يحول دون قيام دولة كردية لا تقبل بها ايران ولا تركيا على جانب . ويعمد بشكل مبتكر الى « لبننة » اونطقة الكردية .

٥ — أما بالنسبة لصيغة تخفيف التوتر مع ايران ، فهى تعنى الاعتراف لايران ، بدور ما فى الخليج العربى ، وبدور ما لامتداداتها الجديدة فى قلب آسيا الوسطى .. (جنبا الى جنب مع الاعتراف بدور اقليمى روسى فى المنطقة الأخيرة) .

ان ثمة علاقة يجرى بناؤها بين مسرح العمليات الراهن فى الخليج وبين المسرح الاستراتيجى فى آسيا الوسطى ، أو فى منطقة بحر قزوين تحديداً من ازربيجان وتركستمان الى كازاخستان واوزباكستان . وفى الوقت الذى تداخلت فيه ايران مع هذا المسرح خاصة بعد مد انابيب منه اليها ، فان خط انابيب البترول المتجه شرقاً منها سوف يصل هذه المنطقة وبنزولها بالنموات الاقتصادية الكبيرة فى آسيا خاصة الصين واليابان وكوريا .

٦ — ان التأييد الأمريكى الكامل لطالبان لم يكن يرجع كما هو شائع الى تفريغ التأثير الايرانى هناك . أو الى التلويح لها بقوة اقليمية مندفعة ، فقد كان المطلوب من طالبان استضافة وحماية خط أنابيب البترول الشمالى . لكن « بوتين » هو الذى قدم بنفسه عرضا لأن تكون روسيا بديلا لأمريكا فى معالجة الأوضاع فى افغانستان ، الى جانب الاعتراف الأمريكى الذى حصل عليه ، بدور اقليمى فى آسيا الوسطى .

وهكذا فنحن بصدد التهيئة لدورين متقاطعين بين روسيا وايران فى آسيا الوسطى وافغانستان ، لخلق حالة توازن جديد هناك .

خامساً :

فى المربع الكبير الخاص بالامتدادات العربية الأفريقية ، فان علامات واضحة ، تقف كالشواهد على الطريق :

١ — بغض النظر عن هذا السعى الأمريكى المحموم للاستحواذ على مواقع أقدام فى عموم أفريقيا ، والذى ينطق به مشروع أمريكى كبير لتحزيم أفريقيا كلها . بكابل بحرى للاتصالات ، يتمدد حول محيطها الكامل فى مياه المحيط ، فان التصور القريب الذى يجرى بناؤه ينتهى الى فصل منطقة البحيرات العظمى عن العمق العربى ، بتجزئة كتلتها الاستراتيجية، المتداخلة الفقرات .

ولهذا يتحمل السودان ضغطاً مضاعفاً ، لان موقعه الفقرى ، يشكل منطقة الكسر الضعيف ، لوحدات هذه الكتلة ، وارهاصات ذلك واضحة فى تعميم صيغ الصراع الأفريقى فى المنطقة ، بدءاً من صدام اثيوبيا مع ارتريا ومروراً بالحرب ضد الكونغو ، انطلاقاً من رواندا واوغندا . وانتهاء بالدور العكسى الذى اقدمت عليه زيمبابوى وانجولا ، فتحطيم محور أفريقيا النيلى هو الهدف العاجل والمباشر .

٢ — فى الحرب الاثيوبية الارتيرية ، التى تغيرت فيها موازين القوى بغتة ، وبلغت الاندفاعة الاثيوبية مداها ، بمحاولة الوصول بالقوة الى البحر الأحمر ، عبر ميناء عصب الاستراتيجى ، يتبدى ايقاظ رأس جسر جديد على رأس المحور الافريقى النيلى . فالمعلومات المؤكدة تفيد أن طائرات الميج الأثيوبية التى ساهمت فى تهرئة الدفاعات الارتيرية ، قد جرى مؤخراً « تعمير » مواتيرها وتجديدها ، بأيد اسرائيلية .

ورغم التحفظ على روايات ارتيرية عن ضباط اسرائيليين يعملون داخل الخطوط الاثيوبية . وعن طيارين روس يساهمون فى أعمال القتال . فالمؤكد أن اثيوبيا قد تم شحنها عسكريا بأيد أجنبية ، والمؤكد — أيضاً — أنه قد سمح لها بأن تتجاوز العديد من الخطوط الحمراء ، فوق خريطة الصدام ، وان ذلك كله جرى ويجرى فى ظل تجاهل ، اذا لم يكن مباركة أمريكية واسرائيلية . ليس المهم فى ذلك أن نظام أفورقى قد حاول أن يلعب فى اطار دولة صغيرة محدودة القوة والفاعلية دوراً أكبر من طاقته ، ولكن المهم أن الولايات المتحدة فضلت انهاء دور أرتيريا الذى اختارته لها فى مرحلة سابقة ، وهو دور أقرب وظيفيا الى دور فصائل« لحد » العسكرية ، ولكن فوق رقعة جغرافية أكبر ، واختارت أن تعيد احياء رأس هذا المثلث ، فوق مياه النيل ، وعند منابعه .

٣ — أما تلك الصيغة المطاطة للولايات الأفريقية المتحدة ، فعندما تحدثت مؤخراً عنها احدى محطات التليفزيون العربية ، فانها لم تجد بديلا عن أن تنشر خريطة متكاملة لها ، لكن الخريطة لم تجد حلا بديلا ، سوى أن تمسح مصر بالكامل ، من فوق رقعتها .. !

سادساً :

يبقى ما يتعلق بالمربع الأخير فى اسرائيل ، وقد يكون من المهم الالتفات الى ما تمثله الوقائع التالية من دلالات :

١ — اذا كانت اسرائيل تتمدد فى القرن الأفريقى ، وفى محور افريقيا النيلية ، واذا كانت أصابعها تساهم فى احياء رأس المثلث الاثيوبى . فان « بوتين » نفسه ، والذى اقترح على كلينتون بناء منظومة دفاعية مشتركة مع الولايات المتحدة لمواجهة الاخطار الصاروخية التى قد تهدد أراضيها . وهو الذى يعد اسرائيل بزيارة قريبة للتوقيع على صفقة عسكرية يقوم بين بنودها ايكال مهمة تجديد الطائرات الميج والسوخوى الروسية ، بأيد اسرائيلية .

٢ — واذا كانت اسرائيل ماضية فى توسيع دائرة تعاونها التكنولوجى العسكرى مع الصين والهند فى وقت واحد ، فان هناك ما يؤكد اشتراكها مع اليابان فى أبحاث مشتركة لتطوير الدفاعات الصاروخية المضـــادة للصواريخ .

٣ — ان الاعتراف بعضوية اسرائيل فى المجموعة الأوربية بالأمم المتحدة اذا لم يكن يعنى تمهيداً لامتداد الناتو جنوبا من خـــلال البوابـــة الاسرائيلية ، أو تنشيطا لمحورها التركى ، وتزكيـــة لمشروع الهـــلال الخصيب ، فانه يعنى ان تعريف الشمال غربيا ، لم يعد تعريفا جغرافياً ، وانما تعريف سياسى واستراتيجى ، فالشمال بمعنى أدق هو ما ليس جنوباً .

٤ — جميع اتجاهات النمو داخل تضاريس هذا المربع الاسرائيلى على المستوى العسكرى والسياسى والايدلوجى . تعنى أمراً واحداً ، هو التأهل ، أو التأهب للاضطلاع بدور القوة الاقليمية الكبرى ، فوق تخوم تلك المنطقة الواسعة الممتدة بين البحيرات الاستوائية ، وبين الممـــرات الاستراتيجية فى آسيا الوسطى .

سابعـــاً :

ماذا تعنى العودة الى تأمل « تختة الرمل » ، أو لوحة « البازل » بعد أن تتجاور مربعاتها الصغيرة ، على النحو السابق :

١ — نحن ذاهبون الى مرحلة جديدة لاعادة بناء الاقليم ، يمكن تسميتها ، بمقلوب حرب الخليج ، حيث تتطلب الازمة الاقتصـــادية العالمية ، خاصة فى أوربا ، ايصال المنطقة الى أشكال من التسويـــات السياسية الناقصة ، كان مفروضاً أن تتحمل اسرائيل جانباً كبيراً من تكلفتها السياسية ، ولكنها أبت أن تضيف الى اعباء انسحابها من جنوب لبنان ، أعباء ملموسة جديدة .

٢ — تحظى هذه التسويات الناقصة ، الآن ، بقبول أمريكى وهى بدورها ، جزء من بناء أوضاع إستراتيجية كاملة ، سوف يكون همهـــا حفظ الأمن وفق مفهوم هذه التسويات وحدودها ، وفى اطـــار تهدئـــة اقليمية عامة .

٣ — سوف يكون مطلوباً من عناصر هذه التهدئة . السماح بضخ دم جديد فى دورة رأس المال العالمى • سواء برفع أســـعار البترول التى

ستضاعف فاتورة الواردات العربيــة من السلع والأغذية والســلاح ٠ أو رفع الحصار عن العراق وليبيا ، واستئناس ايران ، وفوق رأس الكعكة العراقية وحدها ٠ ما يزيد على ٢٠٠ مليار دولار ، سيتوزع جانب من انصبتها بين الولايات المتحدة وفرنســا وروســيا ٠ أما بريطانيا فهي على رأس الجسر الغربي نحو ليبيا (وقد وقع مؤخرا عقــد بمبلغ ٢٥ مليــار جنيه استرليني ٠ لاعادة تجديد البنيــة الأساسية هنــاك) ٠ بينما تبدو المانيــا هي الأقرب الى الحدود الايرانية ٠ أما قلب كعــكة الخليج فالمطلوب أن تبقى بين أصابع الولايات المتحدة ، وكان بصــدد « سايكس بيكو » سرى جديد !

وسوف تتكفل أعمال الاعمار واعادة بناء البنية الأساسية اضافة الى قوائم المشتروات الجاهزة من السلاح الجديد والسلع ٠ بفتح أسواق المنطقة على اتساعها وبالتالي فتح شرايين دورة رأس المال الدولي ، وطرد الركود منها ٠

ثم بعــد أن يبلغ التراكم في الســلاح والبنية واشباع الأســواق مداه بعــد حقبــة أو اثنتين ، سيحتاج الأمر الى توجه كبير جديد لتعيد دورة رأس المال الدولي تجديد نفسها ٠ بعكس الدائرة في اتجاهها الآخر ، بدراما انسانيــة جديدة ، وأبطال آخرين ٠

ثامناً : على «تختة الرمل» السابقة ومربعاتها ، تبقى مصر لا اسرائيل هي المشكلة المستعصية ، التي تحتاج الى حلول غير تقليدية ، واذا كان اقصاؤها مستحيلا ، فتفجيرها هو البديل المتاح ٠

أن تفجير مصر عندي يعني ، ضرب الخصوصية الوطنية ، وعزل منظومة القوة ، والانزلاق الى انقلاب مدني .

غير أن مصر كما أنها المشكلة المستعصية ، فانها الحل الفريد ! ٠
وهذا ما سيتصل به الحوار .

٢ ـ شمشون الاسرائيلى يهدم المعبد على رأسه

لا تتحدد نتيجة الصراع أو الصدام فى المبارزات التاريخية الكبرى بمقدار ما يضغط به الطرف الآقوى ، ولكن بمقدار ما يقاوم به الطـــرف الأضعف .

تلك حقيقة تاريخية ، ينبغى الا تخطئها عين ، ودرس يمكـــن استعادته ، مبنى ومعنى ، من عشرات الوقائع فى تاريخ البشرية ، القديم والحديث والمعاصر ٠

لقد قدر لنا أن نقاوم الظاهرة الاستعمارية ، فى منـاخ دولى ، يتعامل معها على انها جزء من اقانيم الليل والنهار ، بينما لم نكن بحسابات موازين القوى العسكرية ، أو النظام الدولى ، اكثر قدرة ومنعة ، بل كنا الأشد ضعفا ، والأقل بأسا ، ولكننا قاومنا بدرجة أكبر من محاولة اعتصـــار ارادتنا ، ثم أننا قاومنا ـ أيضا ـ وهو الأهم ، بينما ظلت ترفرف فى أرواحنا ، « ارادة القتال » ، كأنها عصفورة النار . التى تقول الأساطير القديمة ، انها تطلق سراح النهار ، من أسر الليــل ، والناس نيــام ٠

ان « ارادة القتال » ليست عملا عسكرياً لنتحسب له ، وليست فعلا مادياً ، أيدخل فى دائرة الخيارات ، ولكنها الشرفة المعنوية العالية ، التى تطال منها الحقوق ٠ وتنال منهاً الأهداف ، ذلك انها تحدد قامات الرجال ٠ كما تحدد قامات الأوطان ، وتجعل الثمرة العالية المستحيلة ، ممكن قطفها من شجرة الحياة ٠٠

وفى المشهد الراهن الذى يبدو كأنه جـــزء عضـــوى من درامـــا التحولات التاريخية الفريدة ، لن تجد فى أيدى هؤلاء الصبية والنساء والرجال الفلسطينيين ٠ شيئا يجعل للمقاومة ، معنى ومغذى ، ومصدرا يمدها بأسبابها وطاقتها ، وفعلها الانسانى الفدائى العظيم ، لن تجد سلاحا : لا بنادق ، لا مدافع لا مدرعات ، لا أسلحة نووية ، لا خـطط

عسكرية ، لا جنرالات ولا قادة · ولا خرائط ولا خنادق ، لن تجد الا شيئا واحدا ، هو نفسه ارادة القتال ، أو قل ، عصفورة النار التى ترفرف حرة فى أرواحهم ، لتطلق سراح نهارهم ، من أسر الليل الصهيونى البهيم ··

●

وفى المشهد الراهن الذى يبدو جزءا عضويا من دراما التحولات التاريخية الفريدة ، يقف شمشون الاسرائيلى ، فى مقدمة المسرح ، وهو يهدم المعبد الأخير ، فوق رأسه ··

لماذا ؟ لأنه بدأ سعيه لفرض ارادته المطلقة ، بحسابات اسرئيلية وأمريكية خاطئة . حاولت أن تصحح نفسها بعد ذلك بحسابات خاطئة أخرى ، ثم أوصلته دائرة مغلقة من الحسابات الخاطئة ، الى مركزها ، بحسابات اكثر خطأ · وهو نفسه المركز · الذى يتم منه عملية انسحابه غير المنظم . الى داخل الجيتو ، تحت خيمة كثيفة من اطلاق النار ، ماذا حدث بالضبط ؟ :

١ ـ لقد كتبت فى أعقاب الانسحاب الاسرائيلى الأخير ، من جنوب لبنان · أقول بالحرف الواحد :

« ينبغى أن يكون واضحا لأولئك الذين تصوروا أن الانسحاب الاسرائيلى من جنوب لبنان (وهو ثمرة مؤكدة للمقاومة اللبنانية الباسلة) هو اجراء مستقل من جانب اسرائيل عن مجمل عملية اعادة بناء خريطة استراتيجية جديدة للمنطقة ، أن عليهم أن يراجعوا ، عدة نقاط · تبدأ بتوظيف اسرائيل للانسحاب وفقا لقرار الأمم المتحدة (٤٢٥) بغية اضفاء المشروعية الدولية الكاملة عليها . وقد حصدت هذا المسعى فعليا ، بعد ساعات من الانسحاب ، بموافقة الأمم المتحدة على اعتبارها عضوا فى المجموعة الأوربية ، بعد أن ظلت خارج سقف كل المجموعات الجغرافية بها طوال خمسين عاما · وعليهم أن يراجعوا كذلك · انعكاس ذلك على الحالة الاسرئيلية الداخلية ، وعلى الجمهور الاسرائيلى ، الذى أصبح على حد تعبير « زئيف شريف » ، لا يتطلب الحاحا الآن ، للانسحاب من الجولان ، لا من طبريا ومياهها ، وعليهم أن يراجعوا كذلك ، استعداد اسرائيل لاستخدام ما أطلق عليه « رون بن بشاى » ، استراتيجية الردع الجارف · اذا ما حدثت مواجهة واسعة فى غزة والضفة الغربية » ·

٢ ـ وقد أضفت فى التوقيت نفسه ، ما يؤكد على ثلاثة أمور ينبغى التنبيه اليها :

ــ اننا بصدد مفصل تحول جديد فى أوضاع الاقليم عنوانه الصحيح ، هو ، انقلاب استراتيجى كامل ، يجرى انضاج عوامله ، وسيتم فرضها بالقوة · وهو انقلاب لا يطول المنطقة العربية وحدها ، لكنه يمتد كالسحابة السوداء ، عبر امتدادها الآسيوية ، وتخومها الأفريقية ·

ــ جزء من نتائج هذا التحول أو الانقلاب الاستراتيجى فى أوضاع الاقليم ، موصول بحقيقة ينبغى أن تحظى بادراك أعمق · وهى أن مشروع السلام فى الشرق الأوسط · قد سقط استراتيجيا · وان بقى لبعض الوقت · ينازع فى رمقة الأخير ·

ــ جزء من مظهر هذا التحول لاعادة بناء الاقليم ، يمكن تسميته « مقلوب حرب الخليج » ، حيث تتطلب الأزمة الاقتصادية العالمية ، الاندفاع نحو أشكال من التسويات الناقصة · كان من المفروض أن تتحمل اسرائيل جانبا كبيرا من تكلفتها السياسية ، ولكنها ابت أن تضيف ، الى أعباء انسحابها من جنوب لبنان ، أية أعباء ملموسة جديدة · وهذه التسويات الناقصة ، تحظى بدعم وقبول أمريكى كامل ، وهى بدورها جزء من استراتيجية كاملة ، سوف يكون همها ، حفظ الأمن ، وفق مفهوم هذه التسويات وحدودها ، وفى اطار تهدئة اقليمية عامة · وكان ملخص ذلك كله تعبيرا عن المطلوب تحقيقه ، هو : « تسوية بغير سلام ، وتهدئة بغير استقرار » ·

٣ ـ هكذا جرى حمل الفلسطينين الى كامب ديفيد · وهكذا ـ أيضا ـ توحد الاسرائيليون والأمريكيون · فى موقف منهجى موحد · عمد الى تقشير اللحم الفلسطينى ، ثم تعددت محاولات اكراههم على تسليم ما تبقى من الهيكل العظمى الفلسطينى لهم · كان من بين عملية تقشير اللحم الفلسطينى ، انتزاع موافقات لابقاء المستوطنات فى كتل استيطانية ، تحت السيادة الاسرائيلية ، وكان من بينها ضم اسرائيل لمناطق استيطانية فى القدس الشرقية · لتكون داخل حدود القدس الغربية ، وكان من بينها وضع قيود على حق العودة ، وطمس دلالته ، ومستحقاته السياسية والقانونية ، وكان من بينها التنازل عن حائط البراق والحى اليهودى ·· ولكن تقشير اللحم الفلسطينى لم يكن كافيا ،

فواصل الموقف الأمريكى الاسرائيلى · ضغوطه ، لاقتطاع ما تبقى من الهيكل العظمى · بحسابات خاطئة ، فقد كان التصور ، أن السلطة الفلسطينية . لن تجد بديلا عن أن تسلم ما هو مطلوب بالضبط ، للوصول الى ما اطلقت عليه : « تسوية بغير سلام » .

لكن الفلسطينيين ، صمدوا تحت أمضى أسلحة الاكراه السياسى ، وبدا أن الحسابات التى زينت امكانيــة استسلام فلسطينى وعربى غير مشروط ، لا تتسم بالدقة ولا الصحة ·

٤ ـ هكذا لم يجد الأمريكيون بديلا عن أن يؤلفوا عدوا بديلا ، لتغطية خطأ حساباتهم ، التى انتهت بعدم تسليم عرفات · وسرعان ما جسدوا هذا العدو فى دور مصر ، والرئيس حسنى مبارك شخصيا ·

وهكذا انطلقت سهام الاكراه الســياسى مرة أخرى ، ولكن ناحية مصر · وامتزج الاكراه السياسى والاقتصادى ، بأســاليب أخرى وصلت حد استخدام الكاتب اليهودى « توماس فريدمان » ليصوغ مقاله ضد القيادة المصرية ، بروح كريهة ، ومنطق سقيم ولم تكن هذه الروح · وهذا المنطق ، غير تجســيد لروح ومنطق الادارة الأمريكية نفسها ·

بينما لم يكن الهدف ــ فقط ــ هو انزال ما تصوروه عقابا علنيــا بمصر ، على ما حدث ، ولكن دفع مصر الى أن تراجع نفسها وحساباتها ، وتركن الى السلامة ، عند التقدم الى الخطوة التالية فى السيناريو نفسه ، وتترك الفلسطينيين فى الفضاء الأمريكى الاسرائيلى ، منفردين يواجهون أقدارهم المحتومة ·

٥ ـ ولم تكن الحسابات على الجانب الآخــر ، أقل خطأ فى الخطوة التانية من السيناريو نفسه .

فقد تصوروا أن مصر التى أبصرت الى أين تقودها أقدامها اذا أصرت على دورها ، سوف تبعد نفسها بنفسها ، وحين أصبح ذلك منطقيا ، لديهم ، اعتقدوا أن مواصلة الضغوط على القيادة الفلسطينية المعزولة عن أهم مصادر دعمها بل وعن فضائها العربى ، الذى بدا أنه انتقل تدريجيا الى اهتمامات أخرى ، وعوالم أخرى ، سوف يحقق النتيجة المرجوة ·

لكن الثمرة ظلت بعيدة ، وبدت المقاومة أشد ، وبدت الســلطة الفلسطينية ، أكثر التصاقا بمصادر امداداتها المادية والمعنوية ، سواء فى فلسطين أو خارجها ·

٦ ــ لم يكن ثمة سبيل الى تصحيح الأخطاء السابقة كلها ، الا بخطأ اكبر ، جسده ذلك التحول لاستخدام القوة ، فى اطار ما أطلق عليه العسكريون الاسرائيليون : « أستراتيجية الردع الجارف » . وكان متصورا أن استخدام هذه الاستراتيجية ، لن يردع السلطة الفلسطينية وحدها ويظهر ضعفها وهشاشة وضعها ، أو يروع الفلسطينيين العزل وحدهم . ولكنه سيروع ــ أيضا ــ مصادر الامداد بالطاقة والقوة .

وبدت معالم هذه الخطوة من السيناريو ، قبل ساعة الصفر بأسبوع واحد ، حين تنادى الكونجرس الأمريكى الى اجتماع ، لم يكن موضوعه على أجندته أصلا . ولم يكن جزءا من حمى الانتخابات الأمريكية ، فقد باركه الطرفان المتنافسان مقدما . ولم تستهلك جلسة الكونجرس وقتاً طويلا ، لتصدر قراراً غريباً ومفاجئاً بوقف الدعم المادى للسلطة الفلسطينية اذا هى أقدمت على اعلان الدولة الفلسطينية من جانب واحد . ولم يكن القرار نفسه الا بمثابة ، وضع ظهور الفلسطينيين الى الحائط ، قبل أن يتكفل الرصاص الاسرائيلى ، بتفتيت هيكلهم العظمى ، ليجدوا أنفسهم مضطرين الى تسليم ما تبقى منه . ثم امتدت الحماية الأمريكية للجنود الاسرائيليين حتى ساحة مجلس الأمن . لتقطع الطريق على قرار دولى يحمل الادانة ويفرض التوقف عن اطلاق النار .

غير أن الحسابات الأمريكية الاسرائيلية ، سقطت هذه المرة أيضا ، فى الخطأ ، فمن المؤكد أن الجنود الاسرائيليين أنفسهم . فركوا عيونهم دهشة ، وهم يرون صفوفا طويلة ، من الشهداء الفلسطينيين ، يستيقظون معمدين بالدم ، فى ثياب أجيال جديدة ، تصر على أن تتسلق سلالم الحلم ، الى جنة لم يروها .

ومن المؤكد أيضا ، أن القيادة الاسرائيلية ، فركت عيونها دهشة ، لأن الوطن العربى ، الذى تصورته ، وقد شيع مرات الى مثواه الأخير ، ينفض عنه تراب العقود . ويخرج من جلده الرخو ، فى موجة غضب عارمة ، مدت نارها مشتعلة من المحيط الى الخليج .

ومن المؤكد ــ أيضا ــ أن انقلاب الحسابات ، قد ترجم نفسه كمداً وغيظاً ، وفشلا ، فى أنماط عنف أكثر بربرية ودموية ، ليختار الرصاص الاسرائيلى . ان يصوب نفسه نحو رؤوس الأطفال ، حتى وهم راقدون فى باحة صدور آبائهم .

٧ ـ عندما وصل خطأ الحسابات الى مركز الدائرة ، بدا للأمريكيين ان احتمالات المخاطرة غالبة ، وأن الوصول الى تهدئة ينبغى أن يتم بعمل أكثر حسما • وهكذا دفع عرفات الى باريس ، ودفع عنان الى هنـاك • ودفع الرئيس الفرنسى ليلعب دوراً ـ يؤمن به دون شك ـ لتلطيف الأجواء وجبر الخواطر •

وتصورت الحسابات فى مركزها بعـد نجـاح أولبريت فى جمع عرفات وباراك ، والوصـول الى وثيقـة أمنيـة للتهـدئة ، ان عرفات سيضطر الى التوقيع على الوثيقة ، وابتلاع بقية شروطـه خاصـة • تشكيل لجنة تحقيق دولية • وهو مطلب يهدم أساس منـهج التسـوية السياسية القائمة ، التى فرضت الولايات المتحدة أن تنفرد فيها بنصيب ضابط التفاعلات • باسم رعايتها وحمايتها ، وبينما كانت الرعاية من نصيب اسرائيل ، كانت الحماية مانعة من دخول أية آلية دولية الى عملية التسوية نفسها •

ان دخول لجنة تحقيق دولية ، يعنى أن نتائجهـا دولية ، ويعنى ان قراراتها دولية . وانه يلزم تنفيذها فى اطار دولى ، وبآليـة دولية ، وهكذا يمـكن سحب عمليـة التسـوية وما يصـاحبها من سقفهـا الأمريكى المنفرد • الى سقف دولى ، ظلت اسرائيل تهرب منه منذ أول قرار دولى صدر بحقها •

وفيما أحسب فان أوعية التفاوض المختلفة ، منذ أن بدأت عمليـة التسوية ، قد مكنتها من تحقيق ذلك ، وكان ذلك أكبر الأخطاء ، التى قادت الى هذا الانفراد الأمريكى ، والى هذا التهرب الاسرائيلى ، من تنفيذ الاتفاقيات الموقعـة ، ومن التحايل على الحقوق الفلسطينية ، كما هى وارادة فى صيغ مشروعية دوليـة •

٨ ـ ماذا بقى بعد أن فشلت حسابات المشروع الأمريكى الاسرائيلى المشترك لانجاز تهدئة مطلوبة فى عموم الشرق الأوسط ، وماذا بعـد أنبت المشروع نقيضه ، حيا ، وممتلئا بالدم ؟ كيف يأتى باراك الى شرم الشيخ اذن ، اذا كانت عوامل فشله ، تبدو أكثر من أسباب نجحه ، واذا كانت مصر نفسها ، ماتزال فى منظوره ، مصدر الامداد ، ورأس الحية • ليذهب مباشرة الى اسرائيل ، ومباشرة الى قيادة الجيش ، ومبـاشرة الى « الميكرفون » ، ليقول ان على الفلسطينيين ـ وغيرهم من العرب طبعاً ـ أن يفضلوا بين خيار الحرب ، وخيار السلام ، وخيار الحرب عنده هو التمسك بالحقوق المشروعة • أما خيار السـلام فهو الرضوخ

والتنازل والاذعان والقبول غير المشروط · بتسليم ما تبقى من الهيكل العظمى الفلسطينى · وباختصار شديد ، اتركوا القدس لنا واقبلوا ما تفرضه عليكم وغير ذلك لن يكون نصيبكم سوى القتل والابادة .

نعم ، هذه هى عمليا صيغة معادلة التحول ، وليست معادلة اسرائيلية ، ولكنها صياغة أمريكية اسرائيلية مشتركة ، فأمريكا نفسها هى التى أعادت عمليا فوق خطوط المواجهة فى العراق والسودان ويوغسلافيا ، تعريف الحق بأنه القوة ، وهى التى ابتكرت نظرية عسكرية جديدة ، تختفى فرق خطوطها المسافات بين ما هو مدنى ، وما هو عسكرى ، وهى نظرية أطلقت عليها ذات مرة : « اضرب البيض بالأحجار » ·

لماذا — اذن — لا ينسحب الاسرائيليون الى الجيتو ، وهم يغطون انسحابهم غير المنظم ، بكل هذا الرصاص ، وهذا النزيف الدموى ·· ، ولماذا — اذن — لا يتقدم شمشون الاسرائيلى ، ليهدم المعبد ، فى ذروة حساباته الخاطئة ، غير مدرك أنه انما يهدم المعبد فوق رأسه ؟ !

● ●

وفى المشهد الراهن الذى يبدو جزءا من دراما التحولات التاريخية الفريدة ، يبدو « الآخر » حقيقيا ، وعلى طبيعته ، مختلفا عن ذلك « الآخر » الذى حاولوا أن يسوقوه لنا ، أما وجها انسانيا ، يترقب للخروج من الجيتو ، لكى تنتشر المحبة فى الشرق الأوسط ، ويعم الرخاء . واما دوراً ديبلوماسياً يأتى من وراء البحار والمحيطات ، ليقيم العدل ، ويبنى سفينة السلام ·

فها هو الآخر فى أحد وجوهه ، بقده وقديده ، آلة حديدية · صيغت من التسلط والكراهية والعنصرية ، لا تخرج من جوفها الا نارا وردى ، وكأننا أمام « جابوتنسكى » فى اهاب « دراكولا » ، الذى لا ترتوى ، روحه المقرورة ، الا بأباريق دافئة من الدماء ·

وها هو الآ خر فى أحد وجوهه بقده وقديده ، « شايلوك » جديد ، يقتطع من لحمنا الحى ، ما يحاول ان يسند به ميزان عدله المائل ·

شكرا لكم — اذن — يا من أنفقتم سنوات طوال ، تقيمون تمثالا للآخر فى وجدان أجيالنا الصاعدة · يشبه تمثال الحرية المطلوب ، فى

مدخل نيويورك ، قبل أن تهب الريح السوداء • وتتمزق قشرة الجبس ، فتبصره الأجيال الصاعدة والهابطة • تمثالا بالحجم الطبيعى ، لفرانكشتين ••

ذات يوم كتب « انجلز » ، يعرف الغريزة الانسانية ، بأنها « ذاكرة النوع الانسانى » • والمثل بالمثل ، فتلك الصهيونية المدججة بالسلاح • تبدو على أنها تتصرف بالغريزة ، وهذه الغريزة الصهيونيه ، التى تغمس فوهات بنادقها وصواريخها فى قلوب الأطفال العزل ، لا يمكن تعريفها ، الا بأنها : « ذاكرة النوع الاسرائيلى » •

ولهذا كان المطلوب دوما أن تزهق ذاكرتنا التاريخية الحية ، لتحيا ذاكرتهم المزورة الميتة ، وان نستأصل غريزة المقاومة ، وارادة القتال فينا • لتبقى غريزة القتل والتدمير ، لديهم • متورمة ويانعة •

أو يمكن أن ينفصل ذلك ، عن سيكولوجية الجيتو ، أو عن البنية النفسية لذلك اليهودى التائه ، الذى تسول له نفسه ، أنه بمقدار ما يستنزل على ذاته من مشاعر عداء الاغيار وكراهيتهم ، بمقدار ما يمتلأ بعقدة اضطهاده الكاذبة ، وبنقاء عنصريته ، الزائف ، وتفرد تكوينه الملفق ، وهو يتلفع كذبا ، باسم شعب الله المختار •

ثم • شكرا لكم يا من انفقتم سنوات طوال لكى تلقنوا أجيالنا الصاعدة ، فضيلة « التسامح » ، وتكرروا على مسامعهم ومسامعنا ، فصولا مختارة من « ثقافة السلام » •

ها هو مشهد « التسامح » ، كما ينبغى أن يكون ، حسب ثقافة السلام ، التسامح من الأدنى الى الأعلى ، والتسامح من الأضعف الى الأقوى ، والتسامح من الأعزل الى المسلح ، والتسامح من المقتول الى القاتل ، والتسامح من الدم العربى الشهيد ، الى رصاصة الجندى الاسرائيلى ، ومن حطام البيت الفلسطينى المكوم ، الى فوهة مدفع الدبابة الاسرائيلية المتغطرس •

شكرا لكم ، فقد قرأنا خلال أيام قليلة ، مجلدات كاملة فى فضيلة التسامح ، وحفظنا عن ظهر قلب وعن قلب ظهر ، أبجدية ثقافة هذا السلام •

فاحملوا أوراقكم ٠ وصحفكم ، ومراكز أبحاثكم ، واذهبوا ، احملوا مزاميركم الفاسدة المستوردة ، وارحلو بعيدا ، كى نجفف دمنا ، ودموعنا ، وندفن شهداءنا صامتين !

●●●

بقى ما يستحق التوقف عنده ، والتفرس فيه :

أولا : دون رجم بالغيب ٠ فان هدم شمشون الاسرائيلى للمعبد ، سوف يولد طاقة هائلة سائبة فى الفضاء العربى ٠ واذا لم يتم توظيف هذه الطاقة ٠ عملا سياسيا منظما على المستوى الوطنى والقومى ، يتناغم مع نبض القاعدة الشعبية العريضة ، فى الوطن العربى ، فسوف تجد السلطات السياسية فى هذا الوطن ، نفسها ، مفصولة عن قواعدها ، ومحشورة فى خنادق دفاع سلبى عن شرعية وجودها ٠

ثانيا : ودون رجم بالغيب فان هدف تحقيق تسوية بغير سلام ٠ وتهدئة بغير استقرار ، سيظل متربصا يطل من فوهات البنادق الاسرائيلية ٠ بينما ستتكفل الولايات المتحدة الأمريكية ، بتقديم كافة أشكال الدعم له ، بما فى ذلك استخدام عمليات القصف من بعيد ، بأسلحة الاكراه السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، لتخويف واضعاف الدفاعات العربية ٠ وفى العمق ٠

ثالثا : ودون رجم بالغيب فسوف تختلط أسلحة الاكراه السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، بأدوات الاكراه المعنوى ، بما فى ذلك احداث تفجيرات كبيرة ، هنا وهناك ٠ لتشتيت الرؤى ، وصرف الأنظار ٠ (مثل اعادة ضرب العراق ــ تسخين الجهة الهندية الباكستانية ــ توسيع دائرة العنف فى الجزائر ٠٠ الخ الخ) ٠

رابعا : ودون رجم بالغيب ، فان مصر الموصولة دعما وحضورا ، وفعلا ، بالوضع الفلسطينى كله ، سوف تظل فى موقعها ، فى الاستراتيجية المضادة ٠ باعتبارها تاريخيا ، « مصدر الامدادات » ، « ورأس الأفعى » ٠٠ ولهذا فان نصيبها من عمليات الاكراه السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، سوف يكون الأكبر والأوفر ٠

لقد قلت أكثر من مرة ، وبرهنت أكثر من مرة ، على أن تحقيق تسوية بغير سلام ، وتهدئة بغير استقرار يتطلب فى النهاية ، تفجير مصر من الداخل ، لأن مصر لا اسرائيل ولا غيرها فى الشرق الأوسط هى

المشكلة المستعصية • التى تحتاج الى حلول غير تقليدية ، واذا كأن قد ثبت ان اقصاءها مستحيل ، فان تفجيرها هو البديل المتاح •

ولا عاصم لمصر ، فعلا ناهضا ، وحضورا قائدا ، ودورا حضاريا ، بغير أن تعتصم شعبا وجيشا ، بصخرة وحدتها الوطنية الراسخة ••

ان قلب مصر ، هو الذى ستتوجه اليه النصال !

٣ ـ العودة الى البديهيات فى الساعة الرابعة والعشرين

(أ) بديهيات المسألة

خرجت عشرات الكتب الى النور خلال القرنين الماضيين ، تحت عنوان موحد هو : (المسألة اليهودية) ، موصولة بالحديث عن خصوصية وضع اليهودى • فى المجتمع الذى ينتمى اليه ، أو يعيش فيه • وقد زحفت معالجة هذه الخصوصية الحرجة ، من الكتب السياسية والتاريخية ، وأطلت بوجهها من أعمال ابداعية ، روائية ومسرحية ، حتى قبل أن تبدأ الحركة الصهيونية فى نسج قماش أسطورتها العنصرية ، عن شعب الله المختار ، وعن « أرض الميعاد » ، باعتبارها الحل التاريخى لهذه المسألة اليهودية •

لكن واحدة من أهم المعالجات لهذه المسألة • تنتسب الى أحد الذين تصطف أعمالهم حتى اليوم ، فى مقدمة الابداع الروائى للبشرية جمعاء ، وهو الروائى الروسى الأشهر (ديستوفسكى) ، فقد اختار أن يكتب ، فصلا فى كتاب معروف له هو (يوميات كاتب) تحت العنوان الدارج نفسه (المسألة اليهودية) ، وذلك فى عام ١٨٧٧ ، لكن المدهش أن الكتاب لم يجد طريقة الى النشر باللغة الروسية القديمة ، الا فى عام ١٨٩٥ • أما الأكثر مدعاة للدهشة ، فهو أن هذا الفصل بالتحديد ، قد تم نزعه من بقية فصول الكتاب ، سواء فى طبعاته الروسية التالية ، أو فى مجلدات أعماله الكاملة ، التى صدرت بعد عشرات السنين • بكل اللغات الحية ، ولذلك سوف يحمد التاريخ الأدبى للدكتور أشرف صباغ ، أنه نقب عن هذا النص الغائب فى مكتبة موسكو المركزية ، حتى عثر عليه وقام بترجمته بعد ما يزيد عن مائة عام على صدوره ، فاهمية هذا النص لاترجع فقط الى نسبه لموهبة انسانية فذة ، وانما أيضا الى أنه يعد وثيقة فكرية مشحونة بأبعاد سياسية وثقافية واجتماعية للمسألة اليهودية فى سياقها التاريخى ، وتطورها ، ليس فقط فى روسيا ، وانما فى العالم أجمع ، وليس فقط فى حدود وعائها الزمنى الضيق • وانما فى تجلياتها المفتوحة ، عبر التاريخ •

وبالرغم من أن هذه الوثيقة الفكرية التاريخيـة ، تنطوى على أهمية استثنائية لنا نحن العرب ، فلم نتوقف أمامها • استبصارا ، أو استثمارا ، مع أننا حملنـا وحدنا بالنتائج المأساوية لحل هذه المسـألة اليهودية ، ربما لأن الحديث عن المسألة اليهودية ، يكـاد الآن أن يكون مغـامرة محفوفة بالمخاطر ، فاسرائيل تقوم على أساس دينى ، وهى دولة دينية المضمون دون شك ، تأسست تحت قشرة عصرية قومية وهمية ، لكن الحديث رغم ذلك ، عن الاسرائيليين كيهود ، يمكن أن يصنف تلقائيـا فى نطاق العداء المكرور للسامية ، فنحن بصدد حالة فريدة ، فى تاريخ الدولة القومية : اطار سـياسى ما زال يتخاصم حول تحديد من هو اليهودى ، ليكون مواطنا كامل الأهلية فى انتسابه اليه ، ورغم ذلك يرفض أن يتحدث عنه الآخرون ، وفق مفهـومه الذاتى ، كتجمع لبشر يوحدهم انتسابهم الى اليهودية كدين ، وهو يتحدث عن اليهود فى العالم كوحدة واحدة ، من خلال مفهوم الشتات ، ويدين فى الوقت نفسه الحديث عن الصهيونية ، كظاهرة عنصرية استيطانية ، ذات طبيعة دينية • ان جزءا من معالجة (ديستوفسكى) للمسألة اليهودية ، تقترب مبكرا جدا من هذا المعنى ، فهو يرفض تماما أن يكون ثمة يهودى دون رب ، منتفضا يقول : « يهودى دون رب ، أمر لا يصدق ، يهودى دون رب ، أمر يستحيل تصـوره » ، ولهذا فهو يرى أن المثقفين اليهود •• الذين يتحدثون عن تحررهم من اليهودية ، ويجهرون بأنهم علمانيين خالصين ، لم يكفوا فى الحقيقة ، عن حمل أساطيرهم ، وخرافاتهم معهم •

ان التوقف عند بعض النقاط البارزة فى وثيقة « ديستوفسكى » قد يكون مفيدا ، فى العودة الى بعض البديهيات ، تقول الوثيقة :

١ ــ « للوهلة الأولى أعرف شـيئا واحدا ، ربما لا يوجد ككل ، هذا الشعب الآخر ، الذى فى كل دقيقة ، وفى كل خطوة ، وفى كل كلمة من كلماته ، قد تشكى من مصيره ، وذله ، وعذاباته ، وآلامه » •

٢ ــ « لا يوجد لدى شعبنا (الروسى) ، أى كره متحامل وغبى ، وغير مبنى على التجربة تجاه اليهود ، على شاكلة يهوذا هو الذى خان المسيح ، ان شعبنا ينظر كله الى اليهودى ، دون أى كره متحايل ، فلم يحتقرهم أحد ، ولم يستثنهم أحد أو يطردهم » •

٣ ــ « ••• ولكن انظر ماذا حدث ، كان اليهود يتجنبون الروس فى الكثير ، يرفضون الأكل معهم ، وينظرون اليهم باستعلاء (حتى فى السجون) ، بل كانوا يبدون تقززهم ، واشمئزازهم بشكل عام ، من كل ما هو روسى ، ومن الشعب الأصلى » •

٤ ــ « ·· لقد راودتنى ، أحيانا ، فانتازيا ·· ، ماذا لو لم يكن اليهود فى روسيا هم الثلاثة ملايين · وانما الروس ، بينما كان اليهود هم الثمانون مليون ، هل كان من الممكن أن يمنحوهم حقوقا متساوية · مقارنة بأنفسهم ، هل كان يمكن أن يتيحوا لهم فرصة الصلاة فى حرية ، أم أنهم كانوا سيحولونهم الى عبيد لديهم ، والأسوأ من ذلك ، أن يسلخوا جلودهم تمــاما ، وربما ضربوهم ليصل الأمر الى الابادة ، كما فعلوا مع الشعوب الأخرى ، قديما فى تاريخهم العتيق » ·

٥ ــ « ان اليهودية تزدهر فى تلك الأماكن التى يكون فيها الشعب جاهلا فظا ، أو غير حر ، أو متخلفا اقتصاديا ، هناك فقط يصيرون سادة وأحــرارا ، وبدلا من أن يحــدث العكس ، بأن يرفعوا بنفوذهم مستوى التعليم ، ويعملوا على زيادة المعرفة ، وتوليد القــدرة الاقتصادية لدى السكان الأصليين ، بدلا من ذلك ، نجد اليهودى ، اينما حل وأقام ، أذل الشعب ، وأفســد فيه ، وازدادت البشرية ذلا وخنــوعا ، وانتشر بشكل أفظع فقر محكم غير انسانى ، ينمو معه اليأس ويترعرع ، اسألوا السكان الأصليين فى أنحاء البلاد ، ماذا يحــرك اليهود ، وماذا حركهم طوال السنين الماضية ؟ ستحصلون على اجابة واحدة : عدم الرحمة ، عدم الرحمة تجاهنا ، وفقط الارتواء بعرقنا ودمنا » ·

٦ ــ « ان هذا الشعب لا يستطيع العيش من دون (الجيتو) ، اننى حين أتحدث عن (الجيتو) ، لا أود اطلاقا توجيه أى اتهام ، لكن فيما يكمن مغزى (الجيتو) ، وفيم تتحور فكرته ، وما هو جوهر هذه الفكرة » ·

من دون التغلغل فى الموضوع وعمقه ، يمكن وصف ولو بعض ملامح هذا الجيتو ، أو على الأقل ما يظهر منه ، هذه الملامح : الاحساس بالاغتراب ، والعزلة على مستوى التحجر الدينى ، وعدم القدرة على الاندماج ، والايمان بأنه لا يوجد فى العالم سوى شخصية قومية واحدة ، الا وهى الشخصــية اليهودية · وحتى اذا كان الآخرون موجودين ، فالأمر سيان ، يجب النظر اليهم ، وكانهم غير موجودين ·· « اخرج من بين الشعوب ، وشكل ذاتك واعلم انك الوحيد حتى الآن لدى الاله ، اسحق الآخرين ، أو خذهم عبيدا ، أو اشغلهم ، ثق بانتصــارك على العالم أجمع ، وثق بأنه كل شىء ، سيخضع لك) ·· هذا هو جوهر فكرة الجيتو » ·

والحقيقة أن وثيقة ديشوفسكى ، لا تعود بنا الى أصول المسألة فحسب ، بل تعود بنا الى البديهيات التى أغرقتها قنابل الدخان ، خلال

أكثر من ربع قرن من الصراع العربى الاسرائيلى ، فبعيدا عن مبدأ تاريخية الشكاية اليهودية ، قبل ظهور النازية بعشرات السنين ، فأن مبدأ تاريخية الجيتو ، ورفض فكرة الذوبان والاندماج ، التى لا يمكن الا أن تقوم على المساواة والسلام والعدل ، هو ما يستحق التوقف حقا ، ذلك أننى أحد الذين يعتقدون أن الصهيونية الاقتصادية التى كانت تتحدث عن شرق أوسط جديد ، قد جفت منابعها داخل اسرائيل • وان عملية اغتيال رابين تمت على سلالم الجيتو ، وأن صعود شارون الى سدة الحكم فى اسرائيل ، ومعه وزارته الائتلافية ، يمثل اقصى درجات تعبئة الغريزة الصهيونية ، تمسكا بالجيتو ، ودفاعا عن بقائه وديمومته ، والأمر قد يبدو على شاكلة ذلك الاقتراح الذى قدمه جنرال اسرائيلى ، انشغل بعض الوقت ، بالدراسات الأكاديمية ، والذى وجد حل المشكلة الاسرائيلية فى أن تحيط اسرائيل نفسها بسياج نووى قوى ، أى بجيتو نووى مستحدث ، وأن تغلق على نفسها هذا الجيتو النووى ، وأن تنتظر خلف جدرانه مائة عام أخرى ، حتى تنتهى عملية التحديث فى العالم العربى ، فعندما ينعم العالم العربى بالحداثة والديموقراطية بعد مائة عام ، يمكن للمصالحة التاريخية أن تتم ، ويمكن للجيتو الاسرائيلى أن يفتح أبوابه ، ويرفع أسواره ، ويمكن بالتالى لمشروع السلام ، الذى سقط استراتيجيا ،أن يعيد ترميم نفسه من جديد !

(ب) البيهيات الجديدة داخل الجيتو :

اذا كان كاتب اسرائيلى ، هو الذى أجهض توقع كاتب عربى بأن (شارون) فى موقع رئيس الحكومة يمكن أن يغير من أفكاره ، حين رد قائلا : « ان البشر فى هذا العمر لا يغيرون من أفكارهم » ، فان (بن جوريون) نفسه هو الذى يمكنه أن يجهض تفاؤل كاتب عربى آخر ، بوجود شيمون بيريز فى موقع وزير الخارجية ، بقوله قبل أكثر من أربعة عقود : (ان وزير الدفاع هو الذى يضع السياسة الخارجية الاسرائيلية ، أما مهمة وزير الخارجية ، فهى تفسير هذه السياسة واقناع الآخرين بها) • وفى كل الأحوال فان مفردات الذين يفكرون داخل الجيتو ، تبدو مختلفة عن مفردات الفلسطينيين ومنطقهم يبدو مختلفا عن منطقنا • ومع أنه ليست هناك خريطة متكاملة ، تحدد طبيعة ومسار تفكير أولئك الذين يجلسون فى المقاعد الأمامية داخل الجيتو الآن ، الا أنه يمكن صياغة خريطة تقريبية من خلال ربط مفردات الخطاب الاسرائيلى ، الحكومى والاعلامى والأكاديمى ، قد تعين على التتبع والسير :

١ رغم ما يبدو على الفلسطينين من ضعف شديد ، فسيكون بمقدورهم ـ على حد تعبير الجنرال موشى بوجى نائب رئيس الأركان ـ

أن يواجهوا تحديا يصل إلى حد التهديد بانهاء الوجود الاسرائيلي ، ولذلك يجب عدم قياس قدرتهم ، بعدد البنادق التى يملكونها •

٢ ـ بعد نشوب العنف ـ على حد تعبير بوجي أيضا ـ فان احتمالات الحرب زادت بشكل محدود ، لكن اذا حدث وأصبحت اسرائيل فى وضع تصعيد وتدهور اقليمى ، فانها ستجد نفسها فى وضع الحرب الشاملة •

٣ ـ تداعيات المشكلة التى تواجه اسرائيل ، وصلت الى حجم لم تصل اليه منذ حرب عام ١٩٤٨ ، ولذلك يجب أن ندرس ونفهم ، ما يتطرق اليه الفلسطينيون ، كخط استراتيجي خلفى بالنسبة لهم ، وهذا الخط الاستراتيجي الخلفى هو العالم العربى •

٤ ـ لا ينبغى أن تكون نقطة الانطلاق فى تقييم وحساب أى وضع أمنى ، هى الأوضاع الراهنة ، وانما التوقعات بامكانية وجود أو نشوء أى تغييرات جذرية فى المستقبل القريب ، ولذلك لا توجد أى تأكيدات ان امكانية الحرب العربية الاسرائيلية ستظل ضعيفة فى المدى المتوسط ، حيث يمكن أن تتغير الظروف ، بشكل دراماتيكى •

٥ ـ ينبغى الارتكاز بشكل كامل على مفهوم « القدرات الدفاعية بعيدة المدى » ، بعيدا عن مفهوم « الحدود الدفاعية » ، لأن الحدود الدفاعية وحدها غير قادرة على منع الحرب ، فحدود حرب عام ١٩٦٧ ، لم تمنع من شن حرب أكتوبر ١٩٧٣ •

٦ ـ رغم ان اتفاقية السلام مع الأردن تلزمه بمنع أى قوات معادية لاسرائيل من الوصول اليها ، ورغم ان اسرائيل تستطيع أن تدافع عن نفسها فى مواجهة أى هجمات محتملة من الجبهة الشرقية ، بنشر قواتها فى الأراضى المتاخمة لوادى الأردن التى تسيطر عليها ، فان أمن اسرائيل لا يمكن أن يترك معلقا باحتمالات ديمومة الاستقرار فى الأردن ، ولذلك فان تأمين الجبهة الشرقية يتطلب السيطرة العسكرية على وادى الأردن ، سواء كخط دفاعى فى مواجهة انتشار القوات المعادية لاسرائيل فى شرق نهر الأردن ، أو سواء كسيطرة مباشرة على معابر نهر الأردن • لتأمين القيود المفروضة على السلام •

(لاحظ أن وزير السياحة فى حكومة شارون الجنرال رحبعام زئيفى ، افتتح عملة السياحى بقوله ان الأردن جزء من اسرائيل) •

٧ ـ هناك نمو مقلق في التهديدات الأمنية بعد وصول صواريخ أرض أرض مداها من ٦٠ الى ٧٠ كم الى أيـدى حزب الله ، فقـد اتسـع مدى التهديدات السابقة بسلاح الكاتيوشا ، والتى كانت تطول ٢٥٠ ألف اسرائيلى ، الى تهديدات مستجدة تطول ٨٥٠ ألف اسرائيلى يعيشون فى المنطقة الشمالية ، وحماية هذا الحجم من السكان ، بدرجة عالية من الكفاءة · يتطلب تكلفة يصعب توفيرها الآن ، ولذلك ينبغى وضع الرد على خيار استخدام هذه الصواريخ ضد اسرائيل فى الحسابات الدفاعية المباشرة ، لأن قصف البنية التحتيه اللبنانيـة لن يكون كافيـا · وانما توجيه ضربات مباشرة الى الوجود السورى فى سهل البقاع ، وهو ما سيؤدى تلقائيا الى توسيع المواجهة العسكرية مع سوريا ·

(لاحظ أن وزير الدفاع بنيامين اليعـازر افتتح عمله بقوله : اننى أحمل سوريا مسئولية عمليات حزب الله ··)

٨ ـ ينبغى تجهيز مبررات أخـرى ، تبـدو متماسكة ومنطقية ، يتيح التعلل بها ، توجيه ضربة اجهاضية الى العمق اللبنانى أو الوجود السورى به ، اذا اقتضت الحاجة توجيـه هذه الضربة ، بدون أن يتـم اطلاق الصواريخ ضد اسرائيل ·

« مثل اتهام اسرائيل للبنان قبل يومين ، بالعمل على تحويل نهر الحصبانى الذى يجرى مسافة ٥٠ كم فى لبنان ، ثم على امتـداد نهر الأردن ، قبل أن يصب طرفه فى بحيرة طبرية وكما علق متحدث اسرائيلى رسمى : ان لبنان يسعى الى تحويل مجرى نهر يصل الى اسرائيل ، وهذا أمر خطير وسنرد عليه ، أو كما علق مدير شركة المياه الاسرائيلية الجنرال ساجى : آمل أن تعرف اسرائيـل كيف تدافع عن مصالحهـا ، لأن الماء عنصر استراتيجى ، يتعلق بالأمن » ·

٩ ـ اذا كانت البداية تتطلب خطة شارون (خطة المائة يوم) لتقطيع أوصال الضفة الغربية وقطاع غزة · بتقسيم الضفة الى ثلاثة وأربعين جزءا ، والقطاع الى أربعة أجزاء ، يخضع كل جزء لقيادة عسكرية ووحدة مستقلة · فان الخطوة التالية ، هى تطبيق خطة الفصل بين أراضى اسرائيل ومستوطناتها ، وما سيترك من مساحة للفلسطينيين · وهذا الفصل انما يهدف ـ بصياغة موشى شاحال ـ الى « الارتقاء على نحو جوهرى بمستوى السيطرة والمراقبة على من ينتقلون من الأراضى الى داخل اسرائيل ، وتحقيق أقصى درجات الفصل بيننا وبين الفلسطينيين ، لتظل القدس موحدة مع تكثيف وجود الأمن بها · واغلاق الطرق العشوائية

المتدة من الضفة وغزة الى القدس » · أما السلطة الفلسطينية ، فيجب أن تترك لانهيار تدريجي دون تدخل مباشر · ولن يطول الانتظار حتى يحدث الانهيار تلقائيا (أو على حد تعبير كاتب اسرائيلى : ان ينهي عرفات حياته ليس بلا دولة فلسطينية فقط · وانما أيضا فى المنفى) .

١٠ ـ العودة الى الردع النووى بالظن أو الى سياسة (القنبلة فى القبو) مع ازدياد حدة التأثير العربى لنزع السلاح النووى الاسرائيلى ، نبدو أكثر مواءمة الآن ، اضافة الى أن تطبيع العلاقات فى اطار ردع نووى · يحتاج الى ظروف أخرى · أكثر ملاءمة مع القبول بالحلول النهائية المقترحـة ·

ولذلك على الولايات المتحدة · أن تقبل العودة الى مذكرة تفاهم قديمة (١٩٦٩) تمتنع اسرائيل بموجبها عن الأدلاء بأية معلومات عن قدراتها النووية (وهو مالا تفعله أصلا) وعدم اجراء أى تجارب نووية (وهو ما فعلته مرارا رغم وجود التعهد ومذكرة التفاهم بشأنه) مقابل أن تمتنع الولايات المتحدة عن ممارسة أى ضغوط على اسرائيل للانضمام الى معاهدة حظر انتشار الأسلحة · أى أن تتعهد أمريكا بمواجهة الضغوط الدولية لتنفيذ مبادرة الرئيس مبارك بجعل الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل ·

١١ ـ القوة قبل الحوار ، والردع فوق التفاوض ، أو على حد التعبير الزائف الذى استهل به وزير الدفاع عمله لقوله : (لقد ذهب السادات الى الكنيست ، بسبب انجازات الجيش الاسرائيلى) · وبالتالى فان الحل النهائى هو نفسه الحل الانتقالى ، أو قل الانتقائى ، أى حل بدون قدس ، وبدون عودة لاجئين ، وبمستوطنات قائمة وقابلة للتوسع · وليس أمام الفلسطينيين ، سوى الرأسوخ ، بعد العزل والحصار ثم الفصل الأحادى الجانب ، بواسطة الحدود الالكترونية وحقول الألغام · وعلى العالم العربى ان يرضخ بدوره لما يعرض عليه : قدس اسرائيلية موحدة · ومستوطنات قائمة ، وغور أردنى بأكمله ، وأغلبية من هضبة الجولان تحت سيادة اسرائيلية كاملة ، والا لتبق الأسوار وتبقى الأوضاع القائمة · هى نفسها الأوضاع القادمة أو الدائمة · وعلى العالم العربى مع ذلك أن يشكر شارون (لأنه حسب اعتقاده فى حوار مع مطبوعة لحركة جهاد) ، قدم تنازلا هائلا من جانبه بعـــدم اقدامه على اعادة احتـــلال أريحا ونابلس !

١٢ ـ وهكذا فان اسرائيل تفكر بالطريقة التى فكرت بها بين عامى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ · « نحن لا نرى ـ كما يقول نائب موفاز ـ أية نية من

أى جانب للبحث عن الحرب » . ونحن نرى ـ كما يقول اليعازر ـ ان ديناميكية قد تبلورت تدفع الشعبين الى كراهية متبادلة ، ونحن نرى ـ كما يقول زئيفى ـ ان حكومة شارون مطالبة بغزو المدن الواقعة تحت السيطرة الفلسطينية ، ونحن نرى ـ كما يقول شارون للواشنطن بوست ـ ان القدس أكثر الأماكن قدسية لاسرائيل . وأننا لم نسمع ان هذا المكان يسمى الحرم الشريف الا فى الفترة الأخيرة فقط . ونحن نرى ـ كما كتبت هاآرتش منتقدة . ان الخلاف حول جبـل الهيكل يتعلق اجمالا بخلاف بسيط . هو : أين ربط النبى محمد دابته عندما قدم من مكة الى القدس . ونحن نرى فى النهاية . ان اسرائيل تستطيع أن تجبر العالم العربى على قبول الحلول النهـائية التى ترغب فيها ، سـواء بواسطة قدراتها التكنولوجية ، أو قوتها العسكرية . ولذلك فان على العرب أما أن يقبلوا ما يعرض عليهم ، وأما ان يتوقفوا حيث هم ، لأننا سنفرض التهدئة التى نريدها أولا ، ثم سنفرض التسوية التى نراها ثانيا !

(ج) بديهيات الوهم الجميل

منذ أن بدأ الانسحاب الاسرائيلى من جنوب لبنان ، وأنا أصرخ فوق الورق ، أن مرحلة أقليمية جديدة تؤذن بالبذوغ . وأن مشروع السلام قد سقط استراتيجيا ، وأننا بصدد نقلة نوعية سوف تفرض على المنطقة ، اعادة بناء هيكلها الاستراتيجى . ومنذ ذلك التوقيت أيضا . وأنا أدعو الى مراجعة نقدية صـحيحة لكل مراحـل الصراع العربى الاسرائيلى . لأننا أنفقنا نصف القرن العشرين نبحث عن السلام . ولأن الجانب الأكبر من الأخطاء التى ارتكبناها ، منذ حرب عام ١٩٤٨ وحتى الآن ، أننا لم نؤسس فى كل مرحلة منهجا صحيا ينتهى بنا ، الى ادراك صحيح للخطر :

● لقد حقنا أنفسانا فى مرحلة ـ على سبيل المثال ـ ومعنا أجيال كاملة . بأن أشكالية الصراع العربى الاسرائيلى ، انما تعود الى وجود جدار نفسى قائم بين ضفتين ، وأن هدم هذا الجـدار النفسى سيشجع الجانب الآخر ، على أن يندمج اندماجا طبيعيا فى نسيج الشرق الأوسط لأن صور مخاوفه التاريخية . لن تجد جداراً تعلق نفسها عليه . مع أننا كنا نرى بوضوح ، أننا كلما هدمنا جدارا نفسيا ، كلما قامت مكانه عدة جدران ، وكأنها مصنوعة من نباتات شيطانية ، تتوالد بالانقسـام . وتزداد تكاثراً . كلما قطعنا منها .

● وحقنا أنفسنا فى مرحلة ومعنا أجيال كاملة ، بأنه كلما أبحرت مراكب الطمأنة من ضفتنا ان الضفة الأخرى ، محملة بهدايا القبول ،

وعطايا التنازلات ، كلما أصبح الواقفون هناك ، أكثر استعداد للموافقة على صيغ أكثر عدلا لاقامة السلام ٠

مع أننا كنا نرى بوضوح ، أن بضاعة الطمأنة والقبول ، غدت كالماء المالح ، لا تزيد الطرف الآخر ، الا عطشا ، والا رغبة فى الارتواء منا ، واذا جفت المياه وجف اللبن ، فانه لا يتورع عن أن يحلب الدم ٠

● وحقنا أنفسنا في مرحلة ومعنا أجيال كاملة بأن الصهيونية السياسة قد استبدلت نفسها بصهيونية اقتصادية ، يمكن التفاهم معها ٠ وجرها الى صيغ تفاعل ومصالح مشتركة ٠ وأننا بالتالى نستطيع أن نزيل التناقض بين نظام شرق أوسطى تريد له أن يقوم ، ونظام اقليمى عربى ٠ نريد له أن يبقى ٠

مع أننا كنا نرى بوضوح ٠ ان هذه الصهيونية الاقتصادية ليست الا صيغة مرحلة عابرة ومؤقتة ، وأن الجمع بين نظام شرق أوسطى ٠ وبين نظام اقليمى عربى ، يشبه (الثلج المسلوق) ٠

● واقنعنا أنفسنا في مرحلة ومعنا أجيال كاملة ، أن بمقدورنا أن نمد أيدينا لنلعب فى الطبق السياسى الاسرائيلى ، كى نقوى مراكز الحمائم ٠ فى مواجهة الصقور ٠ ربما لتحقيق بنوءة التوراه : « حتى يعيش الذئب مع الكبش ، ويلعب النمر مع الماعز » ٠

مع أننا كنا نرى بوضوح أننا نساعد اليد الاسرائيلية أكثر على أن تلعب فى ضعفنا ومراكز أبحاثنا ، ومع أن شراح التوراه ظلوا يؤكدون لنا ان المقصود هو الذئب الاسرائيلى ، والكبش الاسرائيلى ، والنمر الاسرائيلى ، والماعز الاسرائيلى ، أما غير ذلك من دواب الأرض ، فان عليها ان تواجه الذئب والكبش الاسرائيليين معا ، والنمر والماعز الاسرائيليين معا ، سواء علقت قرب كبش أو ارتدت جلد ماعز ٠

لقد أصابنى الفزع وأنا أراجع أوراق سيل من الندوات السياسية التى شاركت فيها مراقبا أو معلقا منذ بداية التسعينات ، فعندما أطلق (بوش) تعبير النظام الدولى الجديد فى الفاصل الافتتاحى لحرب الخليج ، جرت فوق الورق أنهار من الكلمات التى بشرت بهذا النظام الجديد ، وبسلام دائم وعادل سيأتى تحت جناحه القوى ، على ان بعض المبشرين رسموا صورة ملونة لهذا النظام الدولى الجديد ، وأعدوا مجموعة

هائلة من عربات الاطفاء ، ليتم توجيهها على الفور ، لاطفاء مصادر نيران كل النزاعات الاقليمية فى العالم ٠

وعندما طرح للدراسة والمناقشة دور اسرائيل ومكانتها مع المتغيرات الدولية ٠ كان حصـــاد تقديرات أغلـــب الباحثين (وهى لدى مكتوبة ومسجلة) أن اسرائيل ذاهبة الى انخفاض حاد فى قيمتها الاستراتيجية ، بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ، لأن مصادر التهديد اقليميا ودوليا ٠ بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ، زالت أو فى طريقها الى الزوال ، ولهذا فان اسرائيل ستدخل فى أزمة مع نفسها ، لأنها لم تعد الكنز الاستراتيجى للولايات المتحدة فى المنطقة ، ومع انخفاض القيمة الاستراتيجية لاسرائيل ، فان التســوية السياسية ، ســـوف تحتل الممر الأمريكى الآمن ، الى الشرق الأوسط ٠

ولقد طال الأمر نفسه التصور الذاتى للبنية الاسرائيلية ، فتدفقت التعليقات التى تتحدث عن متغيرات عاصـــفة داخـــل هيكل المشروع الاسرائيلى ، تنزع عنه استراتيجيته التوسعية ، بعد أن تغير جوهرا ، وتحلل منطقا ، وأصبح مقيدا فى الزمان والمكان ، بالجغرافيا السياسية الجديدة ٠ وبتوازنات المصالح لا القوى ، ثم تكرر الأمر واتصل ، بشكل أكثر ســـطحية وابتذالا ، مع أفكار أكثر عمقا وخطورة كالعولمة وصراع الحضارات فقد دبجت مبكرا قصائد المديح فى نزعة المركزية الأمريكية الجديدة ، وانسحب الموقف على الموروث تجاوزا ، وعلى الوافد اندماجا ٠ على ان واحدا من المفكرين أقام جسورا ذهنية وهمية بين العلمانية العربية ، والعلمانية الاسرائيلية ، باعتبارها ســـلالم الصعود الى ســـلام الشرق الأوسط ٠ حيث يشعل العلمانيون العرب والاسرائيليون معا ، ســـيفا مشتركا ٠٠ لذبح الأصولية على الجانبين ، ثم تهدأ العاصفة ، وتستقر المصالحة ٠٠ !

ولقد بقى كل شىء فى مكانه ، شاهدا على الاخفاق الفكرى ، والعمى الاستراتيجى ، ولم يعد يصح له أن يبقى !

(د) بديهيات الساعة الرابعة والعشرين ٠

ان أحد الكتاب الاسرائيليين هو الذى كتب مؤخـــرا يقول : ان الاسرائيليين يعشقون استخدام القوة ، فهم لايفهمون القوة الكامنـــة فى نقاط الضعف ٠٠ بينما تعلمت جميع الدول الاستعمارية هذه الحقيقة » ٠ وسوف نقدم خدمة جليلة للانسانيـــة كلهـا ، اذا اســتطعنا أن نعـلم

الاسرائيليين هذه الحقيقة ، ذلك أنه فى المبارزات التاريخية من هذا الصنف ، فان النتائج النهاية لا تتوقف على مقدار ما يضغط به الطرف الأقوى ، ولكن على مقدار ما يقاوم به الطرف الأضعف • غير أن طريقنا لتحقيق ذلك لن يصبح ممهدا ، وسهلا ، الا باغلاق كافة الطرق الجانبية التى تتقاطع معه ، فكريا وعمليا :

● وليس معقولا ، ولا مقبولا ــ مثــلا ــ أن تمارس آلة الحرب الاسرائيلية ، كل هذا القدر من الموت والدمار الابداعى • ثم يهرع عدد من الباحثين ، استجابة لدعوة منظمة صهيونية للقاء فى براغ ، قبل أسبوعين ، على مائدة حوار ، طرفها المباشر شيمون بيريز نفسه ، ثم يستكمل الحوار دائرته ، بدائرة تلفزيونية مغلقة ، مع وجوه فلسطينية ، لم يسمح لها المحتل ، بالخروج من دائرة الحصار ، للمشاركة فى دائرة الحوار !

● وليس معقولا ولا مقبولا ــ مثلا ــ ان تتخذ القمــة العربيــة فى القــاهرة ، قرارا جماعيا ملزما ، باحكام درجة من درجــات المقاطعة الاقتصادية لاسرائيل ، ثم يستقبل ميناء اسرائيلى بعدها بأسبوع واحد ، وبالتحديد يوم ٢٨ أكتوبر الماضى ، سفينة عربيـــة محملة بشحنة غــاز سائل ، ثم تتبعها سفينة أخرى ، بشحنة أخرى • بعد شهر آخر • مع العلم بأن اجمالى مبادلات اسرائيل التجارية مع العالم العربى • قد وصلت فى العام الماضى الى مبلغ ٢ مليار دولار ، ومع العلم ــ أيضا ــ بأن مستثمرا عربيا واحــدا قد بلغت استثماراته المباشرة فى اسرائيــل ، مليـــار و ٣٠٠ مليون دولار •

● وليس معقولا ولا مقبولا ــ مثلا ــ ان تتفق القمة العربية على قرار بتمويل صندوقى الأقصى والانتفاضة بحوالى مليارى دولار • ثم لايسدد فى حساب هذا التمويل بالبنك الاسلامى للتنمية ، حتى نهاية الاسبوع الماضى سوى مبلغ ٢٩٢ مليون دولار • لا يصل منهم الى يد السلطة الفلسطينية سوى ٣٠ مليون دولار ، والى يد المنظمات الشعبية سوى ٨٠ مليون دولار •

● وليس معقولا ولا مقبولا ــ مثلا ــ أن تقطع دولة خليجية على نفسها وباختيارها وعدا ، بتسديد مبلغ ١٥٠ مليون دولار ، من حساب تمويل هذين الصندوقين ثم لا تسدد سوى ٣٠ مليون دولار ، بينما تنفق على زخرف احتفال موسمى ، أكثر مما قطعته على نفسه • التزاما بسداده للذين يتضورون جوعا بين براثن الحصار •

● وليس معقولا ولا مقبولا ــ مثلا ــ أن تترك لعقليــة كوبنهاجن حرية تلويث الفضاء الفــكرى العربى عبر مطبوعات قوميــة • كأن يكتب

أحد رموزها فى احدى المجلات مجملا بالكذب والخديعة ما عرضته اسرائيل ، فى مفاوضات طابا ، التى لم تدع اليها مصر ، لأنه أريد لها أن تصب فى موازين بارك الانتخابية • وكان الفلسطنيون ـ كما يقول الاسرائيليون ـ هم الذين بددوا وجود اليسار الاسرائيلى ، فى الحكم ، وهم الذين رفعوا شارون على أكتاف تشددهم الى السلطة •

وللتصحيح فقط ، فان نسبة ٩٤٪ التى قيل أن الاسرائيليين قد عرضوها للانسحاب من الضفة الغربية فى طابا ، كانت لمساحة ٨٢٪ فقط من الضفة الغربية ، بعد أن اقتطع منها ١٨٪ ثم ضمها الى القدس الشرقية ، أى أن العرض الاسرائيلى لم يكن يتضمن فى الحقيقة ، الا نسبة انسحاب لاتزيد عن ٧٨٪ من مساحة الضفة الغربية ، أى أقل من خمس مساحة فلسطين التاريخية •

وللتصحيح ـ أيضا ـ فان شيمون بيريز الذى جلسوا على ركبته فى براغ قبل أسبوعين ، هو الذى أكد بنفسه لعرفات فى لقاء مغلق قبيل الانتخابات الاسرائيلية بأن (ما ضم الى القدس من مساحة الضفة الغربية ، أصبح للقدس ، وسيظل خارج نطاق حسابات أى انسحاب من الضفة الغربية فى اى اطار اتفاق) •

● وليس معقولا ولا مقبولا ـ مثلا ـ فى ظل مواقف الادارة الأمريكية الجديدة من قضية السلام ، وبقية القضايا الاقليمية ، كما عكستها شهادة باول أمام الكونجرس بعد جولته العربية • (وقد كان يقرأ من نص مكتوب) ، أن تظل القناعة قائمة لدى عدد من الدول العربية ، للمشاركة فى (منظومة الدفاع التعاونى فى الشرق الأوسط) ، علما بأن اسرائيل ستكون طرفا اقليميا فاعلا فيها ، وعلما بأن المنظومة نفسها تشتمل على ثلاثة عناصر : ١ ـ أعمال مخابرات استراتيجية ٢ ـ انذار مشترك مبكر ٣ ـ وقاية من أسلحة الدمار الشامل ، مع العلم بأن مصر التى واجهت الحاحا « أمريكيا متواصلا » ، للاشتراك فى هذه المنظومة • واجهته برد راسخ متكرر هو : (لا ارتباط بأى ترتيبات أمنية أقليمية ، الا بعد تحقيق السلام الشامل) •

وبعد ••

يبقى أن يكون جزءا من ادراك الخطر على نحو صحيح ، ان ندرك أننا انما ندور الآن مع قارب الزمن فى الساعة الرابعة والعشرين !

٤ ـ عمى الثلج الأبيض

على الحائط كتابة بالطباشير ٠

انهم يريدون الحرب ٠

والذى كتبها ٠

قد سقط صريعا ٠٠

تشكل السطور السابقة نص قصيدة كاملة ، لشاعر غربى ، كتبها فى أوج نمو النازية الألمانية ، قبيل تقدمها لتحطيم أوربا ، واغراق ثلث الكرة الأرضية بالدم ٠

كان الشاعر يريد أن يقول ، أن الحرب ليست كالسلام ، فالسلام كالحب ، يتحقق بارادة طرفين ، أما الحرب فهى كالكراهية ، لا تحتاج الا الى ارادة طرف واحد ٠ وكان يريد أن يقول أن الحرب على هذا النحو ، حقيقة موضوعية ، وهى ككل حقيقة لابد وأن تجد من يسجلها ولو بالطباشير على حائط مهدم ، لكن معرفة الحقيقة ، لا تمنع حدوثها ، وموت من رآها جذوة متقدة ، تحت دخان الشكوك ، لا يمنعها من أن تبقى حية ، فى ادراك الأحياء من بعده ٠

(١)

فى هذا الوقت ٠ وعندما بدأت النازية الألمانية ، اندفاعتها لالتهام أوربا ، كانت أمريكا ما تزال تعلن الحياد ، حتى بعد أن ضم هتلر النمسا ، وأخرج فرنسا من منطقة الرور ، بينما كانت اجراءات بريطانيا وفرنسا لاعلان الحرب ، لا تخرج عن سياق خطاب لغوى خالص وعندما اضطرت طائرة عسكرية ألمانية للهبوط فى بلجيكا ، واعتقل من بين ركابها ، ضابط ألمانى من هيئة أركان الحرب ٠ وبحوزته خطة ألمانية كاملة ، لغزو بلجيكا وهولندا وفرنسا (وهو ما سمى باسم أولاف فيسر) ٠ لم يكن أحد فى أوربا أو أمريكا ـ كما يروى تشرشل نفسه فى مذكراته ـ يمتلك قناعة بأن ألمانيا عازمة فعلا على أن تمزق ما تبقى من معاهدة فرساى ، وأن تتقدم لالتهام أوربا ٠

كان الهاجس الذى يحكم العقل الاستراتيجى فى أوربا والولايات المتحدة معها ، أنه يمكن العمل بهدوء ، لاحتواء هتلر ، وتقييد نزعته التوسعية . وذلك بعدم اثارته على جانب ، وتركه يضم بعض الأرصفة الأوربية من حوله ، على جانب آخر ، ثم دفعه الى مائدة المفاوضات ، واغرائه بتوقيع معاهدات عدم اعتداء مع بقية جيرانه ، مساومة على ما ابتلعه بالفعل .

وعندما جلس هتلر ليوقع هذه المعاهدات ، كانت أوربا تتصور أنها نجحت فى تقييده ، بينما كانت يده اليسرى توقع على اتفاقيات ، تعرف يده اليمنى أنها ستقوم بتمزيقها بعد أسابيع قليلة .

هكذا بدأ بغزو الدانمارك ، ثم بلجيكا وهولندا ، ولكسمبورج بعد أربعة أسابيع . ولم يمر غير أسبوع آخر . حتى كان الجيش الهولندى يستسلم والفرنسى ينسحق ، والقوة النازية . تتقدم على طول تسعين كيلو مترا بين (سيدان) و (نامور) على المحور الجنوبى الغربى . لتصب حممها نارا فى قلب باريس ، بينما العالم كله يقف على أطراف أصابعه ، يتأمل جاحظ العينين ، مشهدا . بدا له ضربا من الجنون .

المدهش أن الأمر تكرر بعد ذلك على الجبهة السوفيتية ، فأمريكا التى استوعبت الدرس السابق ، أرسلت قبل الغزو بشهور ، تحذيرا لموسكو . ثم أرسلت بريطانيا التى استوعبت الدرس بدورها . تحذيرا آخر ، لكن (ستالين) ، لم ير فى التحذيرين ، الا محاذير ذاتية ، بأنها سلوك استفزازى امبريالى ، ولذلك لم يكلف نفسه ، عناء أن يأمر بتعبئة القوات السوفيتية ، ليفاجأ بعد أسابيع أخرى ، ودون مقدمات أو بيانات . باقتحام القوات الألمانية للأراضى السوفيتية . على طول الحدود الممتدة من البحر الأسود حتى بحر البلطيق ، ولذلك كان طبيعيا ، أن تتمكن القوات الألمانية ، بعد ثلاثة أسابيع فقط ، من بدأ أعمال القتال على الجبهة الروسية ، من التوغل بعمق يتراوح بين ٤٠٠ الى ٦٠٠ كم ، على جميع محاور الهجوم الرئيسية فى الأراضى السوفيتية ، بعد أن ذبحت أكثر من ثلاثة أرباع الطائرات الروسية . وهى نائمة فى مخادعها ..

(٢)

والحقيقة أن العقول الاستراتيجية فى الولايات المتحدة وأوربا والاتحاد السوفيتى ، لم تترك أسباب ما حدث . ونتائجه ، دون أن تخضعها لمراجعة متأنية وعميقة ، أمام لوحة كبيرة من الأسئلة عن ذلك

الشك الذى جعل الارادة الغربية كلها ، ومن بعدها السوفيتية ، معلقة بحسابات احتمالات ، برهنت النتائج العملية على أنها كانت مغرقة فى سوء تقدير ، ابتنت عليه سوء تخطيط ، ترتب عليه سوء تصرف ، وانتهى الى مسلسل من الكوارث المفزعة ، ثم جاءت نتائج هذه المراجعة العميقة ، التى توزعت على عدة دراسات مستفيضة ، لتثبت مجموعة مبادىء ، كان فى مقدمتها :

أولا : ان الأخطاء التى تبدو صغيرة أو تكتيكية فى تقدير حسابات احتمالات لجوء طرف الى الحرب ، تترتب عليها أخطاء جسيمة فى مجرى المواجهة العسكرية .

ثانيا : ان التراكم الكبير فى القوة العسكرية على جانب ، **يخلق لنفسه قانونا خاصا ، فى المجال الاقليمى والدولى ، ويمثل حافزا نشطا** للحرب والعدوان ، وهو لا يغوى فقط باستخدام القوة للحصول على مكاسب سياسية ، **ولكنه يعتبرها الأداة الأسرع والأسهل** ، وهو لا يعلى فقط من مفهوم **الأمن الذاتى** ، **ولكنه يحوله الى أمن مطلق** ، ولذلك فان تراكم القوة يمثل تهديدا مباشرا بغض النظر عن ارتباطه بأطماع توسعية ، **لأنه يتحول بذاته الى حقل خصب لنمو هذه الأطماع** .

ثالثا : **انه لا ينبغى اعتماد موازين القوى الاقليمية فى حساباتها** العامة ، عند وجود خصم لعدد من الدول على مستوى الاقليم ، وانما ينبغى أن **توضع موازين القوى الوطنية بشكل منفصل لكل دولة فى مواجهة** هذا الخصم ، كما أن حسابات الردع ينبغى أن تتسم بالمنهج ذاته ؛ **لأن حساب موازين القوى اقليميا هو حساب مخادع** ، طالما أن هذه الدول ليست منخرطة فى نظم من التوحد العسكرى الميدانى أو **الدفاعى** .

رابعا : عند حسابات موازين القوى فى صيغها المباشرة ، ينبغى أن يكون التركيز واضحا على طبيعة التوجه التسليحى ، **فلا يتم الخلط بين الترجيهات الدفاعية المحضة ، وتوجهات التسليح وفقا لمبادىء هجومية** واضحة .

خامسا : ان نظرية الردع لا تنجح ، دون ان تتوفر لها ثلاثة شروط أساسية :

١ ــ وجود قوة قادرة على الردع .

٢ ــ اقتناع الخصم بوجود هذه القوة وبفاعليتها .

٣ ـ وجود الاستعداد التام لاستخدام هذه القوة ٠ واقتناع الخصم بوجود هذا الاســتعداد ٠ فاذا توفرت القوة الرادعة ٠ توفرت قنـاعة وجودها عند الخصم ، وتوفرت النية لاستخدامها عند أصحابها ، ولم تتوفر لدى الخصم قناعة بتوفر النية لاستخدامها ، تصبح نظرية الردع بغير فاعلية ٠

سادسا : الربط بين العقيدة السياسية للخصم ٠ وبين عقيدته القتالية امرا بالغ الأهمية ٠ لأن العقيدة السياســية ذات التوجهـات التوسعية لا يمكن الا أن تقود عقيدة فعــالة ، مبنيــة على التوجهـات ذاتهـا ٠

سابعا : « السيناريو الأسوأ » ، قد يكون السيناريو الأضعف ، ولكنه ينبغي أن يوضع في المرتبة الأولى ، عند ترتيب الاحتمالات المضادة ٠ والحقيقة أن تعبير « السيناريو الأســوأ » ينتسب الى الاستراتيجيين الأمريكيين ، ويمكن توضيحه بمثلين أحدهما عملي والآخر نظري :

● على المســتوى الأول ، وعندما انتهت المخابرات العســكرية الاسرائيلية الى تقدير موقف ، بصدد الاحتمالات المتوقعة ٠ المترتبة على اضطرار قواتها للانسحاب من لبنان ، كان منطوق السيناريو الأسوأ الذى انتهت اليه يقول : « توتر حدود مع سوريا يتحول الى حرب » ٠

والذى حدث بالفعل أن الجيش الاسرائيلي وضع هذا السيناريو رغم أنه الأضعف ، والأقل احتمالا ، على رأس حسابات الاحتمالات ، وترجم ذلك عمليا باجراء مناورة واسعة ، لعدد من وحداته العسكرية ، لصد ومواجهة احتمال قيام سوريا بهجوم عسكرى ٠

● على المستوى الثانى ، فان أصغر قائد وحدة فرعية فى وحدات الدفاع الجوى ٠ يعرف أن « السيناريو الأسوأ »، والاضعف فى الوقت نفسه ٠ هو أن تواجه وحدته هجوما معاديا ، من جميع الاتجاهات ، وعلى جميع الارتفاعات ، ومن جميع أنواع الطائرات ٠ وباســتخدام كافة الأسلحة ، ورغم أن ذلك يصل الى حد الاستحالة العملية ، فانه يضعه بشكل صحيح على رأس « أمر القتال » ، الخاص بوحدته ٠

(٣)

ماذا أريد أن أقول ؟

● أريد أن أقول ــ أولا ــ أنه ليس لدينا ــ نحن العرب ــ عجزا عن رؤية « السيناريو الأسوأ » ، فنحن نراه فى كل مرة ، ونبصره فى كل مرحلة ، ولكننا نبالغ فى استبعاده ، والاستهانة به الى حد الازدراء ، قبل أن نفاجأ به ، يتمدد أمامنا حيا ومكتملا ٠

● وأريد أن أقول ــ ثانيا ــ أن كثيرا مما يكتب هذه الأيام ، فى هذا السياق ، سواء عن التغيرات فى اسرائيل ، أو عن التطورات فى الولايات المتحدة ٠ فى ظل ادارة جديدة ، أو عن تفاعلات الأمرين ، مع البيئة الاقليمية والدولية ، لا يمارس شــكلا من الاستهانة بالسيناريو الأسوأ ، (أو الأسود) فحسب ٠ ولكنه يعمد الى جر أبصــارنا ، الى « سيناريو أبيض » ، يشبه محيطا من الجليد ، لا تعين اطالة النظر اليه ككل محيط من الجليد ، الا لحالة من « عمى الجليد الأبيض » ٠٠

● وأريد أن أقول ــ ثالثا ــ أن هذا النوع من عمى الجليد ، قد يصنع طمأنة ، ولكنه لا يصنع طمأنينة ٠ وقد يوفر تهـدئة ، ولكنــه لا يوفر استقرارا ، وقد يهدهد الخوف ، ولكنه لا يهدد المخاوف ٠

● وأريد أن أقول ــ رابعا ــ أنني لا أستطيع أن أفهم ٠ ولا أن أتفهم فى ضوء ذلك ، أن يكرر صهيوني متعصب ، من حلفاء شارون ، مقولة ضرب السد العالى ٠ فلا تصدر عن المجتمع كله ٠ سوى اشارة صحيحة واحدة ، تنم عن فهم استراتيجى ٠ دقيق وعميق ، لما ينطوى عليه مثل هذا التهديد ، وهى الاشارة التى وردت على لسان الرئيس حسنى مبارك بقوله : (ان التهديد بضرب السد العالى ، يهىء المنطقة لاجواء حرب) ، وهو فهم كان ينبغى أن يترجم الى مفردات صحيحة ٠ بدلا من أن يكتفى متحدث يصف نفسه بأنه رسمى ، بقول مرسل يبدو خارج هذا الفهم ذاته ٠ وهو يقول : (أن مصر لا تعير مثل هذه التصريحات غير المسئولة أى اهتمام) :

ولست أفهم ــ أيضا ــ أن تنشر صحيفة مشبوهة القصد فى الخليج خبرا مدروسا ومدسوسا ، يقول ان مصر طلبت نقل قوات مصرية الى منطقة الخليج ، فيعلق هذا المتحدث بقول مرسل يبدو خارج هذا الفهم أيضا ، وهو يقول : (ان مصر لم تطلب ارسال أى قوات الى الخليج)

وهذا صحيح وأكيد ، ولكنه يضيف : (أن القوات المصرية لن تخرج من مصر الا كقوات حفظ سلام • ولفترات مؤقته) • علما بأن هذا هو القصد من وراء دس الخبر بهذه الصياغة • أن تقول مصر أنها مسئولة عن أمنها وحدودها فقط ، وليس لديها فى عقيدتها أو استراتيجيتها ، أو فهمها لدورها الاقليمى ، ما ينم عن مسئولية عن حدود الاقليم وأمنه ، بل وأن تعلن مصر بنفسها عن وفاة (اعلان دمشق) ، الذى جاهدت لتبقيه حيا ، رغم جهود أمريكية مستميتة ، لدفنه فى رمال الخليج •

● وأريد أن أقول ـ خامسا ـ اننى لم أجد فى كل ما نشرته الصحف ووسائل الاعـــلام • نموذجا تشريحيا ، أكثر تعبيرا عن حالة (عمى الثلج الأبيض) ، من مضمون مقالة نشرها الأهرام (يوم الجمعة ٢٠٠١/٢/١٦) لشخص وصف نفسه ، بأنه خبير اســتراتيجى ، وهو يحاول أن يوزع عمى الثـلج ، على المجتمع المصرى كله ، ومنظومتــه الدفاعية • **ماذا يقول المقال ؟**

(٤)

يقول المقال ، لكاتبه السيد « اللواء » فى « جمعية السلام » ، ما يلى :

أولا : ان وقوع الحرب بين اسرائيل والعرب لم يعد موضـــوعيا

(لاحظ تعبير وقوع الحرب ، فهو لا يريد ان يسند تعبير العدوان الى اسرائيل ، وكأن الحرب يمكن أن تقع من الجانب العربى) •

ولماذا لم يعد وقوع الحرب موضوعيا ؟ يجيب سيادة اللواء :

١ ـ « وقوع الحرب لم يعد موضوعيا منذ نشوء حرب أكتوبر ، وبسبب افرازات انهاء الحرب الباردة ، وتغير المفاهيم الدولية ، وولوج نظام عالمى جديد ، يفترض التكتل لتعظيم المفاهيم الاقتصادية ، ويدفع بالآليات الدبلوماسية لتكون بديلا حضاريا وهدفا بين الأطراف المتنازعة • بدلا من الصراع العسكرى كآلية » •

٢ ـ « الموقف الفلسطينى ليس أســوأ من الموقف الاسرائيــلى ، حتى لو توقفت الانتفاضة » !!

٣ ـ « الموقف العربى فى أحسن حالاته » !

٤ ــ « الموقف الأمريكى سيكون أفضل العهود الأمريكية المقبلة - فى تعاملهــا مع القضية ، للأسـباب التى ذكرت فى تحليـلات الكتب السياسية » !!

ثانيا : « ولأنه على جانب الموقف الاجتماعى والاقتصادى فى اسرائيل فانها غير قادرة على الحرب » · لماذا يا سيادة اللواء ؟

١ ــ « لأن الحرب تحتاج الى تأمين ادارى جبـار ، لكنها غـير قادرة عليه ، لأسباب تتعلق بمساحتها ، فضلا عن القدرة الاقليمية المعتادة الكبيرة » !!

٢ ــ « لأن الموقف الاجتماعى الاسرائيلى لا يقل انبعاجا عن خريطتها الجغرافية الشاذة ، حيث الاشكيناز والسفارديم ، بكل ألوانهم وجنسياتهم التى تبدو سلبياتها فى أى حرب قادمة ، وهذا الموقف ضد قرار الحرب » !!

٣ ــ « لأن الموقف الجغرافى · والتغير الحاد فى التضـاريس ، وظروف المناخ والطقس ، يؤكد عدم نجاح أى حرب اسرائيلية » !

ثالثا : « لأنه على الجانب العسكرى ، فان لدينا القوة العسكرية » · كيف يا سيادة اللواء ؟

١ ــ « لأنه يستحيل على التعبئة الاسرائيليـة اللحاق بالزيـارة العربية » ·

٢ ــ « ولأنه فيما يتعلق بالتكنولوجيا والتقنية ، فالمسـلم به أن القوات العربية عام ٢٠٠١ ليست قوات ٦٧ ، بسبب معدل الانفاق على التسليح الضخم الوارد بالدوريات العالمية ، والذى تأتى منه قوات عربية عديدة فى مراتب محترمة من حيث الحداثة فى التسليح والتقنية العالية فى كل البرامج من أسلحة ومعدات وغيرها » ·

٣ ــ « ولأننا اذا قلنا أن اسرائيل تستطيع تحقيق الحد الأدنى من التأمين الدفاعى · فانه يشك بعامل ثقة كبير ، فى تحقيق القدرة الهجومية بعد عام ٢٠٠٠ » ·

٤ ــ « ولأن العامل النووى ــ فى النهاية ــ لا يثير بالنسبة لنا ضجة كبيرة · كما تعتقد اسرائيل » ·

وفى المحصلة النهائية ، فان اسرائيـل لا تسـتطيع اتخاذ القرار الاستراتيجى العسكرى لأنها غير قادرة على الحرب · ولا يتوفر لديها غير الحد الأدنى من التأمين الدفاعى !!

(٥)

وخطورة ما نشره الأهرام ، للسيد اللواء في جمعية السـلام ، لا يتوقف فقط ، عند تأثيره المدمر وطنيا وقوميا ، ولكنه يمتد الى تأثيره الايجابي لدي اسرائيل ، التي أصبح عندها وثيقة نشرتها جريدة شبه رسمية ، بتوقيع جنرال مصرى سابق ، تؤكد مصداقية العناصر الأساسية التي تبني عليها استراتيجيتها ، في طلب الدعم العسـكرى الأمريكى ، سواء في مجال التسليح المباشر ، أو في مجالات التعاون الاستراتيجى الأخرى ، كالاستطلاع والتدريب الميدانى ، والبحوث العسكرية ٠

فاذا كانت اسرائيل لا تتوفر لديها غير القدرة على تحقيق الحد الأدنى من التأمين الدفاعى ، فان من حقها أن ترفع هذه القدرة التأمينية الدفاعية ، الى حدود أعلى ، بطلب صواريخ باترويت ، أو بمـزيد من تكنولوجيا ، تقصير فترة الانذار المبكر ، على سبيل المثال ، بل وبتوسيع مجالها الحيوى الدفاعى ٠

واذا كان هنـاك خلل كبير في قدرات التعبئة الاسرائيلية قياسـا للتعبئة العربية ، فان ذلك يتطلب تصحيحا عاجلا ، لابد وأن ينعكس على مرتبات التسليح ، وعلى نوعيته ٠ ثم اذا كانت القاعدة الصحيحة لحسابات موازين القوى بين اسرائيل منفردة ، وجاراتها العربية مجتمعة ، فانه ليس من حق اسرائيل أن تزيد من معدلات تراكم السلاح لديها بمعدلات غير مسبوقة فحسب ، بل من حقها ــ أيضا ــ أن تظل محتفظة بالسلاح النووى كخيار أخـير ٠ أمام احتمالات هجوم عربى كاسـح وشامل ٠ لا تستطيع تأمين نفسها دفاعيا في مواجهته بغير هذا الخيار ، الأمر الذى يعنى ، أن كل أولئك الذين يطالبون اسرائيل بنزع سلاحها النووى ، انما يعملون على وضع اسرائيل ، في منطق حالة عسكرية ، لا تمكنها من الدفاع عن نفسها ، وتستهدف تدميرها بالتالى ٠

ثم اذا كان السلاح النووى الاسرائيلى لا يثير بالنسبة لنا ، ضجة كبيرة ، كما يقول عمى الثلج الأبيض ، فلماذا هذا الجهد العابث ، الذى تمارسه الدبلوماسية المصرية ، في كل المحافل الدوليـة ، لفرض صيغة شرق أوسط خال من الأسلحة النووية ؟!

(٦)

أما على الجانب الثانى وهو التأثير المدمر لعمى الثلج الأبيض ، وطنيا وقوميا ، فتجدر الاشارة عابرة الى النقاط التالية :

أولا : ان التأكيد على أن وقوع الحرب موضوعيا لم يعد قائما بعد حرب أكتوبر • وبسبب أفرازات الحرب الباردة ، هو فى التحليل النهائى ، منتوج نهائى • للظاهرة نفسها ، التى تريد أن تفرض علينا ، وهى عمى الثلج الأبيض ، لأننا اذا استثنينا غزو لبنان ، واعتبرناه حريقا صغيرا ، لا يضف فى قوائم الحروب ، أو اعتبرناه سابقا على « افرازات انهاء الحرب الباردة » ، فان الاحصائيات والوثائق شبه المعتمدة دوليا ، تؤكد أن العالم قد شهد ما يساوى ١٥٨ حربا أو نزاعا منخفض الشدة أو متوسط ، منذ أن تم السعى الى تأسيس هذا النظام الدولى الجديد •

ولست أعرف حتى على مستوى الاقليم ، وعلى مستوى القوة المنفردة على قمة النظام الدولى ، ان عملية قصف ضواحى بغداد بموجات ٦ أسراب قاذفة • على امتداد مائة وثلاثين دقيقة ، كيف يمكن أن تصنف بين « تغير المفاهيم الدولية ، وتعظيم المفاهيم الاقتصادية ، والبديل الحضارى الجديد للحوار بين الأطراف المتنازعة » • وباختصار شديد ، فان الصراع بأدوات عسكرية مباشرة ، يتقدم الأن ، فوق تخوم العالم ، على كافة أدوات الصراع الأخرى ، بل ان القوة العسكرية ، آخذة فى التحول الى شكل جديد من الاستثمار الاقتصادى •

ثانيا : ان التأكيد على أن الموقف العربى فى أحسن حالاته ، والموقف الفلسطينى ليس أسوأ من الموقف الاسرائيلى ، حتى لو توقفت الانتفاضة • هو كلام ظاهرة الرحمة • وباطنة العذاب ، فعندما نقول أن الموقف العربى فى أحسن حالاته • فمعنى ذلك ان النظام الاقليمى العربى ، الذى يعانى من انقسامات حادة ، سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، ينبغى الا تمتد اليه يد الترميم والاصلاح • وعندما نقول أن الموقف الفلسطينى ، ليس أسوأ من الموقف الاسرائيلى ، حتى لو توقفت الانتفاضة ، فمعنى ذلك أن بقاء الانتفاضة أو عدم بقائها ، لا يضيف رصيدا الى الموقف الفلسطينى • فى حالة الحصار الشاملة المفروضة عليه •

ان حروف هذا الكلام بصراحة ، تتساقط • فتاتا من موائد فكرية أجنبية ، ولعل ما يدفعنى الى هذا القول فعلا هو هذا التركيز الواضح على أمرين : الموقف العربى الذى لا يحتاج الى أن يستقوى بطاقته الكامنة بعد أن وصل الى توظيف كامل طاقته بالفعل • والموقف الفلسطينى الذى لا يحتاج الى الانتفاضة • لأنها لا تضيف رصيدا اليه • وحسبى هنا أن أقترب من الرؤية الاستراتيجية الصحيحة للأمرين ، باقتباس جانب من مشهد لقاء مغلق بين الرئيس حسنى مبارك والرئيس عرفات ، عندما كانت مائدة التفاوض الأخير ، ما تزال منصوبة فى طابا •

لقد قال الرئيس مبارك للرئيس عرفات وهو يضغط على حروفه : « ان لديك مصدرين للقوة ، هما الانتفاضة الفلسطينية ، والموقف العربى • ولا ينبغى التفريط فى أى منهما » •

ثالثا : لست أعرف فى الحقيقة معنى القول بأن ظروف المناخ والطقس تؤكد عدم نجاح أى حرب اسرائيلية ، فالذى أعرفه عن يقين ان ظروف المناخ والطقس • مبرمجة فى وسائل اطلاق الصواريخ البالستيكية ، على سبيل المثال ، ولست أعرف ــ أيضا • ما اذا كان الجيش الاسرائيلى • يمكن أن يؤجل عملية عسكرية ، ترى حساباته الاستراتيجية ضرورة القيام بها ، حتى يتحسن المناخ والطقس بعد أسبوع أو أسبوعين • أم أن الأمر يتعلق بطقس ومناخ آخرين • ثم من الذى قال أن خيار اسرائيل الوحيد هو حرب طويلة المدى ، تحتاج الى تعبئة لا تقدر على دفع تكلفتها بحكم أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية • مع ذلك فاننى لا أستطيع أن أخفى اعجابى الوافر بهذا الربط الجدلى الجديد بين « انبعاج » الخريطة الجغرافية لاسرائيل ، و « انبعاج » الخريطة الاجتماعية لها • حيث ــ كما يقول المقال ــ ستبدو سلبيات اليهود الشرقيين واليهود الغربيين ، بكل ألوانهم وجنسياتهم ، فى أى حرب قادمة • وأن هذا الموقف « الانبعاجى » ، ضد قرار الحرب فهكذا تم التوصل الى نتيجة مجتهدة جديدة تماما هى ان الحرب أداة تقسيم لاسرائيل اجتماعيا ، بينما كانت القاعدة المستقرة ، على سبيل الخطأ فى العقل الاستراتيجى العربى ، أن الحرب أداة توحد لفسيفساء المجتمع الاسرائيلى ، التى هى على شاكلة ألوان الطيف بالفعل •

ان اسرائيل قد تكون بالفرض ، منقسمة فى كل عملية سلام ، لكنها باليقين متوحدة ، فى كل عملية حرب •

رابعا : يبدو القول بأن اسرائيل لا تستطيع غير تحقيق الحد الأدنى من التأمين الدفاعى • ولا تقدر على تحقيق القدرة الهجومية ، قادرا على أن يثير دوائر متصلة من الاستفهامات المدهشة • واذا تغاضينا تماما عن طبيعة الفكر الاستراتيجى ، للمؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، والذى يتوجه تلقائيا نحو ساحات القتال المستقبلية ، والحروب المقبلة ، وتجاهلنا أن اسرائيل تحتل المرتبة الخامسة فى العالم بين الدول المصدر للسلاح • وان انفاقها العسكرى ، يزيد عن ضعف اجمالى الانفاق العسكرى لدول الطوق العربية مجتمعة • فكيف لنا أن نتجاهل أو نتغاضى عن طبيعة التسليح الاسرائيلى الذى يتراكم بشكل تلقائى ــ أيضا ــ فى تشكيلات ذات نزعة هجومية واضحة • بل ان اتجاهات التحديث فى الجيش

الاسرائيلى جوا ، وبرا ، وبحرا ، جميعها ، ذات طبيعة هجومية · وليست دفاعية بالمعنى التقليدى · بأى منطق اذن يمكن أن نقول بضمير وطنى مستريح · أن الجيش الاسرائيلى · لا ينطبق عليه فقط وصفه لنفسه ، بأنه جيش الدفاع ، بل انه جيش الدفاع لتأمين تحقيق الحد الأدنى ؟ !!

خامسا : أما التأكيد على أن القوات العربية عام ٢٠٠١ ليست قوات عام ١٩٦٧ ، فهذا تأكيد صحيح · لكنه يخص بالدرجة الأولى القوات المسلحة المصرية · ومن المؤكد ان الثقة فى القوات المسلحة المصرية ، كفاءة واستعدادا قتاليا ، وقدرة على حماية مقدسات مصر ، وصون ترابها الوطنى ، هى منديل الأمان الوجدانى والنفسى للمصريين جميعا ، وهى ثقة تستقر فى ضميرهم ، فى ظروف يصعب فيها ، أن تتحول عيونهم بعيدا عن رؤية بواطن الخطر · ومظاهر الشرر ، ودخان الحريق · لكنه خارج هذا الاطار ، فان القول على سبيل العموم ، بأنه « معدل الانفاق » على التسليح الضخم عربيا ، والوارد بالدوريات العالمية ، والذى تأتى منه قوات عربية عديدة فى مراتب محترمة من حيث الحداثة فى التسليح · والتقنية العالية فى كل البرامج من أسلحة ومعدات وغيرها ، لا يتسم بالتحديد ، ولا يقدم صورة صحيحة للأوضاع فوق الأرض ·

وعلى سبيل المثال ، فان الحديث عن معدل انفاق ضخم على التسليح العربى فى الدوريات العالمية ، لا يستطيع أن ينفى أن ٥٠٪ ليس من اجمالى هذا الانفاق وحده ، وانما من اجمالى الانفاق على التسليح فى الشرق الأوسط كله · يصب فى منطقة الخليج العربى وحدها · ثم أن هذه الدوريات نفسها هى التى تقدم بنفسها ، صورة أخرى للقدرات العسكرية والأمنية الذاتية فى حدود هذه المنطقة التى تستقطب هذا الانفاق العسكرى الضخم ، وحسب هذه الصورة ـ مثلا ـ فان دولة واحدة فى الخليج تحتاج لاستكمال تأمين قدراتها الدفاعية الذاتية الى مدى قصير ، يتراوح بين ٤ الى ٥ سنوات · بينما تحتاج بقية هذه الدول الى مدى متوسط يتراوح بين ٤ أمثال و ٥ أمثال الفترات السابقة ، لاستكمال هذه القدرات الدفاعية !

(٧)

يبقى ما يتعلق بالموقف الأمريكى الذى يرى (عمى الثلج الأبيض) أنه « سيكون أفضل العهود الأمريكية المقبلة فى تعاملها مع القضية وذلك للأسباب التى ذكرت فى معظم تحليلات الكتب السياسية » ·

ولسوء الحظ أننا لا نعرف هذه الكتب السياسية التى لم تبشر فقط بمجىء ادارة بوش الابن ، ولكنها بشرت بأنها ـ أيضا ـ ستكون أفضل العهود الأمريكية فى تعاملها مع القضية ، حيث أنه ليس بمقدور أحد أن يتصور أن هذه الكتب ، تم تأليفها وطبعها واصدارها ، ومراجعتها والتأكد من سلامة تحليلاتها خلال بضعة أسابيع • لكن الأهم أن ادارة الرئيس بوش الابن ، بدأت أسابيعها الأولى بتوجهين واضحين فى الشرق الأوسط : الأول هو استخدام ستة أسراب جوية فى ضرب ضواحى بغداد دون مقدمات ، والثانى هو نقل ٤٠٠ عسكرى أمريكى مع وحدتى صواريخ باتريوت من المانيا على وجه السرعة الى اسرائيل ، أعقبها اجراء مناورة أمريكية اسرائيلية مشتركة لمدة ثلاثة أيام للتدريب على التصدى لصواريخ بالاستيكية مضادة • والأهم أيضا ، أن العملين أريد لهما أن يستبقا زيارة كولن باول الى الشرق الأوسط ، لاعطاء انطباع جازم لدول المنطقــة ، بأن كلا الأمرين متلازمين على جانب ، وانهما يشكلان قاعدة ثابتة لتوجه الولايات المتحدة تجاه المنطقة ، فهى معنية بأمن الخليج العربى ، وفق مفهومها الخاص ، وهى معنية ـ أيضا ـ بأمن اسرائيــل وفق مفهومها الخاص ، وسوف تتحرك عمليا لفرض مفهومها فى الحالتين • وبغض النظر عن نصيبه من القبول أو الرفض ، لدى دول المنطقة •

واذا كان ما نشرته « الهيرالد تريبيون » صحيحا وأن الأعداد للضربة التى وجهت الى العراق ، استغرق ٦ أسابيع ، سواء للتجهيز العسكرى ، أو لتقريب جماعات المعارضة العراقية • فمعنى ذلك أن قرار استخدام القــوة من جانب الادارة الجديدة • قد تم والرئيس الجـديد ، مازال مشحونا بخطاب تنصيبه الرئاسى •

والحقيقة اننى لست من أنصار أن الضربة الأمريكية ضد العراق • انما كانت اشارة واضحة الى أن بوش الابن • يريد أن يثبت أنه حاكم قوى فى مجتمع يرى فيه شكلا من الضعف ، أو أنها كانت دفاعا عن مصالح شخصية ضيقة • مثل مشاركة بوش الأب • برأسمال قدره ٢٠٠ مليون دولار فى شركة بترولية خليجية أمريكية مشتركة • فالسياسة الخارجية الأمريكية ، توضع فى اطار مبادىء الأمن القومى الأمريكى ، وتنفذ وفق هذه المبادىء ، لتحقيق استراتيجية لا تنفرد بهـــا ادارة • ولا تختص برئيس • ان علينا أن نلاحظ أن الادارة الأمريكية الجديدة ، التى بادرت بالغاء خطة كلينتون للسلام كى تحل نفسها من أى التزامات سياسية قد تترتب على بعض بنودها تجاه الفلسطينيين ، لم تحل نفسها من التزامات كلينتون العسكرية بمنح اسرائيل معونة عسكرية اضافية هذا العام قدرها ٤٠٠ مليون دولار • وبرفع المعونة الأمريكية العسكرية

لها من ٢ مليار دولار ، الى ٢ر٨ مليار دولار على امتداد ١٠ سنوات ٠ أى أن اسرائيل بمواقفها الراهنة ٠ ومذابحها الجارية ، سوف تحصل من الادارة الجديدة على معونة عسكرية هذا العام ، قدرها ٢٥٠٠ مليون دولار ٠

لذلك ــ أيضا ــ فاننى لست من أنصار اعتماد فكرة المساومة الأمريكية بالعراق على حساب القضية الفلسطينية ، أى أن خلق اجماع استراتيجى اقليمى ضد العراق ، هو الثمن المطلوب أمريكيا ٠ لتحريك عملية السلام ، أو أن الغرض تنفيذ الاتفاقيات التى وقعت اسرائيل ٠ فأمريكا فيما أحسب ، تريد صفقة كاملة من المنطقة ٠ ولكنها لا تريدها محصلة جمع جبرى لأطرافها ، وانما محصلة طرح جبرى من كافة الاستحقاقات العربية ، هنا وهناك ٠٠ (وهذا ما يستحق وقفة مستقلة فى مقال قادم) ٠

(٨)

لست أعرف ما اذا كان السيد اللواء الذى حاول أن يوزع علينا ، (عمى الثلج الأبيض) ، أو حبوب الاسترخاء ، قد سافر مع وفد من جماعة كوبنهاجن ، لدائرة اتصال جديدة مع الاسرائيليين حول مائدة حوار تعقد هذه الأيام فى (براغ) ، أم أنه سافر بصحبة وفد من جمعية القاهرة للسلام ومجلس العلاقات الخارجية الى دائرة اتصال أخرى ، حول مائدة حوار آخر تعقد فى عمان وتشارك فيها جامعة تل أبيب ، ومعهد جافي ، والجامعة العبرية فى القدس ، لكننى أعرف ان دوائر الاتصال التى التحمت مؤخرا ومجددا بين فلول كوبنهاجن وجمعية السلام ، بعد صعود شارون الى سدة الحكم فى اسرائيل ، تتم بتمويل كامل وتحت رعاية مباشرة من منظمات صهيونية دولية ٠

ثم اننى أعرف أيضا أن الغبار الملوث الذى يتناثر من هذه الموائد ٠ والمنخرطين فيها ، والذين يقدمون لهم يد الدعم والتأييد فى مصر ، هو المسئول الأول عن محاولة اصابة المصريين بأعراض مرض (عمى الثلج الأبيض) !!

٥ ـ رأس جسر (شارون) الجديد
الفتال قد يكون هناك ،
لكن الحرب ستجرى هنا ٠٠

لا أجد تفسيرا لتلك الحالة الاسرائيليـــة التى حولت ظهور الاسرائيليين ، الى جسور ، صعد عليها شارون ، بدبابته المتهالكة ، الى رئاسة الوزارة الاسرائيليـــة ، سوى فى أنها تعبير عن أزمة ، ولا أجد توصيفا لهذه الأزمة الاسرائيلية ، سوى فى أنها (أزمة معنى) ٠ ثم أننى لا أجد شرحا أكثر تبسيطا لمعنى (أزمة المعنى) من هذه القصيدة التى كتبها الشــاعر الألمانى الكبير (بروتولد برخت) ، وأسماهــا (البغى ايفيلين رو) ٠ وملخص القصيدة ، أن السيدة ايفلين ، أدركت روحها ، قشعريرة النهــاية ، فقررت أن تتطهر من آثامهــا ، بالذهــاب الى قبر المسيح ٠ وحين توجهت الى أقرب ميناء عرضت نفسها على أقرب سفينة ٠ وقدمت جسدها ، ثمنا لتذكرة الرحلة الى قبر المسيح ٠

وعلى خشب السفينة البارد المبتل ، حصد جميع البحارة ، ما تبقى من زهور الحياة ، فى جسد ايفيلين وهى تهتف : من أجلك يا يسوع ٠ وحين فاضت روحها ، وألقوا بجسدها فى البحر ، صعدت روحها الى السماء ، وتوجهت الى الجنة ، لكن حارس الجنة منعها من الدخول ، ثم توجهت الى النار ، ولكن حارس النار ، منعها بدوره ، من الدخول ، وهكذا ظلت روحها شريدة فى الفضـــاء الى الأبد ، معلقـــة بين السماء والأرض ، وبين الجنة والنار ٠٠

(١)

هل أريد أن أقول على هذا النحو ، أن (أزمة المعنى) فى اسرائيل، مصدرها أنها ، لا تقدر على أن تعيش فى النار ، أى فى حرب دائمة ٠ بحسابات التكلفة ، ولا تقدر على أن تعيش فى الجنة ، أى فى سلام دائم ، بحسابات مكونات بنيتها ، وأنها ســتظل بالتالى ، الى الأبد ، تراوح بين الجنة والنار ، أو بين الحرب والسلام ٠ أم أن (أزمة المعنى)

في اسرائيل ، مصدرها أنها تعيش على الأرض ، وترفض أن تكون كائنا ارضيا ، تنطبق عليه قوانين البشرية ، وأنها لا تعيش في السماء ، وتصر على أنها كائن سماوى ، لا تنطبق عليـه سوى القوانين الالهية ، التى تنسبها بنفسها الى الرب • أم أن لأزمة المعنى وجوها أخـرى • تتعـلق ـ مثلا ـ بأنها تعيش فى الشرق الأوسط ، ولا تريد أن تنتمى اليه ، فهى تصر على أنها الشمال فى الجنوب ، والغرب فى الشرق ، والاستثناء فى القاعدة ، والجيتو المنغلق فى المحيط المفتوح •

ان كل ذلك قد يكون صحيحا ، فأزمة المعنى ، قديمة قدم اسرائيل نفسـها ، بل قدم الصهيونيـة قبلها ، فعنـدما جلس قـادة المنظمات الصهيونية عام ١٩٤٨ ليتفقوا على الأساس الذى تقوم عليه الدولة ، لم يجدوا حلا لاحتدام الخلاف بينهم ،غير أن يلحقوا أساس الدولة الوليدة بتعبير محدد هو (صخرة اسرائيل) ، ليصبح لمن يشاء منهم أن يفسره بما يشاء ، سواء أكانت مرجعية الدولة عندهم هى الله ، أو كانت التراث اليهودى ، أو التوسع والأمن •

لكن أوضح أسباب (أزمة المعنى) فى اسرائيـل الآن ، كما أعتقد هو ذلك اليقين الذى تسرب الى الروح الاسرائيلية ، بأنها لا تستطيع أن تفرض ارادتها كاملة لا على الفلسطينيين ، ولا على الشرق الأوسط • بينما يصر عقلها التاريخى على رفض القبول بهذا اليقين ، فهى لا تستطيع أن تتحمل ثمن قبولها ، ولا تستطيع أن تفى بشروط رفضها ، ولهذا فان صعود شارون الى قمة السلطة ، بارادة أغلبية اسرائيليه ، ليس تعبيرا عن مشكلة حالة جديدة فى اسرائيل ، ولكنه تعبير عن مشكلة مستعصية تجدد نفسها ، تحت اسم ثابت هو اسرائيل •

(٢)

مع ذلك فاننا للأسف الشـديد ، نواجه بتقديرات وتفسيرات اعلاميـة غالبة ، لا تعين على فهم صحيح لما حدث فى اسرائيل ، ولا على تفسير صحيح له ، ولا تقود بالتالى الى استبصار نتائجه ، ومخاطره المحدقة بالأمن القومى والاقليمى ، قبل الحقوق الفلسطينية • وكأنه مقابل أن يطمئن المجتمع الاسرائيلى نفسه ، بأن يضع شاون رأسا له ، فان على المجتمع العربى ، أن يطمئن نفسه ، بأن يرى رأس اسرائيل ، مجرد قناع مستعار من الجبس ، مؤقت وعابر ، ولا ينبغى أن يخيف أحدا ••

● من بين أهم هذه التقديرات الاعلامية المضللة ، تلك التى تحاول أن توزع قناعة زائفة ، بأن الليكود يستطيع أكثر من حزب العمل ، أن يتحمل انجاز مصالحة تاريخية فى المنطقة ، لأن الليكود بقيادة مناحيم بيجن ، هو الذى أنجز مع مصر اتفاقية كامب ديفيد · ولهذا فان مصادرة امكانية الوصول الى تسوية سياسية ، من خلال حكومة يقودها الليكود · حتى لو كان على رأسها شارون ، لا يستند الى حقيقة قدرات الليكود ، وتأثيره داخل الأوساط اليمينية الاسرائيلية ، ودفعها الى طريق السلام ، مثلما فعل بيجن ، أو كما يردد كورس السلام ، برتابة اسرائيلية : « ان العمل ينجرف وراء الليكود فى السلام ، والليكود ينجرف وراء العمل فى الحرب » ·

ومثل هذه التقديرات لا تعمد الى الخلط بين حالتين غير متماثلتين فقط ، ولا تنزع ركاما ثقيلا من المتغيرات ، لتفسر اللحظة الحاضرة ، بلحظة ماضية ، فحسب ، ولكنها تعجز عن الامساك ، بالعنصر ، الأكثر ثباتا ، وأبعد مدى ، على الخارطة السياسية والاجتماعية الاسرائيلية ، وهى تحرك البناء السياسى والاجتماعى الاسرائيلى بخطى ثابتة نحو مواقع أكثر يمينية وعنصرية ، أو نحو « صهيونية جديدة » ، أظن ان اسرائيليات مخلصا ، هو (أبا ايبان) كان أول من تنبه اليها ، وحذر منها ، وقدر أنها « ستدفع اسرائيل الى حتفها » ·

● ومن بين أهم تلك التقديرات الاعلامية المضلة ، تلك التى تسعى الى تخفيض درجة الاحساس العربى بالخطر تجاه ما يمثله صعود شارون · وحسبما كتب أحد رؤساء تحرير الصحف المصرية فان : « مجىء شارون الى منصب رئاسة الوزارة فى اسرائيل لا ينطوى على خطر غير مسبوق » · و « مجىء شارون ليس فيه ما هو غير مأموف » ·

حسبما كتب رئيس تحرير آخر ، فان « شاون مجرد حاكم عابر فى ظروف عابرة » · أو حسبما كتب ثالث فان « مجىء شارون ينبغى ألا يخيفنا ، لأنه كسابقه ولاحقه من حيث الجوهر » ·

والمدهش — أولا — أن أكثر الذين فتحوا شرفة للأمل فى معسكر السلام فى اسرائيل ، وروجوا لنظرية الحمائم والصقور ، هم الأعلى صوتا ، فى محاولة اقناعنا بأن الوجوه واحدة ، والتوجه واحد ، وأنه لا جديد تحت شمس اسرائيل ·

والمدهش — ثانيا — ان أولئك الذين يريدون بث الطمأنة فينا ، بالتأكيد على أن شارون سيكون مقيدا بعوامل دولية ، تستهدف التهدئة،

يتحركون ، عمليا ضد عملية (تقييد شارون) التى تتطاب اقناع هذه العوامل الدولية ، بمدى المخاطر التي يمثلها وصوله الى الحكم ، وانعكاساتها أفقيا فوق [illegible] أى أنهم يساهمون فى تحرير شارون ·

والمدهش ــ ثالثا ــ ان [illegible] الرؤية كلها تخفيضا للاحساس العربى بالخطر ، أو ترويجا للعوامل الدولية ، التى ستعمد الى تقييد شارون ، تبدو عاجزة عن أن تمسك بالعناصر الجديدة ، فوق الخريطة الدولية ، سواء فى استراتيجية الادارة الأمريكية الجديدة ، وفى انعكاساتها المباشرة على « تقييد أوربا » ، لا « تقييد شارون » · ودون دخول فى تفاصيل ، لا يسعها هذا الحيز ، فان الادارة الأمريكية الجديدة ، والحكومة الاسرائيلية الجديدة ، تبدوان لى أكثر توافقا ، سواء من حيث مصادرهما فى المجتمع الأمريكى والاسرائيلى ، فاحداهما تمثل (نخبة القوة) فى الولايات المتحدة ، والثانية تمثل (نخبة القوة) فى اسرائيل ، أو سواء من حيث وضع كل منها لمفهوم الأمن ، كأولوية فى رؤيته الاستراتيجية · بل ان التغيرات التى تلحق بمفهوم الأمن عند الطرفين تكاد أن تكون متقارنة ، فمفهوم الأمن فى استراتيجية الادارة الأمريكية الجديدة ، أكثر تعبيرا عن الانتقال من التوازن النسبى للردع ، الى الأمن المطلق · وفى ضوء ذلك ينبغى فهم تصريح بوش الابن ، المدوى : (أمن اسرائيل هو أساس عملية التسوية) ·

(٣)

المشكلة فى أن أولئك الذين جاهدوا ، لاقناعنا ان حزب العمل غير الليكود ، وأن اليسار الاسرائيلى غير اليمين ، وأن جماعات السلام ، مارقة على الأيديولوجية الصهيونية ، هم أنفسهم الذين يريدون أن يقنعونا الآن ، أن شارون لا يختلف عن باراك ، وأن باراك لا يختلف عن رابين ، وكأننا سنقيم السلام ، مع شخص رئيس وزراء اسرائيل ، لا مع الشعب الاسرائيلى ، أو سنقيمه مع بعض الذين يقيمون فى اسرائيل ، مثل عرب ٤٨ أو حزب ميرتس ، مثلا ، وليس مع المجتمع الاسرائيلى ، الذى قال بأغلبية واضحة : لا نريد السلام ·

ثم ان تعليق السلام كله ، على أن شارون هو رئيس وزراء عابر فى ظروف عابرة ، يعنى أن المهمة الأساسية التى ينبغى أن نلقيها على عاتقنا هى ــ على حد تعبير كبير المفاوضين الفلسطينيين ــ أن نجعل شارون ، فترة انتقالية ، أو كما كتب غيره يقول : « لن يمر وقت طويل

حتى نجد انتخابات جديدة فى اسرائيل ، ويأتى شريك اسرائيلى يدرك تماما فشل المراهنة على خيار شارون ، ويقبل بالسلام العادل » ، أو على شاكلة تلك الكتابات التى ما تزال تعيش فى عقليـة كوبنهـاجن ، وترى أن مهمة القيادة الفلسطينية ، هى « التأثير على المجتمع الاسرائيلى ، بمساعدته على بلورة أوضاع مواتية لصعود قوى الاعتدال الى الحـكم » . وهكذا فان علينـا أما أن نجلس على محطـة الوقت فى انتظار وصول (جودو) الاسرائيلى ، الذى سيمنحنا سلاما عادلا ، وإما أن نناضل لنجعل شارون فترة انتقالية . أى أن مهمتنـا أن نغير فى اسرائيل ، لا أن نغير فى أنفسنا ، وهى ذاتها الفكرة العقيمة التى أنجبت جماعة كوبنهاجن ، تحت تصور تغيير اسرائيل بتقوية مركز الحمائم فيها . أو وجود امكانية للعب فى الطبق السياسى الاسرائيلى ، وهى محاولة سرعان ما ارتدت الينا ، تأثيرا اسرائيليا عابثا يلعب فى بعض صحفنا ومراكز أبحاثنا الاستراتيجية .

ومن خلال المنهج نفسه يوضع شارون بين خيارين ، أما أن يشكل حكومة من الأحزاب الدينية المتطرفة ، تجىء هشة ولا تدوم حتى سبتمبر القادم ، وأما أن يشكل حكومة وحدة وطنية ، رغم ثباتها فانها ستكون أكثر قدرة على تقييد خطى شارون .

وقد يكون شارون وفق الخيار الأول ، رئيس وزراء عابر ، ولكنه لا يعبر فى حالة اسرائيلية عابرة ، وقد تكون وزارته بالغة الهشاشة . وتفتح الباب أمام انتخابات اسرائيلية جديدة بعد شهور قليلة ، ومن الممكن أيضـا ، ألا يكون شارون فى سبتمبر القـادم هو رئيس هذه الحكومة ، لكن الأغلب فى هذه الحالة ، اننا سنواجه أيضا من جـديد . أما تصور أن شارون سيكون مقيدا بثلاثة وزراء من حزب العمل ، أو سيكون مقيدا بموقف أوربى من مصلحته أن يلعب دورا فى صياغة أوضاع المنطقة ، أو بموقف أمريكى تعنيه التهدئة من أجـل البترول ، فانه تصور ليس أقل عقما ، من الرهان عليه .

ان سلسلة طويلة من الرهانات الخاسرة ، قد أن لها أن تنتهى ، من الرهان على تقييد شارون الى الرهان على تغيير اسرائيل ، الى الرهان على موقف أوربى فاعل أو موقف أمريكى عادل ، فكل الرهانات قد باءت بالفشل ، لأن مشروع السـلام قد سقط استراتيجيا بالفعل ، ولم يبق غير رهان واحد فى أيدينا ، هو رهاننا على أنفسنا ، وعلى قوتنا وقدراتنا، فلم تعد مهمتنا الممكنة أن نغير فى اسرائيل ، أو فى أمريكا ، أو فى أوربا ، وانما أن نغير فى أنفسنا .

(٤)

وحتى فى حدود هذه الصورة الشخصية التى توزع اعلاميا لشارون ، فانها لا تركز الا على بعد واحد صحيح ، من ملامحه • فهو الجنرال الافاق ، المغامر الذى يعشق السباحة فى برك الدم ، قاتل الأسرى والجرحى ، ماكينة الدمار المنفلتة من الضوابط والقيود • كل ذلك مؤكد وصحيح ، لكن غير المؤكد وغير الصحيح ، ما قاله شامير عنه ، احتفاءا بنجاحه قبل أيام من أنه (أفضل عقلية عسكرية فى تاريخ الجيش الاسرائيلى) ، لأن كل أعماله العسكرية من عملية اقتحام بيروت الى عملية ثغرة الدفرسوار ، لا تمثل ابتكارا عسكريا ، بقدر ما تمثل مغامرة غير محسوبة على جانب ونقلا نمطيا عن العقيدة العسكرية النازية على الجانب الآخر • (وقد برهنت على ذلك فى دراسة موسعة عن ثغرة الدفرسوار لا يراد لها أن ترى النور) •

لكن ذلك كله لا يعنى أمرين :

الأول : أنه لايمتلك الا سكينا للذبح ، وليس لديه رؤية استراتيجية أوسع مدى من حدود اسرائيل •

الثانى : انه لاينتسب بشكل كامل وعضوى الى المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، وأدبياتها ، وعقيدتها القتالية ، وثقافتها الاستراتيجية •

على الجانب الأول • فان تلك الدراسة الشهيرة التى كتبها (عاموس لينان) تحت عنوان (رحلة فى أعماق عقل شارون) ، قد تعد أفضل تلخيص لرؤيته الاستراتيجية ، وهو القائل على لسانه : « •• ان اسرائيل طورت أحد أنجح الجيوش الهجومية فى العالم ، فجيش الدفاع الاسرائيلى من بين أكثر آلات الحرب قوة فى العالم ، أو ليس من الهدر ان نستخدم هذه الثروة الغالية ، من أجل القيام ، من وقت لآخر ، من أجل اشعال سيجارة ، لماذا لا نستخدم جيش الدفاع فى أرجاء الشرق الأوسط بعمليات تأديبية صغيرة ، ان هذا شىء مضحك يشبه استغلال بئر نفطية ، لأن الشرق الأوسط الذى لا يعدو كونه منطقة خواء سياسى كبيرة واحدة ، منطقة مباحة ، ليس فيها أية قوة حقيقية ، عند ذلك ستصبح اسرائيل عاصمة حلف الأطلنطى ، لأن تل أبيب ستكون الحليف الوحيد للولايات المتحدة التى ستقود ذلك النمر الناهض بفضل مساعدتها على الوقوف على أرجله الأربع » •

أما على الجانب الثانى ، واذا وظفنا تعريف مفكر استراتيجى بارز هو (جيران شاليان) للثقافة الاستراتيجية ، لشعب من الشعوب ،

بأنها « التعبير في زمن معين عن الذاكـــرة العســكرية » • فان الذاكرة العسكرية الاسرائيلية ، لا تشكل طبيعة الفكر الاستراتيجى لشارون وحده ، وانما تشكل طبيعة هذا الفكر الاستراتيجى الذى يحتـل عقـل المؤسسة العسكرية الاسرائيلية كلها •

ان الثقافة العسـكرية الأمريكية ، قد حددت نفسهـا - مثلا - بقوالب ذاكرتها العسكرية فى القرنين الثامن والتاسع عشر ، حيث لم يصادف الأمريكيون ، خصما لقدراتهم العسكرية ، لا الهنود الحمر ، ولا الكنديين ، ولا المكسيكيين ، ولهذا فانهم أمنوا بأن يكسبوا معاركهم بنصر مطلق من حربهم ضد أسبانيا (١٨٨٩) الى الحرب العالمية الأولى (١٩١٧) الى الحرب العالمية الثانية (١٩٤٢) ، ولهذا أيضا ، خانتهم ثقافتهم العسكرية فى حربى كوريا وفيتنام ، حينما واجهوا أوضاعا مختلفة عن تلك التى شكلت طبيعة فكرهم الاستراتيجى •

وفى ضوء ذلك ، فان المعتقدات الاسرائيلية التى شكلت طبيعة الفكر الاستراتيجى الاسرائيلى فى مفهوم (نخبة القوة) الاسرائيلية ، هى نفسها المعتقدات الأساسية التى تشكل طبيعة التفكير الاستراتيجى فى عقـل شارون • وهذه المبادىء التى تنتسب الى المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، الحاكم الحقيقى والفعلى لاسرائيل ، والتى ستمثل محددات خيـــارات شارون وسلوكه فى الفترة القادمة هى - مستخلصة من الدراسة القيمة للدكتورة ايمان حمدى - على النحو التالى :

- الأسبقية للردع على الاقناع •
- الأولوية للقوة على الحوار •
- الأفضلية للتشدد على المرونة •
- الفاعلية للسلوك العملى ، لا للسياسة الدولية •
- الأهمية فى الأمن للأوضاع فوق الأرض ، وللقـــدرة على الدفـاع عنها • لا للضمانات الدولية •

(٥)

ان اسرائيل فى النهاية لم تختر شارون دفعا للملل ، ولم تمنحه أصواتها ، قرفا من بارك ، لكنها اختــارته لأسباب أعمق ، تستوجب فهما أدق :

١ ـ لقد كتبت فى الاسبوع الأول من شـــهر يونيو الماضى ، ما أبدو مضطرا لأن أعيده بالحرف الواحد :

« ينبغى أن يكون واضحا لأولئك الذين تصـــوروا ان الانسحاب الاسرائيلى من جنوب لبنان ـ وهو ثمرة مؤكدة للمقاومة اللبنانية الباسلة ـ هو اجراء مستقل من جانب اسرائيل عن مجمل عملية اعادة بناء خريطة استراتيجية جديدة للمنطقة ، ان عليهم ان يراجعوا عدة نقاط ، تبدأ بتوظيف اسرائيل للانسحاب وفقا لقرار الأمم المتحـدة (٤٢٥) بغيـــة اضفاء المشروعية الدولية الكاملة عليها ، وقد حصدت هذا المسعى فعليا بعد ساعات من انسحابها ، بموافقة الأمم المتحدة على اعتبارها عضوا فى المجموعة الأوربية بعد ان ظلت خارج سقف كل المجموعات الجغرافية بها طوال خمسين عاما ، وعليهم ان يراجعوا كذلك ، انعكاس ذلك على الحالة الاسرائيلية ، الداخلية ، وعلى الجمهور الاسرائيلى الذى أصبح على حد تعبير (زئيف تشيت) لايتطلب الآن الحاحا للانســـحاب من الجولان ، لا من طبريا ومياهها ، وعليهم ان يراجعوا كذلك اسـتعداد اسرائيـــل لاستخدام ما أطلق عليه (رون بن بشاى) استراتيجية الردع الجارف ، اذا ما حدثت مواجهات فى غزة والضفة الغربية .

٢ ـ وقد أضفت فى التوقيت نفســه ، ثلاثة أمور ينبغى التنبه اليهـــا :

● اننا بصدد مفصل تحول فى أوضـــاع الاقليم عنوانه الصحيح هو : انقلاب استراتيجى كامل ، يجرى انضاج عوامله ، وسيتم فرضها بالقوة ، وهو انقلاب لايطول المنطقة العربية وحـدها ، لكنـه يمتد كالســـحابة الســـوداء ، عن امتداداتهـــا الآسيوية ، وتخومها الافريقية .

● جزء من التحول أو الانقلاب الاستراتيجى فى أوضـــاع الاقليم ، موصول بحقيقة ينبغى أن تحظى بادراك أوســع ، وهى أن مشروع السلام فى الشرق الأوســـط ، قد ســقط استراتيجيا ، وان بقى لبعض الوقت ينازع فى مكانه .

● جزء من مظهر هذا التحول لاعادة بنـــاء الاقليـــم ، يمكن تسميته (مقلوب حرب الخليج) ، حيث تتطلب الأزمة الاقتصادية العالمية ، الاندفاع نحو أشكال من التسويات الناقصـــة ، كان المفروض ان تتحمل اسرائيل جانبا كبيرا من تكلفتها السياسية ، ولكنها أبت أن

تضيف الى أعبائها انسحابها من جنوب لبنان ، أية أعباء اضافية ملموسة جديدة ، وهذه التسويات الناقصة ، تحظى بدعم وقبول أمريكي كامل ، وهى بدورها جزء من استراتيجية كاملة ، سوف يكون همها حفظ الأمن وفق مفهوم هذه التسويات وحدودها ، وفى اطار تهدئة اقليمية عامة ، وكان ملخص ذلك تعبيرا عن المطلوب تحقيقه هو : (تسوية بغير سلام • وتهدئة بغير استقرار) •

٣ ـ هكذا جرى حمـل الفلسطينيين الى كامب ديفيد ، تحت وهم حسابات خاطئه تستند الى أمرين :

تعهدته اقليمية عامة ، وكان ملخص ذلك تعبيرا عن المطلوب تحقيق

الأول : أنه لم يبق بعد تقشير اللحم الفلسطينى مراحل سابقة ، الا أن يسـلم الفلسطينيون . تحت ضـغوط هائلة مـن الاكراه • السياسى ، ما تبقى من هيكلهم العظمى ، فيقبلوا بتقسيم القدس الشرقية ، دون سـيادة على المسجد الأقصى ، ويعطوا الحى الأرمنى ، والحى اليهودى ، وقلب القدس القديمـة للاسرائيليين ، ثم يتنازلون عن حق العودة ، مقابل حفنة نقود ، وعودة رمزية تحت اسم لم شمل العائلات •

الثانى : ان مصر التى ظلت تمثل تاريخيا ، مصدر الامدادات وراس الأفعى ، لديها فى نفسها ، ما يشغلها عن غيرها ، فهى منشغلة بأوضاعها الاقتصادية الصعبة ، على جانب ، وبتفاعلات هذه الأوضاع فى بنيتهـا الاجتماعية والسياسية على جانب آخر ، اضافة الى تلك الألغام التى ثبت فى أرضها تطرفا وطائفية ، وفوق ذلك كله ، معاول الهدم التى استهدفت عقلها الوطنى ، وفرضت الحصار على خلاياه الحية ، تارة باسـم ثقافة السلام ، وتارة باسم الاعتراف بالآخـر ، وتارة باسم قطعات التمويل الأجنبى ، تحت شـعار المجتمع المدنى ، ثم بقية عوامل التعرية ، التى كشطت من حليبها زبدة الثقافة العربية الرصينة • وخلطته بماء فاسد • فأضحى تجريدا فى الفن ، وتجريدا فى المسرح ، وابتزالا فى السينما ، وسطحية غالبة فى الكتاب والاعلام •

٤ ـ ثم ظهر جليا خطأ الحسابات كلها على الجانبين ، فلم يسلم الفلسطينيون أنفسهم ولا هيكلهم العظمى ، بل واجهوا بصدورهم العارية ، آلة الحرب الاسرائيلية غضبا ورفضا ، ولم تنحن مصر ، وتدخل فى شرنقة ذاتها وأوضاعها ، بل وقفت حائط صمود صلد ، فى مواجهة ضغوط لايعـلم كثيرون أنهـا كانت على شاكلة تلك النظرية التى اختـارها

الاسرائيليون لعملياتهم العسكرية ضد الانتفاضة الفلسطينية ، وأطلقوا عليها اسم الردع الجارف .

٥ ـ لا أستطيع أن أتجاوز على نقطة تبدو لى بالغة الأهمية ، تتعلق بالموقف المصرى ، خلال الفصول الدامية على الساحة الفلسطينية ، عن الشهور الأخيرة ، وسوف يصدقنى كثيرون ، حين أؤكد بضمير مستريح ، أن الرئيس حسنى مبارك قد لعب دورا يصعب وصفه بغير أنه تاريخى ، سواء فى تعبئة عوامل الصمود الفلسطينى والعربى ، أو فى الحفاظ على الحقوق الفلسطينية ، لو قدر للمصريين ، أن يراجعوا نصوص التسجيلات التى لم تذع للقاءات الرئيس مع المسؤلين الاسرائيليين والأمريكيين ، خلال مفاصل حاسمة فى المواجهة ، لأشرقت وجوههم كبرياءا وطنيا ، وزهوا قوميـــا .

٦ ـ هكذا تأكد الاسرائيليون أن مشروع السلام قد وصـــل الى صخرة لاتشق بالأساليب التقليدية ، سواء بالنسبة للقدس أو بالنسبة لحق العودة للاجئين الفلسطينيين ، وهى صـــخرة لاتقبل القســمة . وتأكد لهم أن مصر ، لم تتزحزح عن دورها ، ورسالتها ، وهكذا انسحبوا انسحابهم غير المنظم الى الجيتو مرة ثانية ، وهم يواصلون اطلاق النار ، ثم استحضروا شـارون من متحف المؤسسة العسكرية الاسرائيليـــة ، ليستكمل المهمة التى لم تنجح ، والهدف الذى لم يتحقق ، وليضع نفسه رأس جسر جديد ، لمرحلة اسرائيلية جديدة ، واقليمية جديدة أيضا .

(٦)

ماذا سيحمله رأس جسر شـــارون الجديد للفلسطينيين ولنـــا وللأقليـــم ؟

ويبدو أن رسم خريطة دقيقة لطبيعـة التحركات الاسرائيلية فوق رأس الجسر الجديد ، بقيادة شارون ، أمر يتسم بالصعوبة ، اضافة الى أنه يحتاج الى تفصيل فوق (تختة رمل) ، لاصفحات جريدة ، غير ان الاتجاهات الاسرائيلية لهذا التحـــرك لن تكون بعيدة عن التوقعـــات التـــالية :

أولا : المطلوب من التحركات الاسرائيلية فوق رأس الجسر الجديد ، ليس اقناع الاسرائيليين ، بالقدرة على توفير الحماية والأمن ، لأن الأمن المطلق خارج الطاقة والقدرة ، ولكن المطلوب هو اعادة المصداقية

الى ستراتيجيــــة الردع الاسرائيلية ، التى جرحتهــا أحجــار الصبية الفلسطينيين ، وتدنت بوظيفة الجيش الاسرائيلى ، الذى يعتبر نفســه الأقوى والأحداث ، الى مستوى مذل ، فى مواجهـــات ميدانية مع مدنيين عزل ، قوامهم الأساسى ، صبية صغار ، أسلحتهم حناجر وأحجار ٠

ثانيا : والمطلوب من التحركات الاسرائيلية فوق رأس الجسر الجديد ليس اقناع الاسرائيليين ، بأن القوة ينبغى أن تسبق الاقناع والحوار ، فتلك بديهية فى العقل الجمعى الاسرائيلى ، ولكن اقنــاع الفلسطينيين والعرب ، أن القوة هى اداة الاقناع ، وهى سبيل الحوار ، وطاقة دفعه الى شــاطئه المأمول ٠

ثالثا : والمطلوب من التحركات الاسرائيلية فوق رأس الجسر هو وضع الأحجار والسدود ، بشكل عملى ، أمام امكانية أى سلام ، قد يبدو عادلا أو متوازنا فى المستقبل ٠ وسوف ينصرف هذا الجهد عمليا ، الى القيام بجراحات جغرافيـــة وديموجرافيـــة ، عميقة فى جسم القدس والضفة ، لكى يصبح الاحتلال الاسرائيلى ، قدرا ثابتـــا ، لاتأخذ منــه عاديات الزمن ، ولا يغيره ، تراكم الفصول ، وتعدد الوجوه ٠

رابعا : والمطلوب من التحركات الاسرائيليــــة فوق رأس الجسر الجديد ، ان يظل السلام ، طلبا مؤجلا لسنوات قادمة ، فمطلب ايقـاف الانتفاضة له الأولوية المطلقة ، ثم بعد ذلك يجىء دور التفاوض من جديد ، وصولا الى اتفاقيات موقته ، ثم الى اتفاقيات مرحلية ، ليتم البحث بعدها عن اطار تسوية ، ثم برنامجا زمنيا للاطار ٠٠ وهكذا ٠ لتمضى عشر سنوات أخرى عزيزة وغالية ، وتتكفل خلالها التحركات الاسرائيلية والأمريكية فوق جسور أخرى ، بأن تصبح الصفقة المستحيلة ، قابلة للتحقيق ، ليوافق القادمون الجدد ، على ما يرفضـــه الحاضرون ، وربمــا نظروا الى أسلافهم وراءهم فى غضب ٠

خامسا : والمطلوب من التحـــركات الاسرائيلية فوق رأس الجسر الجديد ، تخفيض حدة سخونة الحالة الفلسطينية ، بخلق حالة اقليمية جديدة أكثر سخونة ٠ أى التغطية على القضية الأساسية ، بقضية فرعية اقليمية جديدة ، لتنزاح القضية الفلسطينية ، من فوق سلالم الأولوية ، الى مستوى أقل ، ووضع أدنى ٠ وينبغى على أولئك الذين يتبنون الآن نظرية (تقييد شارون) ، أن يعلموا أنه أكثر الذين عبروا عن ايمانهـــم فى اسرائيل ، بما كتبه ذات مــرة الى الحــاخام (شولوموافانـــير) قائلا : (بينما يطلب الله من ســائر الأمم الخضو للقــوانين الأخـــرى ، المحددة الخاصـــــة بالعدل والفضيلة ، فان هذه القوانين لاتنطبق على

اليهود ، لأن الله يتكلم مع شعبه ، أى شعب اسرائيل مباشرة) • لكن شارون فى الوقت نفسه ، هو أكثر الاسرائيليين تعبيرا عن ايمانهم بما كتبه (ايجال ألون) فى كتابه (صنع الجيش الاسرائيلى — من أن (الردع العسكرى التقليدى ليس الوسيلة الوحيدة ، أو الوسيلة الرئيسية للتقدم فى عملية السلام ، فمن أجل تحقيق السلام ، من الضرورى انتزاع أمل الانتصار الواهم ، من أفئدة العرب ، مرة واحدة ، والى الأبد ••) !

(٧)

لاتستطيع كل التحركات السابقة فوق الجسر الاسرائيلى الجديد ، ان تحقق أهدافها ، اذا بقيت مصر فى قلب المسرح الاقليمى ، تمارس دورها القومى ، وتضطلع برسالتها الحضارية ، ومسؤلياتها التاريخية •

لذلك لابديل لتثبيت المشروع الاسرائيلى ، فى مرحلته الجديدة ، وصولا اليه ، وهو تفجير مصر من الداخل • ولذلك فان مصر لاتحتاج دون أن يتحقق الهدف الاستراتيجى الأعلى ، أيا كانت الطرق والوسائل • فقط الى أن تتشبث بصخرة وحدتها الوطنية ، كما فعلت فى كل مبارزة تاريخية • ولكنها تحتاج فوق ذلك الى منهج عمل وطنى جديد ، على كل محاور العمل الوطنى ، سياسيا ، واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، واعلاميا ، ذلك أن الصمود المصرى فوق شرفة التحديات البازغة ، أمام مصر ، ودورها ورسالتها ، يتطلب بالضرورة ، تغيرات هيكلية عاجلة ، لاتستطيع هذه الوزارة ، منهجا وأسلوب وتصورا ، أن تفى بشروطها الأساسية • بل اننى أحد الذين يعتقدون بصراحة ووضوح • أن أفق عمل هذه الوزارة ، يتحرك بعيدا ، عما تتطلبه ضرورات توفير هذه الشروط •

ينبغى أن يكون واضحا ، ان المعركة الفاصلة هنا ، وليست هناك ، وأن الحرب غير القتال ، وسوف ينشب القتال هناك ، ولكن الحرب ستجرى هنا ! •

٦ ـ أمن اسرائيل يعنى خروج العرب من التاريخ

دون أن يتفق مذياع عربى مع مذياع عربى آخر ، أو فضائية عربية مع أخرى • وجدت كلمة النكبة نفسها تجرى طليقة على السنة العرب جميعا ، رغم أنها تعبير صكته الهزيمة ، فى أعقاب حرب عام ١٩٤٨ • ولم يعش غير سنوات قليلة ، قبل أن يعاود رقاده ، فى قواميس اللغة •

لماذا ـ اذن ـ بعد أكثر من نصف قرن ، استعادت كلمة النكبة نفسها على ألسنة أخرى ، وكأنها نمت كالنباتات الشيطانية التى تشق الأرض على نحو مفاجىء ، وبشكل غزير •

هل يعنى ذلك أن ثمة احساس عربى ، بأننا أقرب الى حالة ما قبل حرب ١٩٤٨ ، أو الى النتائج التى ترتبت عليها أو أننا نعود الى نقطة البداية الأولى • فوق تخوم الصراع • لأن اسرائيل نفسها تعود الى لحظة اختلاقها الأولى : حيوان همجى من عصور ما قبل التاريخ ، خارج لتوه من انقاض حفرية قديمة ، بينما لا يشبهه دمامة ودموية ، فى العصر الحديث ، سوى (فرانكشتين) الذى كان بدوره ابداعا غربيا خالصا •

وأى غرابة فى أن تعود اسرائيل الى كامل همجيتها الحيوانية ، اذا كان (ايمانويل هايمان) قد سمع مندهشا ، وهو يعد كتابه عن الأصولية اليهودية • أحد طلاب معاهد التلمود فى القدس يقرأ عليه الرواية التالية :

قالت رواية الاسرائيلى ، طالب التلمود :

« •• مرة أخرى شهدت العلاقة بين الرب وشعبه المختار ، حالة من التدهور • كان سببها ان اليهود قد واصلوا التعبير عن تذمرهم من كثرة القوانين والأوامر والنواهى • وحين أخذ الرب ، يستمع فى أعالى السماوات • الى شكاوى اليهود • على الأرض • من كثرة أوامرهم ،

وقوانينه • وصلته أصواتهم غاضبة وعالية تقول : أيها الرب • أختر لك شعبا آخر •• ورد الرب من عليائه عليهم :

لا مانع لدى • ولكن عليكم أن تعيدوا الى التوراة ، التى أنزلتها لـــكم •

وقبل اليهود شرط الرب • واندفعوا من كل أنحاء العالم نحو جبل سيناء ، وهم يحملون كتب التلمود ، وكتب الصلوات • ولفائف الوصايا وهوامش الحاخامات ، وهوامش الهوامش ، وحين انتهت عمليـــة جمع الأوراق كلها من كل صوب • تكوم جبـل من الكتب عند ذلك انفرجت أبواب السماء ، ثم هبط صوت الرب حزينا وهو يقول : ولكننى لم أبعث اليكم أبدا كل هذه الأوراق ! »

وأى غرابة أذن • فى ذلك التفســير الذى صاغه حاخام صهيونى ليدفع عن اسرائيل ، جرائم سفك دم الفلسطينيين والعرب ، حيث لم يجد وسيلة لتبرئة اسرائيل من جرائمها ، سوى أن يلحقها بالرب ، قائلا : مادام الاله يحارب مع اسرائيل ، فانه هو المسئول عن الدماء والمذابح •

ومادام الاله أو « رب الجنود » ــ حسب المفردات الصهيونية ــ هو الذى يوجه صواريخ أرض أرض • ويطلق المدفعيات الثقيلة ، ويدفع المدرعات لتقسيم جسد الضفة الغربية • وهدم البيوت ، واجتثاث أعواد الأطفال النابتة فى حقول غزة ، وهو الذى يقود طائرات اف ١٦ • ويقذف القنابل من السماء المفتوحـــة الأبواب على رام الله ونابلس ، ويحبس الصرخات المدماة فزعا فى حلوق الأمهات •

ومادام (رب الجنود) الصهيونى ، هو الذى يركب اف ١٦ ليطارد ظل طفل فلسطينى فى حوارى « جباليه » و « بيت ناهيه » • فما السبيل أمامنـــا لاقناعه بالتوقف عن حربه ، غير الســـجود المذل أمام فوهات دباباته ، والاستسلام المعين غير المشروط ، لشروطه ، وطقوس صلاته ، فى رعاية رب النفط وضاعة الموت ، فى البيت الأبيض •

●●●

لماذا يتزايد سقوط الجنون الاسرائيلى كأنه قطع من الليل المظلم فوق رؤوسنا ؟ وهل يعود ذلك الى جنـــون شـــخص واحد اســـمه (شـــارون) ؟

لا أظن أن الاجابة بالايجاب ، يمكن أن تتسم بالدقة . لأن شارون ، الذى تم استدعاؤه من متحف المؤسسة العسكرية الاسرائيلية . قد سبقه تجهيز المسرح الداخلى الاسرائيلى ، بل ان هذا المسرح الذى أعيد بناؤه ، من أجل مرحلة اسرائيلية ، واقعية شديدة ، هو الذى اختار شارون ، واستدعاه ، ووضعه على سدة الحكم .

واذا لم تكن مفردات الحرب صريحة فى السياسة الاسرائيلية ، قبل شارون ، فقد كانت تتنفس حية . فى منهج التفكير الاستراتيجى الاسرائيلى . وفى توجه اسرائيل التسليحى . واذا لم يكن نفير الحرب عاليا فى خطاب المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، قبل شارون . فقد كانت تتحرك عمليا . طوال الوقت ، استعدادا للحرب القادمة . ومثلما كانت تضع تصوراتها . مفصلة لمسارح العمليات المستقبلية ، كانت تمارس تدريباتها العملية ، بجدية ودأب ، فوق هذه المسارح .

ليس هدفى الآن هو الدخول فى تفاصيل ذلك . ولكن حسبى أن أشير الى أن شارون لم يضف جديدا نوعيا ، لا الى منهج التفكير ، ولا الى وسائط التنفيذ ، فخطة المائة يوم ، كانت مكتملة فى ملفات الجيش الاسرائيلى ، قبل أن يكتمل صعوده الى موقعه ، وتشكيل وحدات عسكرية اسرائيلية ، للقتال فى المدن الفلسطينية ، وفى شوارع القرى بأساليب مختلفة عن الأساليب التقليدية ، للعمل فى ميادين القتال الاعتيادية ، كان قد تم الانتهاء منه قبل عام كامل من انتخاب شارون ، لقد بلغت الاستعدادات والتدريبات العملية على ميادين القتال الفلسطينية ، حد ان الجيش الاسرائيلى ، قام ببناء مناطق ونماذج منقولة عن خرائط دقيقة ، لأحدث أوضاع القرى والمدن الفلسطينية ، حيث مارست هذه الوحدات العسكرية الاسرائيلية الخاصة ، تدريباتها . على أساليب القتال التى استستخدمها هناك فى المستقبل القريب ، تحت عنوان محدد هو : (استراتيجية الردع الجارف) .

وحتى هذا القصف بالصواريخ ، ثم القصف بطائرات اف ١٦ لمدن نابلس وطولكرم ورام الله ، رغم أنه جاء تطبيقا ميدانيا لخطة عسكرية مسبقة ، هدفها استئصال ارادة الفلسطينيين ، الا أنه مثل تدريبا ميدانيا لخطة أكبر تقبل التطبيق على مدن أكبر ، فى ميدان آخر . أقول ذلك من واقع الضربة الجوية الاسرائيلية التى تداخل معها استخدام الصواريخ أرض / أرض . فما حاجة اسرائيل ميدانيا التى استخدمت سربا جويا فى عمليات قصفها ، فى سماء مفتوحة تخلو من أى دفاعات أرضية أو جوية ، الى أن تستخدم الصواريخ أرض / أرض ، بشكل

متزامن ؟ هل هى الرغبة فى ايجاد فزع أكبر بين الفلسطينيين ، الذين لايرون الطائرات ولا يرون الصواريخ ، وانمـــا يرون آثارهمـــا فوق الأرض • ؟!

الحقيقة ان اسرائيل كانت تمارس تطبيقا ، لأحد أسس استراتيجية تطوير قواتها الجوية ، لتطوير استخدام الطيران ، بالتنسيق مع استخدام هدف عزل ميدان المعركة على جانب ، والحاق تدمير كامـــل بالبنيـــة الأساسية للخصم على الجانب الآخر •

وهكذا فاننا كنا نرى عدوانا ينفذ خطة عسكرية مسبقة التجهيز لقصف المدن الفلسطينية ، وكنا نرى فى داخلها ، مشروعا تدريبيا على عدوان قادم ، سوف يأتى زمانه ومكانه ، ولا تستطيع أن تفهـــم ذلك على نحو صحيح ، اذا لم تفهم أن ما يحدث ليس خيار شارون ، لأن شارون نفسه ، هو خيار مرحلة كيفية اسرائيلية جديدة ، هدفا ، وتوجها • وأســـلوبا •

هل يتساقط الجنون الاسرائيـــلى قطعا من الليل • فوق رؤوسنا ، بسبب هذا الاحســـــاس الغـــريزى العميق ، بالخوف الذى يكتنف الاسرائيليين • أى بسبب اشكالية الأمن الاسرائيلى ، واذا كان ذلك صحيحا ، فهل يعنى أن الحل لن يتحقق الا بتطبيق مفهوم نظرية الأمن الاسرائيلية ، المعروفة ؟

الحقيقة أن طرح السؤال على هذا النحو ، قد ينطوى على خطأ كبير ، لأننا مانزال فى أغلب أدبياتنا ، ووسائل اعلامنا نتحدث عن نظرية أمن اسرائيلية لم تعد قائمة فى الواقـــع ، فلم تعد المفردات القديمـــة التى صيغت منها نظرية الأمن الاسرائيلى مثل الردع أو الحدود الآمنة ، أو نقل المعركة الى أرض الخصم ، فى مكانها القديم من صياغة هذه النظرية • فقد تحول ــ مثلا ــ مفهوم الردع الى مفهوم القسر ، وتحولت الحدود الآمنة ، الى حدود الاقليم كله ، وتغير مبدأ نقل المعركة الى أرض الخصم ، الى مبدأ ، بدأ المعركة فى أرض الخصم ، وتحول مفهوم الضربة الجوية ، الى مفهوم الحرب الجوية الطويلة التى يمكن أن تستمر أسابيع ، دون أن تتدخل القوات البرية ، لأن نظرية الأمن الاسرائيلى ذاتها ، قد تحولت من الارتكاز على أسس مختلفة ، لتحقيق أمن نسبى الى الارتكاز على قاعدة واحدة هى تحقيق الأمن المطلق •

وهذا التحول يستحق التفاتا من أجل فهم أعمق لطبيعة التآلف بين الحكومة الاسرائيلية الحالية ، وبين ادارة بوش • ذلك أن التغييرات التى لحقت بمفهوم الأمن ، عنـــد كل منهما ، تكاد أن تكون متماثلة • فمفهوم الأمن اضافة الى أنه يتقدم استراتيجية الادارة الأمريكية ، فانه أصبح أكثر تعبيرا عن الانتقال من التوازن النسبى للردع ، الى الأمن المطلق • فضلا عن مصادرهما ــ الوزارة الاسرائيلية والادارة الأمريكية ــ فى المجتمعين الاسرائيلى والأمريكى ، واحدة ، فأولاهما تمثل (نخبـــة القوة) فى اسرائيل ، وثانيهما تمثل (نخبة القوة) فى الولايات المتحدة •

ماذا بمقدورنا ان نفعل ــ الآن ــ من أجـــل تهدئة ، وطمأنة هذا الأمن المطلق ؟

للأسف فانه يمكن الجزم ، بأنه لاشىء يمكن ان يوفر درجة مقبولة من التهدئة والطمأنة ، لطلب الأمن المطلق ، لأنه لايعنى فقط ، الا تتواجد فى دائرة الاقليم أية قوة ، تمثل تهديدا فى الحاضر ، وانما الا تتواجد أية قوة يمكن أن تمثل تهديدا فى المستقبل • ثم أن تعبير القوة ، لايتصرف الى القوة بمعناها الاصطلاحى العسكرى ، ولا الى القوة الشاملة فى صيغها العامة ، وانما الى كل مفـــردة من مفردات القوة ، ذات صـــيغة مادية أو معنوية ، قد تتعلق على سبيل المثال ، بالصناعة ، أو الاقتصـــاد ، أو تتصل بالتعليم ، أو الثقافة السياسية السائدة •

ولهذا فان هذا الأمن المطلق ، لايتطلب فقط ، اقصـــاء الحقيقة الفلسطينية ، واخراجها من الزمان والمكان ، ولكنه يتطلب أيضا ، اخراج العرب من التاريخ ، أى من ذاكرتهم ، وزمانهم • لأن الأمن المطلق ، يتطلب خلق تاريخ خاص ، وزمان خاص ، وأقصاء بقية التواريخ والأزمنة •

عندما توصف الصهيونية بالنازية ، فهو ليس وصفا بلاغيا محضا ، كمـــا يعتقد البعض • أو أنه يؤسس على النزعة المشتركة للتوســـع والاحتلال ، أو على التماثل فى أبجديات المدرسة العسكرية ، لأنه كما سعت الصهيونية الى خلف أسطورة فى صحراء تيه التاريخ ، لتبرير جريمة طرد شعب من أرضه ، باعادة تمثيـــل الماضى ، بحثت النـــازية بدورها عن أسطورة غارقة لتبرر بها حروبها التوسعية ، وقد وجد هتلر ضالته فى أسطورة قاقر أطلنطا المفقودة ، التى اعتبرها أصل العنصر الجرمانى ، وبالتالى روح خصوصيته وامتيازه وتفرده ، واذا لم تكن استعادة وهم أطلنطا من أعماق المحيط ممكنة ، فمن الممكن احياء حضارتها القديمة ، التى ينبغى أن تتسع لامبراطورية جرمانية تحكم العالم ، لتعيد بنائه على

شاكلة حضارتها ، التى لا يمكن أن تنهض الا فى ظل أمن مطلق • وهكذا — أيضا — فان الصهيونية لا يمكن لها أن تزدهر ، وأن تعيد ، تمثيل الماضى ، وتقضى التاريخ ، وتبيد الفلسطينيين ، وتعيد أحياء صهيون ، الا فى ظل هذا الأمن المطلق •

●●●

هل يتساقط هذا الجنون الاسرائيلى ، كأنه قطعا من الليل فوق رؤوسنا ، لأنه يجد محفزات فى الموقف الأمريكى خاصة ، والغربى عامة ، دون أن تتوافر على المستوى الدولى كله ، كوابح ، تمنعه من التحقق ؟

عندما كان محمود عباس فى الولايات المتحدة مؤخرا ، فوجىء بكولن باول ، يقول له : ان الرئيس بوش قد أحال تقييم دور الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط • الى مجموعة رئاسية من السياسيين والعسكريين الأمريكيين • وأن هذه المجموعة صاغت رؤيتها فى تقرير ، وأن التقرير قد وضع بين يدى بوش منذ شهر ، وأنه سوف يفرغ من قراءة التقرير ، وتقييم التقييم قريبا • وفى انتظار أن يفرغ بوش من القراءة والتقييم ، أو أن يفرغ شارون فى الأصح من تنفيذ خطة المائة يوم ، فان المطلوب أمريكيا • مازال على حاله : أن يتم ايقاف العنف ، وأن يبتلع الفلسطينيون مطالبهم باستحقاقات سابقة التوقيع ، وأن يبتلعوا حقوقهم المشروعة ، أو المشرعة ، كالسبيوف ، أى أن يمارسوا انتحارا جماعيا • على الطريقة اليابانية •

وعندما انفجرت الثورة الفلسطينية فى ناتانيا ، لم يكتف (بوش) بطلب (باول) ، أن ينتحر الفلسطينيون ، وانما قدم دعوة انتحار مماثلة الى كافة القادة العرب ، بأن طلب منهم أن يدينوا علنا العنف الفلسطينى !

والحقيقة أن هنـــاك توافقـا أمريكيا اسرائيليا ، فى اطار توافق استراتيجى أوسع ، تعبر عنه حالة تقسيم وظيفى واضـــحة بين أمريكا واسرائيل ، هدفها تنزيل القضية الفلسطينية ، من كونها قضية قومية عربية واقليمية ودولية ، الى اعتبارها قضية اسرائيلية داخلية ، وذلك — كما قلت مسبقا — بفرض حلقتين من حصار القوة حولها :

- حلقة حصار وتدمير عســـكرى واقتصـــادى مباشر ، تتكفل بها آلة الحرب الاسرائيلية •

- حلقة حصار سياسى أكثر اتساعاً ، تتكفل بها أدوات الدبلوماسية الأمريكيـــة ٠

وإذا كانت آلة الحرب الاسرائيلية ٠ عليهـــا أن تتكفل باستخدام كل أسلحة القمع والدمار ، باطفاء جذوة الانتفاضة المشتعلة ، فان أدوات الدبلوماسية الأمريكية ، عليها أن تتكفل بمنع ومصادرة أية امدادات ، تعين هذه الجذوة على أن تظل محتفظة بتأججها ٠ ولقد صبت الادارة الأمريكية خلال حيز زمنى ضـــيق ، جهودا هائلة ، لدفـــع القضية الفلسطينية فوق هذا المنحدر ، أى تنزيلها الى قضية اسرائيلية داخلية ٠ فى الوقت الذى منحت القوة الاسرائيلية ، مشروعية استخدام كل ترسانة أسلحتها ٠ لاطفاء جذوة الانتفاضة ، ثم أضفت على جرائمها حصانة فى مجلس الأمن ٠ وحتى بعد أقدمت اسرائيل على استخدام سرب من طائرات ف ــ ١٦ لهدم المدن الفلسطينية على رؤوس سكانها الآمنين ، فان الولايات المتحدة ، ظلت تعيد فى كل اتصالاتها الدولية والاقليمية ، تأكيدات على تبنيها ، ليس فقط أولوية موضوع الأمن من وجهة نظر اسرائيل ، بل على قبولها لتوصيف اسرائيل لهذا الأمن ، وبالتـــالى فقد ظل وقف العنف عندها ، سابقا على اية خطوات سياسية أو دبلوماسية ، دون أن يؤرق ضميرها على أى نحو ، فيض الدم الفلسطينى الذبيح ٠

وإذا لـم يكن هذا هو مجـــال الدخول فى أفق الاستراتيجيـــة الأمريكية الاسرائيلية المشتركة فى الشرق الأوسط ، فقد يكون من المهم التأكيد على أن الولايات المتحدة ، تريد على وجـــه التحديد استئصال خيار المقاومة ، فى عموم الاقليم بشكل نهائى ، أو قل بتحديد أدق ، تصفية ما تبقى من « ارادة القتال » ، فى قلوب وعقول العرب ، لكى يتمدد مفهوم الأمن الاسرائيلى المطلق ، دون حواجز ، ودون حدود ٠٠

لقد كان فى ثنايا بعض ما قدمه (جورج تنت) رئيس المخابرات المركزية الأمريكية ، أمام الكونجرس فى الاسبوع الأول من شهر فبراير الماضى ، حول التهديدات عالمية الاتساع ضد الأمن القومى الأمريكى ، شريحة عرضية للمجتمع العربى ، رأى فيها مواطنين عاديين فى عدة أماكن من العالم العربى ، يبدون فى صورة من الهياج الزائد ، فهناك « جمهور قلق يصعب احتـــواؤه ، ليس له قيـــادة معـــروفة ، ولا هيكلا تنظيميا واضحا » ، ويبدو لى أن جانبا من مهمة اسرائيل الاقليمية الجديدة ، هو احتواء هذا الجمهور أو تفريقه ، بأساليب بعضها ، ســـيكون عسكريا ومؤلمـــا ٠

يمكن أن يضاف الى ذلك أن الموقف الأوربى فى عمومه لم يكن بعيدا عن الهدف السابق نفسه ، فقد بدا أن هذا الغرب ، انما يستند الى خبرة حاسته الاستعمارية التاريخية ، التى لا تريد المنطقة سوى مجموعة أسواق تابعة مفتوحة . والذين قدر لهم أن يقرأوا أو يتصنتوا على ما جاء فى أوراق الخبراء الغربيين ، الذين شاركوا مؤخرا ، فى مؤتمر الدفاع الخليجى الذى عقد على هامش معرض (ايدكس) فى أبو ظبى ، قد انتابتهم دهشة خانقة ، فسواء اكانت الأفكار التى قدمت تنتسب الى (مايكل جريدون) قائد القوات الجوية البريطانية الأسبق ، أو الى خبراء غربيين ، مثل جوزيف مونبهان ، أو نيل باتريك ، أو غيرهم فان الرؤية الاستراتيجية التى طلب من دول الخليج العربى أن تتبناها ، والتى وضع جريدون نفسه عنوانا جاذبا هو : (حمل عصا كبيرة والتحرك بنعومة) ، بدأت عناصرها بالضغط لاستبعاد اسرائيل من دائرة الصراع فى الخليج ، لأنه لا خوف من اسرائيل على الخليج ، وانتهت بضرورة قبول قوات صديقة قوية ووحيدة فى المنطقة ، مرورا بتمتين العلاقات التجارية مع أوربا ، واختلاق مخاطر على شاكلة احتمال قيام ايران بمساعدة قوات خارجية بهجوم نووى على أى مكان بالمنطقة ، الأمر الذى يتطلب الدخول فى منظومة دفاع صاروخية غربية !

●●●

ما هو المطلوب منا الآن ؟

أولا : ان علينا أن ننظر بقدر اكبر من العمق الى طبيعة المخاطر والتحولات الجديدة فى أوضاع الأقاليم ، والى نتائجها على المستوى الوطنى والقومى ، فالنتائج المباشرة ليست مجرد تفكيك السلطة الفلسطينية ، وتدمير بنيتها ، أو استئصال ارادة المقاومة من الشعب الفلسطينى ، أو انهاء السلام ، (الذى اكدت منذ مايو فى العام الماضى انه قد سقط استراتيجيا) ، وانما تأجيج صراع مفتوح فى المنطقة ، ومده بكل اسباب الحريق والانتشار .

ان ما يحدث فى ميادين المواجهة ، وما يتخلق فى العمق العربى . لم يكن معزولا ، حتى عندما كانت ميادين القتال معزولة . فنكبة ١٩٤٨ ــ على سبيل المثال ــ لم تهز قواعد الأنظمة العربية ، ولم تنجب زلازل اجتماعية وسياسية فحسب ، بل أن تأثيرها امتد حتى وصل الى الشعر العربى . فحطم قوانين تفعيلته البنائية ، وموسيقاه التقليدية ،

فما بالنا هذه المرة ، وميادين العدوان مفتوحة ، والانقاض تملأ العيون ، وبقع الدم والشظايا ، تتطاير من شاشات التليفزيون ، لتسقط فى أطباق الطعام ٠

ان منحنى الضغوط بالغ الشدة فى هذا الوضع الاقليمى ، فى لحظات مشبعة بالتحول والتغير ، من تحول فى أوضاع اسرائيل ، الى تحول فى أوضاع الاقليم ، وفى أوضاع العالم ، تقود الى سلسلة متصلة من التناقضات ، التى ستبحث بالقوة الجبرية عن صيغ توازن ، من أنظمة محاصرة بجماهيرها ، الى جماهير محاصرة بأنظمتها ٠ الى أنظمة وجماهير محاصرة ، بحالة اقليمية جديدة ، لم تكن تتوقعها ، ولا تنتظرها ، فضلا عن أنها لم تحسب احتمالاتها وتفاعلاتها بالدرجة المطلوبة من الدقة ٠

ان تشبعا بالعنف وصل الى مداه ، ويتم اختزانه طبقات كثيفة تحت طبقات جلد الفلسطينيين والعرب ، ولا أحد يستطيع أن يحدد بشكل قاطع ، حجم الأسماك المفترسة ، التى لابد وأن تتوالد وتنمو فى بركة الدم الفلسطينى ، وعلى حوافها العربية هنا وهناك ٠ ولا أحد يستطيع أن يحدد ، على سبيل اليقين ، متى وكيف يمكن لطاقة العنف المختزنة تحت جلود الناس ، تحت تأثير مشاهد العنف الاسرائيلى ، والاحساس معها بالهوان ، أن تترجم نفسها ، الى حركة وفعل ، وعلى أى وجه وشكل ٠

ثم أنه اذا اقتنع العرب ، أو بعضهم ، فى قواعدهم الشعبية ، أنهم يواجهون قوة عسكرية لا يقدرون على مواجهتها ، وأنظمة لا تستطيع أن تجمع شملها وارادتها ، لتدير مبارزة استراتيجية ومصيرية مفروضة عليها ، ومعادلات توازن لا تستطيع أن تدفع تكلفة تصحيح الخلل فيها فماذا يبقى لهم ، غير أن تنطلق فى صفوفهم جيوش من العفاريت ٠ يطلبون منها ، ومعها ، الحل والحماية ، فيما وراء الطبيعة ، ليتم خلخلة الفضاء السياسى والفكرى والاجتماعى ، أمام استقواء عقل سلفى ، بمركبات الضعف التى تحيط به ، ليضخ تيارا سلفيا ، يرغب أن يصعد على أكتافه الى مواقع التأثير والحكم ٠

ثانيا : بهذا الفهم فان أكثر الفجوات خطر فى هذا التوقيت ، هى الفجوات التى يمكن أن تنشأ بين الجديد الذى يتخلق فى قلب المجتمع ، وما يظل على ثباته وقدمه فى أساليب ومناهج العمل السياسى، وفى أساليب ومناهج العمل الاعلامى ٠ وتلك ساحة جديرة بتأمل أعمق،

اذا أريد للجبهات الداخلية أن تظل آمنة ، وللتفاعلات أن تكون محسوبة ومرشدة ، وبغير ذلك فان التهديدات ستكون متنامية ، والفيضـانات جارفة :

● ان أقل ما يمكن أن نفعله الآن وعلى وجه السرعة هو ـ أولا قدرا واضحا من التصعيد المحسوب ، ليس على المستوى الديبلوماسى فحسب ، وانما على مستوى تنظيم تعاون وثيق بين المستوى الدبلوماسى وقنوات منظومـة القوة فى الدولـة ، على أن يصـعد هذا التصـعيد المحسوب ، سلالم متوالية ، بمرور الوقت ، وزيادة الضغوط ٠

● واقل ما يمكن أن نفعله الآن على وجه السرعة هو ـ ثانيـا ـ مراجعة للعلاقات الثنائية مع اسرائيل ، وتقليص هذه العلاقات ، على أساس واضح من تقليل القبول ، مؤسسيا بها ، وبما يتناسب مع الرفض الشعبى لها ٠

● وأقل ما يمكن أن نفعله الآن ، وعلى وجه السرعة ، هو ـ ثالثا ـ مراجعـة أنشطة أولئك الذين أخذونا فى طريق وهم فاسـد ٠ اسمه كوبنهاجن ، واسمه جمعية السلام ، وتصفية أوضاع نفوذهم التى صعدوا على أكتافها الى مواقع التأثير سياسيا واعلاميا ٠

● واقل ما يمكن أن نفعله الآن وعلى وجه السرعة هو ـ رابعـا مراجعة تلك السياسة الاعلامية لصحف ومطبوعات وشاشات ٠ محسوبة على الدولة المصرية ، بينما يضـع القـائمون عليها ، مصالحهم وفهمهم وسلوكهم فى تناقض صريح مع مصالح الأمن القومى للدولة المصرية ٠

وبعـــد ٠٠

لقد أوصلتنا الملاينة الشديدة ، باسم الحكمة ، بعد ثمانية أشهر من قمع منظم للانتفاضة ، ومن تحول كيفى فى الموقف الاسرائيلى ، الى ما نحن فيه ، من استهانة أمريكية واسرائيليـة ، واضـحة ، بالدور الاقليمى لمصر ، وبمسؤليتها فى قلب الاقليم ، وعلى رأس النظام الاقليمى العربى "

ان المطلوب على وجـه السرعة ، تصعيد مصرى محسوب ، يثبت للجميع ، أن مصر ما تزال فى قلب موقعها ودورها ، ورسالتها بتلك الرؤية العميقة والفعل الجسور !

الباب الثالث

تطورات الحالة الأمريكية

١ ـ القرن الامريكى الجديد

يبدو أن الذين قرأوا خطاب الرئيس الأمريكى « بيل كلينتون » ـ قبل أكثر من عامين ـ والذى اعترف فيه بعلاقته بالمتدربة السابقة فى البيت الأبيض ، وتوقفوا طويلا أمام مفردات الخطاب ، قد سقطت منهم مفردة واحدة ، دون أن تسترعى انتباههم ، ربما لانها جاءت فى ذيله ، وربما لأنها بدت خارج سياقه وروحه ، أما هذه المفردة فقد تحدثت بالحرف الواحد عن التوجه نحو « القرن الأمريكى الجديد » ٠

غير أن توقيت الخطاب المذكور ، كان سابقا على توقيت توجيه الضربتين الصاروخيتين الى السودان وافغانستان ، ولكنه كان تاليا على وصول الادارة الأمريكية الى قرار باستخدام هذا القصف الصاروخى ، وكان الفاصل بين استخدام تعبير « القرن الأمريكى الجديد ، وبين قذف مائة صاروخ من طراز « بلوك ـ ٣ « الذى لم يستخدم طرازه المطور فى مسرح عمليات فعلى من قبل ، هو خمسة أيام بالضبط ٠ أى أن افتتاحية « القــرن الأمريكى الجديد » قد أخذت نمط « التدمير الابداعى » ـ بالتعبير الأمريكى ـ لمصنع فى السودان ، وبضعة مواقع فى أفغانستان ٠ باستخدام القصف من الفضاء ٠

وينبغى أن نلاحظ فى هذا السياق أمرين :

الأول : أنه على الجانب النظرى الخالص فان جميع الدراسـات التى أجريت لتحديد دور العامل الشخصى فى صياغة التوجه الاستراتيجى الأمريكى ، قد انتهت الى أن هذا العامل قائم وموجود بالفعل ، ولكنه ضامر وضعيف ، وهو قد يتدخل فى تحديد التفاصيل أو التوقيت أو الأسلوب ٠ ولكنه لا يستطيع منفرداً أن يقدم على صياغة توجه استراتيجى جديد ، على نحو يخرج به عن القاعدة الاستراتيجية ، التى تتم صياغة مفرداتها بشكل معقد ، وتساهم فيها كتائب من الأجهزة الأمريكية المختصة ٠

أى أن الصدى الشخصى للرئيس الأمريكى ، وأركان ادارته ، موجود وقائم ، ولكن حدود تأثيره لا تطول منهجية التوجه الاستراتيجى نفسه ، وهذا يعنى أن الرئيس الأمريكى وأيا كانت الدوافع والأسباب الشخصية لا يستطيع منفردا ، أن يستخدم خيارا استراتيجيا ، لم يتم بناؤه وهضمه وتسكينه فى شـــبكة أولويات الاستراتيجية الأمريكية • المركبة بشكل مسبق •

الثانى : أنه قد يعزز من التفسير السابق ان الادارة الأمريكية نفسها ، وكافة الأجهزة المختصـــة بالتوجـه الاستراتيجى الأمريكى • لا تستطيع أن تقـــدم على صـــياغة خيار ، ألا وقد سبق هضمه بشكل مجتمعى كامل • والدليل على ذلك أن الكونجرس الأمريكى قد استقبل قرار الرئيس الأمريكى بالقصف الصاروخى بدرجة عالية من الاستحسان، بل ان سيناتور مثل جويز ماكلين رأى ساعتهـا ، أن هذا النمط القوى ينبغى أن يعمم فى كافة شؤون السياسة الخارجية الأمريكية وضرب أكثر من مثل على شاكلة « تلكؤ العراق فى التفتيش الدولى » • أما الاستطلاعات التى قامت بها شبكات الاعلام الأمريكيـة المختلفة ، فقد أكدت أن ثمانين بالمائة من مجموع الأمريكيين قد أعطوا تأييدهم كاملا للهجوم الصاروخى، بينما ترقب خمسة وسبعون بالمائة منهم هجمات صاروخية اضافية •

(٢)

لقد سبق وأن شدد (بول كنيدى) فى أطروحتـه عن صـــعود وسقوط القوى العظمى ، وهو يتحدث عن متوالية القوة الاقتصـــادية والقوة العسكرية ، والدور الامبراطورى ، والاضمحلال ، على أنه لا يحاول أن يبرهن على أن الاقتصاد يحدد نصيب كل حدث ، وأنه السبب وراء نجاح كل دولة أو فشلها ، فهناك دلائل كثيرة ــ حسب تعبيره ــ تشير الى اشياء أخرى منها ، الجغرافيا ، والتنظيم العسكرى ، والروح المعنوية القومية • ولذلك عندما يتحدث عن النجاح الصينى أو اليابانى ، يدمج هذا النجاح فيما يطلق عليه « الحس الوطنى الرفيع » •

غير أن ما يقوله عن أن القوى العظمى تستجيب بالفطـرة لزيادة نفقاتها على الأمن فى مرحلة التدهور ، ينطبق حرفيا على الولايات المتحدة فالدولة الكبرى عنده تنفق على الدفاع ، وهى فى حالة أكثر تأزما ، وأقل نهوضا ، أزيد مما تنفقه فى مرحلة فتوتها ، وازدهارها ، وصعودها الاقتصادى ، وربما يفسر هذا ما فعله « غليوم الثانى » بمدافعه ، حيث أمر بأن تحفر عليها هذه الحكمة : « الحجة الأخيرة للملوك » •

« وبول كيندى » هو الذى لاحظ ــ مثلا ــ تلك العلاقة السببية ، التى يمكن رصـــدها ، بين التحولات التى طرأت بمرور الزمن على الموازين الانتاجيــة والاقتصادية العــامة • وبين المكانة التى تحتلها قوة متفردة فى النظام الدولى ، فالتحولات الاقتصــادية كانت ارهاصا لقيام القوة الكبرى الجديدة ، التى قد يكون لها يوما أثر حاسم على التنظيم العسكرى الجغرافى ، وهذا هو السبب ــ فى تقديرى ــ فى أن تحــرك الموازين الثلاثة المعروفة : وجود القوة الرادعة ــ الاستعداد لاستخدامها ــ اقنــاع الخصــم بالأمرين الســابقين) الى استراتيجيــة جديــدة هى « استراتيجية القسر » • أى الكسر المطلق لارادة الخصـــم باستخدام القوة المطلقة •

وفى هذا السياق ، قد يكون مفيدا التوقف عند بعض مضامين هذا التحول :

اولا : ان توصيف القوة يعود مرة ثانيـــة الى معنــاها الاصطلاحى فى أوج الظاهرة الاستعمارية ، أى القوة العسكرية المطلقة المباشرة ، كما ان المسافة بين تعبيرى « القوة » و « الحقيقة » يتم ازالتهــا فالحقيقة هى القوة ، والحقيقة المطلقة هى القوة المطلقة ، التى تعتبر نفسها مطلقة الارادة ، مطلقة الحق ، وأنهــا مرجعية نفســها ، باعتبارها ــ وليست الليبرالية كما قال فوكوياما ــ الكلمة الأخيرة فى تاريخ البشرية •

ثانيا : ان هذه الحقيقة أو القوة المطلقة تؤهل نفسها ودورهــا لأن تتحول من أوج أزمة اقتصادية دولية خانقة • الى شكل جديد من الاستثمار الاقتصادى ، أى تحويل القوة العسكرية الى منفعة اقتصادية• وبالتالى يتم توظيفها لمعالجة الأزمات ، وفرض المصالح ، بما فى ذلك فتح الأسواق بالقوة • وفرض التخلف التكنولوجى بالقوة لتصبح ، المسافة غير قائمة بين الحكومات والشعوب ، وبين العسكرى والمدنى •

ثالثا : أن تغيرا أكثر أهمية يلحق بالعلاقة بين السياسة والحرب ، فالحرب لن تظل « امتدادا للسياسة بوســائل أخرى » ، وانما بدلا من أن تصبح القوة العسكرية ، أداة فى يد الدولة ــ فى مفهومها ذاته ــ تصبح الدولة أداة فى يد القوة العسكرية ــ ويختفى بغير رجعة ، تعريف « هيجل » الأثير للدولة بأنهــا « جوهر أخــلاقى يعى ذاته » ، أو يتم تغييره على غرار اعادة صياغة مفهوم القوة ، و « الحقيقة » ، فتصــبح الدولة « جوهر غير أخلاقى يعرف مصلحته » •

ثم أنه بدلا من أن تصبح القوة العسكرية ، أداة فى يد المجتمع الدولى ، يصبح المجتمع الدولى أداة فى يد القوة العسكرية المتطردة ، ويترتب على ذلك ، اما اعادة صياغة مواثيق المنظمات الدولية ، أو اعادة تفسيرها وفقا للحالة الجديدة ، أو تعطيلها بشكل جزئى أو كامل ، حسب الحاجة الى ذلك ٠

رابعا : ان الصياغات المتتالية لقوانين الحرب كانت توسع دائما من حدود أمرين ، المواد المستخدمة كأسلحة ، والبشر الاستثنائيين الذين لا يحق الحاق الضرر بهم ، ولكن الحالة الجديدة تلغى الأمرين معا ٠ كما ألغت الامبراطورية البريطانيــة ، فى الهند ، محرمات استخدام الغازات السامة ، فى اخضاع القوى الهامشية ، لكن الأمر قد اختلف ، ويصعب التعامل معه منهجيا باســتخدام نفس أدوات القياس ، فتطور تكنولوجيا السلاح ، جعل الخروج على القوانين (التى كابدت الانسانية طويلا لصياغتها ، ودفعت ثمنها دما وخسائر) ذا تأثير واسع الأذى والتدمير وشديد العداوى لكل ما هو انسانى ٠

يكفى القول أنه قبل مائة عام فقط ، كانت أكثر قدرات المدفعية البحرية تطورا وقوة نيران ، وعمق مسافة ، لا تزيد عن اطلاق قذيفة تزن طنا واحدا لمسافة لتزيد عن ١٥ ميلا ٠

خامسا : لقد ظل تطوير مســافات الرمى والقتــل ، على امتداد التطور الانسانى ، يمثل عبئا على قيم الانسانية ، ولذلك من « أرسطو » الى « شكسبير » ٠ مرورا « بسرفانتس » تم اعتبــار الأسلحة النارية من اختراع الشيطان ، وجرى احتقارها حد التحريم ٠

ولنلاحظ أن « الالياذة » ــ التى يقول الغرب أنه ورثها فى منظومته الفكرية والقيمية ــ ظلت تصف « باريس » الذى اختطف « هيلين » ؛ وقتل « اخيل » ، بأنه « بغيض » ، و « ضعيف » و « امرأة » ، لأنه كان يستخدم القوس من بعيد ولايستخدم السيف كالفرسان ٠

وباختصار فانه مع الاستخدام المسرف فى القوة ، وانهيار الحدود بين ما هو عسكرى ومدنى ، أمام ظاهرة لتحويل الحــرب ــ عكس اتجاه التاريخ ــ الى عنف مطلق أعمى ، وكأنها عودة غير حميدة الى كلمات « كلاوزفيتز » : « ان قانــون الحرب يتكون من القيود التى تفرضــها المصلحة الذاتية » ٠ مع أنه نفسه هو القائل : « ان اســتخدام أقصى درجات لقوة ، يلغى تماما استخدام العقل ٠

ذات يوم قال الجنرال ديجول : « اذا أردت أن تحيط بأبعاد موقف استراتيجى ، فلابد أن تبسط أمامك خرائط الجغرافيا » ، فكما ينطوى الموقف الاستراتيجى على بعد زمنى ، ينطوى – أيضا – على بعد مكانى ، ولا يمكن بالتالى الاحاطة به دون هذين البعدين معا ، حيث يبدو فى الأغلب الأعم محصلة تفاعل بينهما : قد يساعد على تأكيد وتعميق هذا الفهم ذاته ، اعادة قراءة الخرائط وتفسير دلالات المكان طبيعيا واستراتيجيا :

أولا : لتأكيد البعد المكانى بشكل عامل (واذا استثنينا حرب البلقان) فان الأغلب الأعم للعمليات العسكرية التى نفذتها القوات الأمريكية ، منذ أن وضعت الحرب الباردة أوزارها ، تمت فى الدائرة الاستراتيجية للشرق الأوسط بتخومه الآسيوية الأفريقية • وان جميع الوحدات السياسية التى طالها هذا التدخل العسكرى كانت عربية واسلامية • (هجمة طرابلس – عاصفة الصحراء وتداعياتها المستمرة – التدخل بالقوة فى الصومال – قصف السودان – وحتى الهجوم على أفغانستان كان هدفه المعلن ضرب « الأفغان العرب ») • وذلك أمر قد يشكل مفارقة مكانية واضحة بحكم أن هناك مواقع أخرى ، كانت أولى بالتدخل العسكرى باستخدام نفس مقاييس الزرائع والتبريرات •

ثانيا : ان هذه الدائرة الاستراتيجية الواسعة نفسها ، شهدت خلال العقد الأخير ، أكثر المعدلات ارتفاعا على مستوى العالم ، سواء على صعيد شراء وتكديس الأسلحة ، أو على صعيد سعى القوات الأمريكية ، لفتح جسور لها ، وتهيئة بنية أساسية ، لتواجد طويل وفاعل ، وهى عملية تشبه« حفر الخنادق » الذى يسبق معركة تصادمية •

ثالثا : ان الماكينة البحثية فى الولايات المتحدة • بدت من خلال اهتماماتها واصداراتها ، وكأن هذه الدائرة الاستراتيجية بتخومها ، الآسيوية والأفريقية ، تشكل جل اهتمامها ، حتى وهى معنية ببناء هيكل استراتيجية أمريكية جديدة للقرن القادم • تتيح لها كما ترغب وتريد ، أن تبقى حاكمة ومنفردة على قمة النظام الدولى • وذلك بدءا من أطروحات « هتنجتون » عن الصدام القادم والحتمى بين الحضارة الغربية وبين خط التلاحم والتفاعل بين الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الآسيوية ، أو الكونفوشية • وانتهاء بسلسلة تقارير بحثية ، قد تجدر الاشارة الى واحد منها ، لاعتبارات التوضيح والأهمية فى وقت واحد • ويمكن من بينها اختيار دراسة « تشارلز وليم » تحت عنوان الشرق الأوسط فى

القرن الواحد والعشرين والتى أصدرها مركز دراسات الشرق الأوسط فى واشنطن • وتتميز خطوطها بأنها ناطقة بالأبعـاد المكانية لهذا التوجه الاستراتيجى الأمريكى الجديد ، سعيا نحو « القرن الأمريكى » •

تقول هذه الخطوط :

١ ـ ان التحولات الديموجرافية السكانية فى الشرق الأوسط فى أفقها المنظور ، ستبدل تاريخ المنطقة ، وستمثل أحد أهم تحولات التاريخ الضخمة ، ففى عام ١٩٨٠ كان المسلمون يشكلون ١٨٪ من سكان العالم، وبحلول الربع الأول من القرن الواحد والعشرين ، سيشكلون أكثر من ٣٠٪ • فمصر ستقفز الى حدود ١٢٠ مليون قبل حلول منتصف هذا القرن ، وسوريا ستصبح قوة سكانية بوصـولها الى ٥٠ مليون ، والسعودية ستتضاعف ثلاث مرات فتقفز من ٢١ مليون الى ٦١ مليون . أما ايران فان نموها سيكون انفجاريا ، وسيتجاوز مائه وستين مليون ، يضاعف من تأثير ذلك تضـخم البنية السكانيـة الشابة فى الهيكل السكانى لهذه الدول التى ستصبح أعمدتها تحت ضغط هائل لأجيال جديدة شابة ، تتميز بوعى وطنى متصاعد يرفض التدخل الأجنبى ، ويقوى روح المقاومة ضد سيطرة الشمال • وذلك ما يمثل ـ بألفاظ الدراسة ـ أكبر تحد للوضع الأمريكى فى الشرق الأوسط خلال القرن الواحد والعشرين •

٢ ـ ان اتساع الفجوة التكنولوجية بين الشرق الأوسط والشمال سيتزايد باطراد • ولكن قدرة الشـمال على اسـتخدام ميزته وتفوقه التكنولوجى من أجل السيطرة ، ستنخفض من الناحية العملية • ولذلك فان الشمال يستطيع أن يوظف هذه الفجوة المتسعة من أجل أن يلحق العقاب بمن يريد لا من أجـل أن يتمكن من تحقيق سـيادته • كما أنه سيكون قادرا على ممارسة العقاب ، لا أن يسود • وسوف يكون مرد ذلك الى أمرين : زيادة الوعى المتصاعد فى الجنوب ، والمقاومة المتنامية لخسائر التدخل العسكرى فى الشمال ، والذى سيصبح فى المحصـلة النهائية ، ورغم توفر كل أسباب القوة ، مقيدا على نحو أشد •

٣ ـ أمام تزايد المقاومة فى الشـمال للخسائر البشريـة ، التى يمكن أن تترتب على اخضاع الجنوب بالقوة ، فان الخيار الوحيد عسكريا أمام الشمال هو استخدام القصف الجوى من الفضاء ، واذا كان ذلك سيمثل قدرة جديدة على العقاب ، فانه لن يشكل أداة فعالة من أجل التغيير أو السيادة • « فالشمال يمكنه أن يعاقب الجنوب بالقصف من الجو ، ولكن لن يمكنه أن يفرض ارادته ، انه يستطيع أن ينتصر فى

حرب الخليج ، ولكنه لا يقدر على تغيير السلطة فى العراق ، ويستطيع أن يمهد « جروزنى » بالأرض ، لكنه لا يستطيع أن ينتزع روح الاستقلال من الشيشان · ويستطيع أن يقصف المدن فى جنوب لبنان لكنه يعجز عن ايقاف مقاومة الاحتلال » ·

٤ ـ فى وقت ما من القرن الواحد والعشرين ، سوف تحصل دولة شرق أوسطية بجانب اسرائيل على أسلحة تدمير شامل ، فتلك مسألة وقت فحسب ، وعندما يحدث ذلك ستتضاعف المخاطر على نحو فريد · لأن الدول الشرق أوسطية تميل الى أن تكون أكثر هياجا واضطرابا من الداخل ، بسبب طبيعتها الخاصة وبنائها السكانى · وهذا ما يعنى أن تكون أكثر عدوانية على المستوى الدولى ·

ويمكننا أن نلاحظ أن هذا التفسير الديموجرافى المستحدث لنمو مخاطر الشرق الأوسط · يغفل أساسا طبيعة المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة فيه ، ويلحق الشر بدول الجنوب لمعطى بنائى ، فالشر كامن وأصيل فى هذه البنية الجغرافية السكانية ، وهو متصاعد النمو ، وبغض النظر عن اتجاه وطبيعة تطورها ، ومصالحها ، وتوجهاتها الأيديولوجية · أى أن صراع المصالح أو صدام المصالح على وجه ادق ، لا علاقة له بنمط النمو الاقتصادى ، أو التوجه الاجتماعى ، فالصدام الحتمى على هذا النحو بين الشمال والجنوب ، ليس صداما سياسيا أو اقتصاديا ، وانما هو صدام حضارى ، تتسبب فيه البنية الشرق أوسطية نفسها ، التى تنحو الى اظهار طبيعة أكثر عدوانية على المستوى الدولى ·

(٦)

« القرن الأمريكى الجديد » ، اذن ليس مجرد تعبير عابر ، صاغه رئيس أمريكى عابر ، فى ظروف عابرة ، ولكنه رؤية استراتيجية مكتملة صاغها العقل الاستراتيجى الأمريكى · مستهدف أن يبقى دوره الامبراطورى ، مسيطرا ومنفردا على قمة النظام الدولى ، وان يحلل فى الوقت نفسه ، حسابات التكلفة التى تتطلبها ادامة هذا الدور وبقائه ·

لكن تعظيم المكاسب ، وتقليل الخسائر فى حسابات التكلفة الامبراطورية · يتطلب أن يدفع العالم ، وفى مقدمته الشرق الأوسط ، الثمن من دمه وخصوصيته وسيادته · وفى سبيل ذلك ينبغى أن تتغير الأدوار ، والمفاهيم والقوانين ، وأن تتم صياغة جديدة ، لعدو جديد ، كأنه اعادة ناطقة عصرية لرواية « فرانكشتين » · · !

٢ ـ السلام خيار استراتيجى لنا ، والسلاح خيار استراتيجى لهم !

تلك هى القسمة الأمريكية العادلة :

السلام خيار استراتيجى لنا ، والسلاح خيار استراتيجى لهم !

ثقافة السلام من نصيبنا وثقافة السلاح من نصيبهم .

لجان الاذعان لنا ، بحراب مفتشى الأســـلحة ، وخناجر مفتشى الحريات ، ولجان الاطمئنان لهم ، بصواريخ الباترويت وآرو ومنصات الاستطلاع الاستراتيجى .

نخبة الثروة عندنا يتحتم أن تدفع للصعود والجلوس فى مقاعد العقل والفعل ، والشرعية ، ونخبة القوة عندهم يلزم ان تبقى فى مواقع العقل والفعل والشرعية .

لم تكذب ولم تبالغ رؤية الجنرال ديجول اذن ، فبعد ثلث قرن يصبح ما سجله نصل عقله الثقافى ، ووزير ثقافته (اندريه مارلو) فى كتابه (السنديان) ، قابلا للبقاء والدرس .

لقد كتب (مارلو) بحروف ناصعة نبوءة (ديجول) ، عندما كانت أمريكا قوة صاعدة تضم ما تبقى من ارث الاستعمار التقليدى ، وهى ما تزال تضع فى عروة قميصها ، وردة يانعـــة لحرية الشعوب وحق تقرير المصير ، وكان نص النبوءة يقول :

« عندما يصبح الأمريكيون سادة العالم عن وعى ، فسوف ترون الى أى مدى ، سوف تصل استعماريتهم » .

(١)

كيف نعيد طـلاء الوجه الأمريكي بمســاحيق التجميل ، بعد أن تهرأت طبقات جلده ؟

بعض وسائل الاعلام العربية أجابت على السؤال بطريقتها فحذفت من تصريحات بوش ، أى اشارة الى تأكيد أو تجديد تعهده بنقل السفارة الأمريكية الى القدس ، واعتبرته ـ كما اعتبر بعض كتابنا شارون نفسه ـ مجرد كلام عابر فى لحظة عابرة • أما بعض وسائل الاعلام الأخرى فقد كلفت مراسليها فى واشنطن أن ينقبوا فى صحراء الموقف الأمريكى عن ظل أو ينبوع ماء ، وسمح المراسلون لأنفسهم بالاجتهاد • فاختار بعضهم أن يركز على المقارنة بين صورة بوش أمام شارون ، وصورة باول أمام الكونجرس ، ليستخرج من تهافت الثانى ، توازن الأول • واختار بعضهم أن يركز على رفض بوش الحاسم أن يعطى شارون صــورة مسبقة من يوميات ضرب العراق ، ليســتخرج من الرفض دلالة • على ان التحالف الاســتراتيجى بين أمريكا واسرائيل ليس قائما الا فى أذهان بعض المتطرفين العرب • واختار بعضهم أن يركز على اعتراض بوش على بناء آلاف المكعبات الاستيطانية قرب رأس العامود ، ليستخرج من الاعتراض دلالة على أن الادارة الأمريكيــة ما تزال تزن مواقفها الأساسية بموازين الشرعية الدولية •

ولم يكن فى ذلك كله وغيره شىء من الصحة ، فلقد تركت ـ مثلا ـ مهمة التوقف أمام المكعبات الاستيطانية الجديدة للمتحدث باسم الخارجية الأمريكية ، بعيدا عن الرئيس والبيت الأبيض ، ليقول أنها « لا تساهم فى السلام ولا فى الاستقرار » ، فلم يعد بنــاء المستوطنــات مرفوضا ، لأنه يتم فى أرض محتلة ، وانما أصبح مكروها ، لأنه لا يســاهم فى « التهدئة » ، التى أصبح يطلق عليها ، « الاستقرار » •

والحقيقة أن شارون لم يعد من رحلة صيده الأمريكية وقد حصل ـ حسب تعبيره ـ على دعم واشنطن لكل شىء ، بما فى ذلك رؤية اسرائيل الاقليمية ، فتعبير الدعم ليس دقيقا ، ولا كافيا للاحاطة بواقع الحال ، لأن ما عاد به (شارون) هو صياغة توافق استراتيجى أمريكى اسرائيلى ، لاعادة بناء وضبط أوضاع الاقليم • وما يبدو على السطح من بنية هذا التوافق الاستراتيجى • أقل بكثير مما يختفى منه بالعمق من طبقات ، أكثر عمقا •

على صعيد القضية الفلسطينية فان ما يبدو على السطح من بنية هذا التوافق الاستراتيجى ، بين أمريكا واسرائيل ، يمكن توصيفه على النحو التالى :

تنزيل القضية الفلسطينية ، من كونها قضية داخلية قومية عربية واقليمية ودولية ، الى اعتبارها قضية اسرائيلية داخلية بحتة · وذلك بفرض حلقتين من الحصار عليها :

ـ حلقة حصار عسكرى واقتصادى مباشر تتكفل به آلة الحرب الاسرائيلية ·

ـ وحلقة حصار سياسى تالية عليها تتكفل به أدوات الدبلوماسية الأمريكية ·

واذا كانت آلة الحرب الاسرائيلية عليها أن تتكفل باستخدام كل أسلحة القمع والموت والدمار ، باطفاء جذوة الانتفاضة المشتعلة فى الداخل · فان أدوات الدبلوماسية الأمريكية عليها أن تتكفل بمنع ومصادرة أية امدادات تعين هذه الجذوة على أن تظل محتفظة بتأججها · وقد صبت الادارة الأمريكية ، خلال حيز زمنى ضيق ، جهودا هائلة ، ومتعددة الاتجاهات ، لدفع القضية الفلسطينية فوق هذا المنحدر الوعر :

١ ـ لقد فتحت الادارة الأمريكية بنفسها أمام شارون ، طريقة الى لقاء سكرتير عام الأمم المتحدة ، فى مقر المنظمة الدولية ، ليلقى بنفسه على أذنيه · تحذيرا مباشرا · من السماح باقرار مبدأ ارسال مراقبين دوليين الى الأراضى المحتلة · وبينما واصل المندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة ، رفع سيف الفيتو ، أمام نطفة قرار مماثل ، تكفل سفراء الولايات المتحدة الأمريكية ، فى المنطقة العربية ، وعدد مؤثر من بلدان العالم الثالث ، بابلاغ وزارة الخارجية والمسئولين فى هذه البلدان ، تحذيراً مباشراً آخر ، من مغبة التفكير فى نقل قضية المراقبين الدوليين الى ساحة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، لاستصدار قرار منها ، بارسال هذه القوات وقد انطوى التحذير الأمريكى المنقول على خشونة واضحة بتأكيده على أن مثل هذا العمل من وجهة نظر أمريكا لن يكون عملا

ايجابيـا على جانب ، وسوف يتحمل من يدعو اليه ، ويسعى نحوه ، المسئوليـة عن سعيه ودعوته على جانب آخر ٠

٢ ـ وسحبت المخابرات المركزية الأمريكية ، بأمر رئاسى أمريكى ما تبقى من أطرافها فى هياكل اللجان الأمنية الفلسطينية الاسرائيلية المشتركة مع العلم بأن وجود هذه الأطراف فى هياكل اللجـان الأمنية ، تم بالحاح فلسطينى غالباً ، وعربى أحياناً ، بل أن هذا الالحاح لم يطلب أن تكون أطراف المخابرات المركزية الأمريكية موجـودة فى لجـان المباحثات الأمنية فحسب ، بل اشترط أن تكون موجودة فى آليـات تنفيذ الاتفاقيات الأمنية ، كى تكون شاهدا وحكما ، أمام سلوك اسرائيلى مكرر ، بالوصول الى اتفاق ثم نسخه فى التنفيذ ٠ وهو ما يعنى أنه اذا تمت العودة الى اللجان الأمنية ، فان القرارات ستكون اسرائيلية خالصة والشروط اسرائيلية خالصة ، والتفسيرات والتنفيذ اسرائيليـان خالصان ٠

٣ ـ وقدمت الولايات المتحدة الأمريكية ، تأكيدات عملية فى جميع اتصالاتها الاقليمية والدوليـة ، على تبنيها ليس فقط لأولوية موضوع الأمن ، من وجهة نظر اسرائيل ، بل على قبولها لتوصيف اسرائيـل لهذا الأمن ، وبالتالى فان وقف العنف الفلسطينى عندها ، سابق على أية مفاوضات ٠

ومع أنها ابلغت أكثر من طرف أنها ستظل خارج مفاوضـات السلام اذا قدر لها ان تبدأ ، وانها لن تقوم حتى بوضع اطار عمل ، لأية مفاوضات فى المستقبل ، ولن تقرر اهدافها ، فانها لم تمنع نفسها من أن تعرض صفقة غير متكافئة على عدد من الدول العربيـة ، بأن تقوم هذه الدول بايجاد صيغة لوقف الانتفاضة ، مقابل قيامها ـ أى الولايات المتحدة ـ باقناع الاسرائيليين بتخفيض الحصار على الفلسطينيين ، وليس العكس ، أى تخفيض الانتفاضة ، مقابل انهاء الحصار ٠

٤ ـ واذا تغاضينا عن أن الولايات المتحدة الأمريكية ، هى التى أجهضت مهمة لجنة التحقيق الدولية ، وحولتها الى لجنة تعويم دولية ، للحيلولة دون تجريم اسرائيل ، فكيف يمكن التغاضى عن طلب أمريكى ، أصبح مكرراً كأنه نشيد الصباح فى آذان عدد من أطراف القمة العربية وهو الا تتخـذ القمـــة العربيـة ، موقفـا أو قـرارا يعـنى من بين

ما يعنيه السعى الى اسـقاط شارون أو حكومتـه ، أى بمعنى آخر ، أن تتخذ القمة العربية قرارا غير مباشر ، بقبول شارون !

(٣)

وعلى صعيد الوضع الاقليمى فان ما يبدو على السطح ، من بنيـة هذا التوافق الاستراتيجى ، بين أمريكا واسرائيل ، يمكن توصيفه على النحو التالى :

اعتبار عملية السلام مجرد فرع من جـذع العـلاقة العربيـة الأمريكية وفصل هذا الفرع عن مجرد العلاقة ـ اعادة توصيف التهديدات الاستراتيجية من منظور مشترك ـ تجزئة المنطقه الى دول منفردة ومناطق مستقلة ـ تمكين اسرائيل من دور القوة الاقليمية الكبرى ، ومن وظيفة حارس تفاعلات الاقليم :

١ ـ أظن أن (كيسنجر) نفسه هو القائل مبكرا وقبل أن تنضج الظروف . أنه « لن تكون هناك عولمة اقتصادية ليبرالية ، دون عسكرة ، بقيادة واشنطن » . وهذا يعنى بشـكل أو بآخر ، تحويل القوة العسكرية الى استثمار اقتصادى ، سواء لفتح الأسواق بالقوة ، أو الامساك بمصادر الثروات الطبيعية بالقوة ، أو لمنع قيام تهـديدات للأوضاع القائمة أو القادمة بالقوة أيضا ..

٢ ـ فى عمق هذا التوافق الاستراتيجى ، تتبدى مقدمات تقسـيم وظيفى جديد فى المنطقة ، على أسس استراتيجية ، الى أقسام ثلاثة . وهو تقسيم يستهدف تحطيم هيكل النظام الاقليمى العربى ، واعادة صياغة بعض جوانبه ، واطلاق يد اسرائيل فى بعضها :

ـ منطقة الخليج العربى بدوله وممراته الاستراتيجية ، وثرواته فى دائرة نفوذ أمريكى خالص .

ـ منطقة دول جنوب البحر الأبيض المتوسط ، مضـافا اليهـا الأردن (وهى دولة لا تقع على البحر الأبيض . ولا ترتبط به الا وفق هذا التصور) . وهى منطقة شراكة أمريكية أوربيـة . يتم السـعى من خلال أشكال بعضها تفـاوضى ، وبعضـها أقـرب الى الضـغوط السـياسية والاقتصادية . الى دمجها تحت مظلة الناتو . علما بأن دمجها تحت

مظلة الحلف ، هو بمثابة توسيع لمدى عمل الحلف ، ولحدود تأثيره ، بما فى ذلك صلاحيات استخدام القوة المسلحة . وليس بالضرورة توسعا لعدد وحداته ، أو دوله ، أو دخول دولها فى اطاره . وبمعنى آخر ، فان شمال البحر المتوسط بقيادة الحلف الأنجلو ساكسونى ، سيكون مسئولا عن ضبط التفاعلات فى صياغة التوجهات فى جنوب البحر الأبيض المتوسط .

ـ الدائرة النيلية الجنوبية ، وامتداداتها الأفريقية ، مع جزء من دائرة البحر الأحمر . منطقه مستقلة عن المنطقتين السابقتين . تبقى غير محسومة ، أى مثلها مثل أفريقيا منطقة تنافس مفتوح بين أمريكا واسرائيل وبعض الدول الأوربيـة .

٣ ـ ستبقى اسرائيل مضطلعة بدورها فى عموم المناطق والأقسام السابقة ، فهى موجودة فى ظل امتداد الناتو الى جنوبى البحر الأبيض . وفاعلة فى تنظيم هذا الامتداد ، وبينها وبين العلاقات المتحدة شراكة استراتيجية ، تسمح لها بأن توظف نفسها (لمهمة محددة) فى دائرة الخليج العربى ، وبجميع المعايير ، فانها تتحمل مسئوليات خاصة فى الدائرة النيلية الأفريقية ، وظلالها على البحر الأحمر .

٤ ـ فى دائرة الخليج العربى وتخومه الآسيوية . كان التصور الأمريكى قبل فترة وجيزة ، فى ظل الادارة السابقة ، يدور فى اطار دراسة ، مشتركة للكلية العسكرية الأمريكية ، ولمركز أبحاث الكونجرس ، عنوانها « البحث عن سلام راسخ فى الخليج العربى » . وكانت الديباجة الأساسية للدراسة ، تدور حول فتح حوار اقليمى لتخفيف حدة التوتر بين الولايات المتحدة وايران والعراق ، وتقليص الخلافات بينها ـ أى الولايات المتحدة ـ وبين حلفائها حول العقوبات ، وذلك فى سبيل التعاون فى قضايا أمنيـة اقليمية) .

غير أن هذا الحوار الاقليمى المهدأ . كان يستهدف من واقع الدراسة « تشكيل مجموعة عمل للحد من التسلح فى الخليج ، تتولى مهمة تشكيل جهاز أمريكى (على غرار لجنـة الأمم المتحدة المكلفة بنزع أسلحة الدمار الشامل من العراق) ، وتكون وظيفة هـذا الجهـاز : (التفتيش الدائم عن كل أسلحة الدمار الشامل فى كل دول الخليج) . وهو ما يعنى اخضاع المنطقة كلها ، لمبدأ (حرية التفتيش عن الأسلحة) جنبا الى جنب مع مبدأ (حرية التفتيش عن الحرية الدينية) .

٥ ـ كان المقصود من تعبير (التعاون فى قضايا أمنيــة اقليمية) ، والذى خص بالذكر العراق وايران ، هو ـ أولا ـ بالنسبة للعراق ، انهاء العقوبات والقبول بالعراق كدولة طبيعية فى المنطقة ، مقــابل قبول العراق ان تستقبل المنطقة الكردية فى الشــمال ، الكتلة الفلسطينية فى لبنان ، لتوطينها بها ·

وقد سبق وأن طرحت أمريكا هذا المشروع قبل حــرب الخــليج ، متصورة ان قبولا عراقيا بمبدأ تهجين هذه الكتلة الفلسطينية ، سوف يستند الى اغراء ما يمكن أن تضيفه هذه الكتلة الى الجمهور العراقى ، سواء بمنطق التوازنات المذهبيــة الخاصة ، أو التوازنات الديموجرافية الخالصة · ثم عادت أمريكا واستخدمت عدة قنوات ، متلمسة أعادة طرح المشروع على العراق ، ولكن العراق أكد اصراره على الرفض ، وبالتالى فلم يكن ثمة أشكال اخرى متاحة بين أمريكا والعراق للتعاون فى (قضايا أمنية اقليمية) تتيح انهاء العقوبات ·

٦ ـ وحين انتهى رفض العراق توطين الكتلة الفلسطينية ، بدأ السعى الأمريكى لاحكام الحصار على جانب ، وتوسيع الاطار الجديد فى المنطقة الكردية . ليتسع لكتلة اكبر من الفلسطينيين ، وكتلة موازية من التركمان للاستيطان فى المنطقة ذاتها ، وتخفيف العبء عن تركيــا ، وقد يتسع أيضا ـ هذا الاطار ـ لأول ترانسفير يهودى عكسى من اسرائيل . يتكون من ٧٠ الف يهودى كردى ، يستوطنون فلسطين الآن ، ليبقق الهدف الأخير ، هو انشاء اطار جديد فى شمال العراق ، وبين العراق وتركيا ، متعدد القوميات والديانات ، يحول دون قيــام دولة كردية لا تقل بها تركيا ولا ايران ، ويمثل حلا لمشكلة توطين الفلسطينيين ، ويعمد بشكل مبتكر الى (لبننة المنطقة الكردية) ، ويمنحهــا فرصــة أن تنتفخ بما يساوى مليون لاجىء ·

ولقد بدأت خطوات تنفيذ المشروع عمليا مع التصعيد العسكرى الآمريكى ضد العراق . حيث تجرى الى جانب مقدمات بنية أساسية له فوق الأرض ، عمليات تدريب لقوة مسلحة له ، سواء فى شــمال العراق ، أو فى قواعد أجنبية فى البحر الأبيض ، أو فى داخل اسرائيل نفسها ·

٧ ـ وكان المقصود من تعبير (التعاون فى قضايا أمنيــة اقليمية) مع ايران · هو تخفيف التوتر معها ، والاعتراف لها بدور ما فى الخليج العربى ، وبدور ما لامتداداتها الجديدة فى قلب آسيا الوسطى ، شريطة

أن يتقاطع دورها مع دور روسى فى المسرح الاستراتيجى لأسيا الوسطى ، خاصة منطقة بحر قزوين من أذربيجان وتركستمان الى كازخستان وأوزباكستان ، فى الوقت الذى تداخلت فيه مع هذا المسرح ، بعد مد أنابيب بترول منه اليها ، تتوجه منها شرقا لتصلها بالنموات الاقتصادية الكبيرة فى آسيا ، خاصة الصين واليابان وكوريا (مع العلم بأن التأييد الأمريكى لطالبان لم يكن يرجع لما هو شائع الى تفريغ التأثير الايرانى هناك ، أو التلويح له بقوة اقليمية مندفعة • فلم يكن المطلوب من طالبان سوى استضافة وحماية خط أنابيب البترول الشمالى •

لقد كان ذلك كله يجرى فى اطار علاقات أكثر عمقا ، يتم بناؤها أمريكيا بين مسرح الخليج الاستراتيجى ، والمسرح الاستراتيجى فى آسيا الوسطى ، ولكن ايران بدلا من أن تتقاطع مساراتها مع روسيا ، تقابلت وتكاملت ، واتسعت خطوطها ومنحنياتها لحسابات عسكرية سواء فى مجال التسلح ، أو فى خلق تهديدات جديدة للموازين المحسوبة بين المسرحين •

وهكذا لم يعد لمشروع (التعاون فى مجالات أمنية اقليمية) صلاحية لا مع العراق ، ولا مع ايران ، ليتم من جديد وضعها كلوحة التنشين • أمام الشرق الأوسط ، ثم ليأخذ التوتر مع روسيا مداه ، وقوة دفعه ، حد الاقدام على طرد خمسين دبلوماسيا روسيا من الولايات المتحدة ، فى حادثة تجسس قابلة للتكرار ، ولا تحتمل طردا أو انذارا على هذا النحو ، لأن الولايات المتحدة لن تسمح لروسيا (وكذلك المانيا واليابان والصين بالدرجة الأولى) بأن تصبح قوة كبرى ولو فى حدودها الاقليمية ، ولن تسمح لها كذلك بالتمدد الى منطقة أخرى ، والسيطرة عليها ، على النحو الذى يمكن أن تجعل هذه المنطقة منها قوة دولية •

٨ ــ فى اطار هذا التقسيم الجغرافى الوظيفى السابق ، فان الادارة الأمريكية ، تبدى ضيقا متزايدا من أشكال التعاون الاقليمى داخل الدائرة العربية • وقد عبرت بشكل واضح عن عدم رضاها عن تعميق العلاقات المصرية السورية ، وعن عدم رضاها عن اتفاقية التجارة الحرة بين مصر والعراق ، فضلا عن أن تكون راضية ، أو راعية فى أن تشهد النظام الاقليمى العربى ، احياء لقاعدة تعاونه وتفاعله اقتصاديا أو سياسيا أو ثقافيا ، وهذا موقف ليس خاصا بالنظام العربى ، فجزء من رسالة هذه الادارة ، العمل على تفكيك كل أطر التعاون الاقليمية والدولية ، التى لا تخضع لها بشكل كامل ، والا كيف يمكن تفسير

تلك الرسالة التى حملها مؤخرا مندوب أمريكا الدائم فى الأمم المتحدة الى الدول الأفريقية ، مطالبـا اياهم بالسـعى من أجل تفكيك ما تبقى من بنية حركة عدم الانحياز !

(٤)

لست اعرف سببا محدداً ، لهـذا الفيض من التفـاؤل الذى غمر الشطآن العربيـة ، بالادارة الأمريكية الجديدة ، فور انتخابها وتجدد وجوهها ، بل قبل انتخابها وتحديد وجوهها ٠ فهل كان التفاؤل مدفوعا بطاقة ضيق بالادارة السابقة ، ووجوه أقليتها النافذة ، أكثر من اندفاعه بطاقة فهم ومعرفة وحساب ٠

ربما يقوم الدليل على ذلك فى شهادة باول ، فى كتابه (رحلتى الأمريكية) ـ الذى صـدر فى عـام ١٩٩٥ ـ حيث يؤكـد أن الرئيس كلينتون ، اتصل به ، قبل أولبريت ، وطلب منه أن يكون وزيراً لخارجيته ، بدلا عن (وارين كريستوفر) بعد أن أطبقت على الأخير من كل جانب ، تهم انحياز للعرب ٠ وصلت حد اتهامه فى بعض أوساط اللوبى اليهودى ، بالعداء للسامية ٠ ورغم رفض باول دعوة كلينتون ، لكن ذلك لا يمنع من احتمال أن ترشيحه قبل أولبرايت ، قد مر على مصفاة أولئك الذين رموا كريستوفر باتهامات باطلة ، بسبب نزوعه القـانونى ، واستطاعوا أن يطيحوا به من موقعـه ، ويستبدلوه بغيره ٠ لكن المدهش أن باول لا يفسر رفضه لمنصب وزير الخارجية فى ادارة كلينتون ، الا بمعرفته بكم العداء الدفين ـ على حد تعبيره ـ الذى يكنه الحزب الديمقراطى للمؤسسة العسـكرية الأمريكية ، وهذا العداء الدفين نفسه هو الذى دفعه الى الانتقال من الحزب الديمقراطى الى الحزب الجمهورى فى عام ١٩٨٠ ، دفاعاً عما رآه ، « الولاء للمؤسسـة العسكريـة الأمريكية . ورغم أن باول يصـف أيزنهـاور ، بأنه « المثل والقـدوة والبطـل » ، فان المسافـة بين الشخصـين والتجربتين والرؤيتين بعيـدة جـداً ، ربمـا بحـكم أن أيزنهـاور أمضى فتـرة طـويلة قبـل الحـرب العالميـة الثانيـة ، يعمل كاتبـا سياسـيا ، ووسـيطا فى شئون السياسة والدبلوماسية . ومـع ذلـك ، وقـد يبـدو الأمـر مثيراً للدهشة ، فان (باول) يبدو أقـل تشدداً ، وانحيازاً لاستخدام القـوة مـن كوندوليزا مستشارة الأمن القومى ، فهى من دعاة الحزم المتشـدد فى التعامل مع من تصفهم بـ « النظم الشريرة والقوى المعـادية » ، وهى من

انصار تطبيق نظرية (الردع الشامل) باستخدام السلاح ، وبلورة القوة كأداة فى حل مشاكل العالم ، ورغم أنها عازفة بيانو هاوية ، ومتزحلقة محترفة على الجليد ، الا أن موضوع دراستها للدكتوراه ، تركز على العلاقة بين المؤسسة العسكرية فى الاتحاد السوفيتى ، قبل انهياره ، والمؤسسة العسكرية فى تشيكو سلوفاكيا ، قبل أن تقبل القسمة على دولتين . واذا كان نائب الرئيس (تشينى) هو وزير الدفاع فى حرب الخليج ، واكثر الأسماء سطوة وسطوعا فى عالم احتكارات البترول الأمريكية ، وأقرب المقربين الى عقل بوش الابن ، الى حد قولة عنه أن ما يقه له لسانه ـ أى تشينى ـ انما ينطق عنه أى بوش · فانه ـ أيضا ـ أكثر الأمريكيين ايمانا بالرؤية الاستراتيجية لنيكسون ، الذى كان يرى أن الأمم تعلن الحروب ، عندما يحقق ذلك مصالحها ، وان الدولة العظمى عليها ان تفرض القواعد التى تؤمن بها على العالم أجمع · وأن فكرة أن تتولى الأمم المتحدة الوساطة بين العرب والاسرائيليين هى فكرة مرفوضة . كما ان بين تشينى ورامسفيلد وزير الدفاع وشائج صلات فكرية قوية ، سواء على مستوى دور حلف الأطلنطى ، عبر العالم ، أو على مستوى بناء درع مضاد للصواريخ · بغض النظر عن نتيجة ذلك فى العلاقة سواء مع أوربا أو روسيا أو الصين ، ولهذا ـ أيضا ـ عندما اراد بوش أن يمسح جانبا من الاجهاد فى العلاقة بين الجمهوريين والديمقراطيين ، أثناء الانتخابات · باختيار وزير ديمقراطى ، اختار وزير تجارة كلينتون (نورمان منيتا) ، ولكنه عينه وزيرا للمواصلات ، وكان أهم ما يميز (منيتا) ، ليس أنه يابانى الأصل ، وانما انه رئيس سابق لمجموعة لوكهيد الصناعية العسكرية الكبرى ، لتكتمل (عسكرة) الادارة الأمريكية ، ولتنفتح أبواب جديدة ، لتفسير ما قال كيسنجر مبكرا : (لن تكون هناك عولمة اقتصادية ليبرالية ، دون عسكرة بقيادة واشنطن) · ثم لتنفتح أيضا ، أبواب أوسع للتعاون بين ادارة أمريكية ، تمثل (نخبة القوة) فى أمريكا ، وبين وزارة تمثل (نخبة القوة) فى اسرائيل ، يقودها شارون ، ويصنف من بين وجوهها ثمانية عشر وزيرا ، على أنهم « خبراء فى شؤن الأمن » ·· !

(٥)

على هذه الخلفية الواسعة المشحونة ما هى رؤوس الجسور التى علينا ان نفتحها وان نوسع حدودها ومداها ؟ :

١ ـ ان ادراك الخطر يقتضى أن تزال تناقضات وحساسيات لا ينبغى لها أن تنشأ بين حقوق السيادة لكل دولة عربية ، وما يمكن أن

تتنازل عنه طائفة مختارة لصالح الأمن القومى العربى ولصالح العمل العربى المشترك ، لأنه لن يكون مفيدا لأحد أن تتحول الحاسة القومية التى ألهبها الاحساس بالخطر ، الى حاسة ذاتية تنظر الى مصلحتها الوطنية من زاوية غير صحيحة ، فنراها فى تناقض مع المصلحة القومية العليا .

٢ - اذا كانت تلك هى افتتاحية النجاح ، فلابد أن تقود الى الحلقة الأساسية للمهمة ، وهى ما أتصور أنه ، اعادة بناء أوضاع النظام الاقليمى العربى ، بأبعاده السياسية والاقتصادية والثقافية والأمنية ، أى بمعنى آخر ، التحرك بصيغ محددة لرد الاعتبار لهذا النظام ، ولفلسفته ، ومضمونه ومواثيقه باعتبار ان هذا التحرك هو الاتجاه الصحيح فى الوقت نفسه للوصول الى حالة قد تمكن من فرض السلام . ذلك ان السلام لن يتحقق دون فرض ، ولن يفرض الا فى ظل نظام اقليمى عربى صحيح ، وفوق قاعدة صحيحة من موازين القوى ، وهذا ما يتطلب دون شك ، اعادة دمج العراق فى هذا النظام .

٣ - الانتقال من منهجية السلام بالتجزئة الى منهجية أخرى ، تفرض تصور الصفقة السياسية المتكاملة . وهو ما يتطلب تحقيق عدة أمور :

● مواجهة تلك المحاولات المستميتة لتحويل القضية الفلسطينية الى قضية اسرائيلية داخلية ، بدمجها سياسيا واقتصاديا فى الوضع الاقليمى العربى كله . وهذا لا يعنى فقط ، تقديم الدعم المادى المناسب واللازم لصمود الفلسطينيين ، ولكن تقديم مرد سياسى يرفع القضية الى كل المنابر الدولية والمنظمات الاقليمية ، كما يعنى أيضا محاصرة اسرائيل ، سياسيا واقتصاديا فى أنحاء الاقليم ، وسياسيا فى دائرة دولة واسعة .

● اعادة توصيف مشروع السلام العربى ، أو السلام المعتمد عربيا فى صيغته النهائية ، بطرح مشروع يتضمن شكل التسوية بأبعادها المختلفة ، عبر كل المسارات ، سواء بالنسبة للضفة الغربية والقدس والدولة الفلسطينية ، أو سواء بالنسبة لنزع أسلحة الدمار الشامل من المنطقة ، مع بلورة آلية عربية للحفاظ على الجوهر الكلى للمشروع ، باعتباره الحد الأدنى المقبول عربيا . ومن أطرافه المباشرة .

● وضع قائمة متدرجة بالخيارات العربية البديلة فى مواجهة الخيارات الاسرائيلية البديلة . ويمكن فى هذا الاطار تصور عدة خيارات متتالية لحكومة شارون ، يحتاج كل منها الى خيار عربى بديل . فاذا

كان خيار حكومة شارون هو رفض التفاوض الا بعد ايقاف الانتفاضة ، واستمرار آلة الحرب الاسرائيلية ، في دورها الراهن ضـــد الشعب الفلسطينى ، فعلينا أن نجيب ما هو الخيار العربى البديل ٠

واذا كان خيار حـكومة شارون هو التمسك ببرنامجهـا المعلن : القدس عاصمة موحدة لاسرائيل ، ولا انسحاب من الجولان ، ولا مساس بالمستوطنات الخ فعلينا أن تجيب ما هو الخيار العربى البديل ؟

واذا كان خيار حـــكومة شارون هو اللجوء الى عمليات عسكرية لفرض تصورها أو فرض أوضاع جديدة فوق الأرض ، مثل تقويض السلطة الفلسطينية ، ودخول المدن الفلسطينية ، أو مثل شن حرب محدودة ضد لبنان ، أو توجيه ضربة عسكرية ضد سوريا ٠٠ الخ فعلينا أن نجيب ما هو الخيار العربى البديل ، في مواجهة كل خيار اسرائيلى بديل ٠٠

دون ذلك ، فسوف تبقى القسمة الأمريكية العادلة : السلام خيار استراتيجى معلق لنا ، والسلاح خيار استراتيجي معلق لهم !

٣ ـ ادراك الخطر !

لا يمكنك أن توقف نهر التاريخ · وتخرج منه كي تجفف ملابسك ، وتلتقط بعض الصور التذكارية ، رأنت تنظر وراءك في غضب · ثم تعاود الانغماس في مياهه الجارية · لأنه لا أحد يستطيع ايقـاف التاريخ ، ولا أحد يمكنه الخروج عليه · فالخروج من التاريخ أو البقاء فيه ، رهن بارادة التاريخ ذاته ، مع أن التاريخ في النهاية هو المجرى الحقيقي ، لارادة الانسانية الواسعة ·

لذلك عندما اختار د· فوزي منصور لدراسته المبدعة قبل سنوات ، عنوان « خروج العرب من التاريخ » ، جاء العنوان صادما ، فقد كان من بين ما يعنيه ان العرب فقدوا ارادة البقاء في التاريخ · وهي آخر ما تبقى لديهم من أسلحة المقاومة · رغم أنها كانت أول وأمضى أسلحتهم التاريخية ، لأن التـاريخ ـ في تقديره ـ قـد يصـبر على قـوم في هزائمهم ، أما ما لا يتسامح فيه أبدا ، فهو ان يدير القوم ظهورهم له ·

ان منحنى التطور القومي العربي نفسه · قد لا يبتعد عن هذا المعنى ، فقد تحول النسب العربي الى انتماء · ثم تحـول الانتماء الى ادراك ، وتحول الادراك الى دور حضاري تاريخي · فهل صعدنا الى السطح ثم نزلنا سلالم التطور القومي العربي من الناحية الأخرى ، أي من الدور الحضاري التاريخي ، الى الادراك ، ثم الى الانتماء ، ثم انتهينا الى أن نجتمع مبعثرين تحت سقف النسب ؟!

كثيرون أولئك الذين ينظرون وراءهم في غضب هذه الأيام ، وكأننا قد وكلنا بأحدى معصمتين · اما ان نعيد تفسير الماضي ، واما أن نعيد بناء شظاياه في داخلنا ، وفي كلتا الحالتين ، علينا أن نشرع في تمزيق أرواحنا ، كما تأخذ الندابات في تمزيق ملابس الحداد ، وفي كلتـا الحالتين ـ أيضا ـ أما أن ينتهى بنا الأمر الى حالة « نقد ذاتي » · كأنه الصراخ الذى نتنفس به بخار الغضب المكتوم · أو نتتهي الى حالة « اوي كاذبة · بأن نعلق كل الأخطاء والعورات والمثالب والهزائم والتشرزم على مشجب سوانا ·

أليس من قبيل المفارقة - مثلا - أن القرن العشرين ، كان قرن التحرر الوطنى والجلاء عن المستعمرات ، وتصفية أشـــكال الاستعمار الموروثة ، بينما كان جله للعرب وحدهم ، مزرعة لنمو هذا الاستعمار الاستيطانى التوسعى ، وكأنه قادم من زمان انقضى ، وعصر انطوى ، أو كأن تاريخ هذه المنطقة ، غير تاريخ العالم ، وزمانها غير زمانه ٠

من المؤكد أن المستقبل لا ينمو من عوامل ليست قائمة فى الواقع ٠ وأن ذلك ينطبق على الحاضر ٠ عندما كان مستقبلا منتظرا . كما ينطبق على الماضى . عندما كان فى رحم الغيب ، ولكنك لا تستطيع أن تجد منهجا عربيا صحيحا ، أسس رؤية لتاريخ النصف الثانى من القرن الماضى ، على هذا الأساس ٠ ان لدينا دائما انقطاعات ، تشبه تلك المحاولة المستحيلة للخروج من نهر التاريخ ، ثم النظر الى الخلف فى غضب ٠ والعودة الى الانغماس فيه ٠

فى أعقاب هزيمة ١٩٤٨ أجرت الذات العربية جلدا موجعا لنفسها ٠ وكانت أكثر المفردات تعميما فى الحياة السياسية الغربية ، ربما لحقبة كاملة تالية ، هو تعبير النكبة ، وفى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ جرت مرة ثانية أوسع عملية جلد للذات العربية ، وتراوحت بعدها أكثر المفردات العربية شيوعا بين النكسة ، والهزيمة مع أن الصلة الشكلية بين الحدثين لم تكن باليقين وفقا على أن القوى السياسية والاجتماعية الصاعدة التى خرجت من رحم النكبة ٠ وقادت التحرر والتغيير والتحديث فى العالم العربى ٠ هى نفسهـا التى تدحرجت من بين يديهـا صخرة النكسة أو الهزيمة ٠ لكننا ظللنا دائما عند كل مفصل تاريخى ، نبدأ التحول بجلد الذات ، أو بتأسيس نوع من النقد الذاتى ، سواء تم من فرد بعينه ، أو من تيار ســـياسى ، أو اتجاه فكرى أو جماعة ســـياسية ، أو توزعت مفرداته على المجتمع بكل أفراده وتياراته واتجاهاته ٠ لكنه لم يحدث مرة واحدة ، أن تحول النقد الذاتى الى مراجعة نقدية ، ليجيب على السؤال الذى ظل معلقا : لماذا كانت النكبات والهزائم من نصيبنا غالبا ، وكانت الانتصارات بعض أنصبة خصومنا ، لماذا تقدموا وتراجعنا ، صعدوا وهبطنا ، تحسنت أوضاعهم وموازين قواهم ٠ وساءت أوضاعنا وموازين قواهم ٠ ان المراجعة النقدية أمر مختلف عن النقد الذاتى ، فالنقد الذاتى قد يكون وسيلة تنفيس ، وقد يكون أداة تخفيف ، وقد يكون عامل امتصاص لغضب الناس ٠ أما المراجعة النقدية ، فهى استجلاء الأصول والجذور ، واستيطان المناهج والمواقف النقدية ، فهى استجلاء الأصول والجذور ، واستيطان المناهج والمواقف ، وأساليب ادارة الحياة ، وطرائق المعرفة والثقافة والحكم ، وفصـــل الخيط الأبيض من الخيط

الأســـود فى المجتمع والنظام السياسى ، والبناء الاجتماعى • والبيئة الفكرية والمعرفية ، لاعادة النظر فى كل ذلك • واذا كان النقد الذاتى ينصرف الى خطأ ذاتى ، أو قصور شخصى ، أو جزئى أو عابر ، فان المراجعة النقدية معنية ، بكشف ما هو عضوى وبنائى فى تراكيب الحياة والمجتمع • ولكننا اخترنا دائما النقد الذاتى ، ولم نختر المراجعة النقدية ، وعلى بساط الأول صور بعض العرب لبعضهم ، أن كل شىء فى الأمة العربية ينطوى على خطأ جسيم وتحولت سهام النقد الى ما هو صحيح وسليم ، أكثر مما توجهت الى بواطن العلل والتعب • بل وصور البعض للبعض أن العلة انما تكمن فى كونهم عربا ، تكمن فى انتمائهم ، وفى عقيدتهم وقبل ان يتمكن جنود عرب من أن يعبروا أكبر مانع مائى فى التاريخ ، ويمزقوا الأسطورة على الجانب الآخر ، كان الشك قد طال قدرة العرب ذاتها ، على أن يحسنوا فنون القتال ، كما يحسنون فنون الخطابة والقول • بل أن تمزيق الأسطورة والانتصار عليها لم يحل المشكلة ، ولم يوسع الادراك باليقين • فقد ظل مذاق الهزيمة غالبا على طعم النصر ، والاحساس بالفشل أقوى من الاحساس بالنجاح ، ورماد حرائق الانكسار ، يغطى حدائق الانتصار •

هل تشابه البقر علينا ، أقصد هل ظلت المشكلة فى جوهرهـــا تتعلق بطبيعة ادراكنا لأنفسنا على جانب ، كما تتعلق بدرجة ادراكنا للخطر على الجانب الآخر •• ؟

أذكر اننى تحدثت طويلا وكثيرا ، مع محمود رياض عن هذه المسألة ، طبيعة ادراكنا للخطر ، وأنه أفاض فى بناء المشاهد والصور التى تؤكد أن هذا الادراك ظل غائبا لسنوات طوال • وظل ناقصا لسنوات أطول •

لقد قال لى على سبيل المثال انّ الادراك الفلسـطينى للخطر ظل سابقـا على كل ادراك عربى سواه ، حتى أنه عندما كان الفلسطينيون يجيئون الى القاهرة ، خـــلال الأربعينيات ويطرحون مخاوفهم من قيـام دولة يهـــودية • ويشرحـون مخاطر الحركـة الصـــهيونيـة ، كانت الأحزاب المصرية كلها ، تتعامل مع ما يطرحون على أنه من قبيل المبالغة لا أكثر • وأن الأمر لم يكن مختلفا مع بقية العرب ، رغم ان الفلسطينيين كانوا يقاتلون قتالا ضاريا على مرآى ومسمع كل العرب ، منذ بواكير القرن الماضى •

وبعد أن انتهت أعمال القتال فى حرب عام ١٩٤٨ ، كان محمود رياض نفسه ، هو الذى وقع اتفاق الهدنة (رودس) ، تحت اشراف « بانش » ممثل الأمم المتحدة ــ والغريب ــ حسب رواية رياض لى ــ

انه عندما تمت صياغة الاتفاق ، الذى كان يراه اتفاق سلام كامل ، ذهب الى القاهرة ليقابل رئيس الوزراء ابراهيم باشا عبد الهادى بصحبة حيدر باشا وزير الدفاع ، ليسأله ، هل نحتفظ بلواء عسكرى مصرى واحد فى غزة ، أم بثلاثة ألوية ، وكان قرار رئيس الوزراء هو الاحتفاظ بلواء واحد ، لأنه رأى بدوره أن الاتفاق ، بديباجته ونصوصه ، سيحرم على الطرفين العودة الى القتال . وعند التوقيع سمع رياض ، بأذنيه من الجنرال يادين (الذى أصبح بعد ذلك نائبا لمناحيم بيجن) ما يفيد أن اتفاقية الهدنة هى الخطوة الأساسية لتحقيق السلام الدائم ، أما رياض نفسه فقد خرج بانطباع بأن النزاع المسلح بين اسرائيل والدول العربية قد انتهى تماما ، وزاد يقينه عندما وقعت الأردن ولبنان وسوريا على اتفاقيات مماثلة ، فقد كانت الاتفاقيات تنص على منع القوات المسلحة للطرفين من القيام بأى عمل عدائى ، أو التخطيط له ، أو التهديد به . بل كانت بنودها ، غير قابلة للتعديل أو التبديل ، أو الالغاء .

ولقد ظل هـذا الانطبـاع قويا فى مصر ، والوطن العربى كله ، فيما بعد قيـام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بل ظل ذلك يقين عبد الناصر الراسخ نفسه . وعندما تولى رياض ادارة فلسطين فى القيادة العـامة للقوات المسلحة . ولاحظ من متابعته ، ان اسرائيـل تعمل على زيادة قواتها المسلحة ، بينما تأخذ فى جذب مئـات الألوف من المهاجرين . ذهب الى عبد الناصر . وتحدث معه عن ضرورة تقوية الجيش المصرى ، وكان عبد الناصر هو الذى استبعد أن تقوم اسرائيل بمغامرة عسكرية من أجل التوسع ، وأن مشاريع التنمية فى مصر ، الفجوة تحديدا ، بل اننى أعتقد أن عوامل متداخلة ، ساعدت هذه الفجوة فى ادراك الخطر ، درجة وطبيعة ، على أن تزداد اتساعا ، بدليل هذه الأمواج المتفائلة التى غمرت شواطئنا قبيل مؤتمر كامب ديفيد الأخير ، بأن السلام بات قاب قوسين أو أدنى ، ثم بدليل هذه الخطابات والآراء السياسية التى تتصادم فى الفضاء العربى بعد انهيار المؤتمر ، محاولة دفع نفس الأمواج المتفائلة ، الى حواف الشواطىء نفسها .

قبل المؤتمر ، كانت المهمـة التى أوكلت الى أهم مراكز البحـوث والدراسات فى مصر ، تدور حول سؤال واحد : هو ، ماذا بعد أن يتحقق السـلام . ثم انقذف السؤال نفسه ، عبر صفحات الصحف وشاشات والتليفزيون : ماذا بعد أن يتحقق السلام ؟

ولم يفطن أحد من أولئك الذين اندفعوا يرسمون خطوطا وهمية ، فوق خرائط وهية ، انهم انما يغزلون خيوط العنكبوت ، فوق مغزل حتمية تاريخية ، لم تعد قائمة فى الواقع ·

ثم بعد المؤتمر ، استمر غزل خيوط العنكبوت ، ولم تتوقف محاولات اقناعنا ، بأن القمة « نجحت فى اختراق التابو للصهيونى وانها ساهمت فى تضييق الفجوات وتطوير المفاهيم أو أن التوصل الى اتفاق « آت لا ريب فيه » ، بل ان بعض الباحثين واصلوا حقننا بأكذوبة أن « اسرائيل ذاهبة بالحتم الى مرحلة ما بعد الصهيونية » ·

أعود للقول مؤكدا أنه دون ادراك الخطر ، درجة وطبيعة بشكل صحيح ، فستظل الفجوة ، تزداد اتساعا بين ما تتطلبه الحقائق فوق الأرض ، من رؤى وأفعال وبين ما تفرضه الظنون والأوهام ، وفى هذا المجرى الواسع ، فقد أكدنا أكثر من مرة اننا بصدد تحول جديد فى أوضاع الاقليم ، عنوانه الصحيح هو « انقلاب استراتيجى كامل ، يجرى انضاج عوامله ، وفرضها بالقوة ، وهو انقلاب لا يطول المنطقة العربية وحدها ، ولكنه يمتد عبر امتداداتها العضوية الآسيوية ، وتخومها الأفريقية الواسعة · وان مواقف الادارة الأمريكية الأخيرة ، انما تعكس بشكل واضح ، بعض مظاهر هذا التحول أو الانقلاب الاستراتيجى ·

لقد كتب هنرى كسنجر قبل ثلاث سنوات فى ورقة لأحد دوائر الأبحاث الاستراتيجية فى الولايات المتحدة يقول ما يلى بالنص ·

« ان مفاوضات الشرق الأوسط قد بلغت منعطفا فلسفيا » ، « واذا كانت عملية السلام تسير منذ عام ١٩٧٣ بأسلوب الخطوة خطوة · فقد بلغنا نهاية هذا النهج » ·

وما هو البديل : « تسوية جميع القضايا فى سلة واحدة من المفاوضات ·

ولقد تم دفع الموقف الفلسطينى باستمرار نحو المنحنى الزمنى — دون حتى تنفيذ استحقاقات الاتفاقيات المرحلية — الذى لا بديل عنده ، من وضع جميع القضايا ، فى سلة تفاوضية واحدة ·

غير ان ما ينبغى ملاحظته بعمق ، أن الموقف الأمريكى نفسه ، قد طور نفسه · نحو الجانب الآخر ، فى اتجاهين :

الأول : تكفلت الواشنطن بوست بالتعبير عنه ، بانه « بداية تحول فى مواقف واشنطن الى انحياز صريح الى اسرائيل » .

ان الانحياز الأمريكى ظل قائما طوال الوقت دون شك ، ولكنه ظل مستترا أغلب الوقت ، تارة تحت قناع « راعى عملية السلام » ، وتارة تحت قناع « الوسيط العادل » ثم الوسيط المحايد ، ثم اختلفت أقنعة جديدة مثل «منشط التفاعل » (Catalist) ، ولكن واشنطن فى كل الأحوال لم تظهر انحيازها صريحا خلال مراحل المفاوضات بهذه الدرجة من الانكشاف .

ولم يكن التعبير عن الانحياز لغويا ، أو فى المطلق ، وانما كان يطول قضايا محددة ، فقد تحول الموقف الأمريكى ، من قضية المستوطنات - على سبيل المثال - من أنها غير شرعية . الى أنها عقبة على طريق السلام ، ثم أزيلت العقبة وتعبيرها ، وارتكز الخطاب الأمريكى الأخير على أنه ، يمكن ايجاد حل لمشكلة المستوطنات بأن تبقى فى حدود اسرائيل .

وتحول الموقف الأمريكى من قضية القدس ذاتها ، فقد رأى الرئيس الأمريكى ، ان الأفكار الاسرائيلية حول سيادة فلسطينية شكلية على أجزاء من القدس الشرقية ، انما « تمثل حلا عادلا » ، بينما كان جوهر الحل الاسرائيلى الذى تبنته الادارة الأمريكية بالكامل ، لا يعنى أكثر من تقشير الغلاف الفلسطينى السميك ، من حول نواة القدس القديمة الصغيرة . أى اعادة صياغة البنية الجغرافية للقدس الشرقية ، بالتخلص من الأحياء العربية ذات الكثافة العالية .

ولم يكن الانحياز الأمريكى مختلفا فى قضية « حق العودة » فقد وضعها فى مربع اسرائيلى اسمه « لم شمل العائلات » ، بل ودمجها فى صندوق اقتصادى واحد ، لتعويض أولئك اليهود الذين أخرجهم العرب بالقوة من ديارهم !

الثانى : وهو الأهم ، ان التحول فى الموقف الأمريكى ، أو الانحياز المكشوف ، لم يبق فى حدود صياغات لغوية مجردة ، وانما سعى الى أن يترجم نفسه ، الى صيغ جديدة ، للاكراه السياسى ، تجاه الفلسطينيين . يدخل فى باب ذلك التهديد بنقل السفارة الأمريكية الى القدس ، أو وقف المساعدات ، أو التحذير من اعلان دولة فلسطينية فى موعد مؤجل ومستحق لها . كما يدخل فى بابه حديث كلينتون المسهب الى عرفات فى لحظات الكامب الأخيرة ، عن مخاطر عدم الوصول الى تسوية .

٥ ـ تعكس بعض المواقف الاسرائيلية الأخيرة ، بشكل واضح • بعض مظاهر هذا التحول أو الانقلاب عندما قال عرفات لباراك ، فى معرض حديثه داخل كامب ديفيد عن الحرم القدسى ، أن المساجد القائمة هناك هى للفلسطينيين ، رد باراك قائلا : ولكن الهيكل اليهودى قائم تحتها •

أى ان عرفات كان يواجه رجـــلا يتحدث من داخـــل الأسطورة الصهيونية ، والحقيقة أن اسرائيل ذاتها تعبر منعطفا أكبر للبقاء داخل للبقاء داخل رحم الأسطورة ، بينما نرى امكانية أن تتقدم وظيفيا فى الشرق الأوسط ، بحـكم هذا التحول الاستراتيجى ، دون أن تفقد هذا الوجود • بل أن الصهيونية تعيد تعريف نفسها من جديد على أنها « الجهد التاريخى لانزال القدس السماوية الى أسفل ، واقامة سـلطة يهوديه على أرض اسرائيـــل والقدس ، واعادة مظلة داود التى ســـقطت » • وهو تعريف ليس من عندى ، ولكن « يدعوت احرونوت » ، هى التى قامت بتوزيعه قبـل أيام • ينبغى أن يكون واضـــحا أن اسرائيـــل تدفع موجها اليمينى الى الأمام والى أعلى ، وأنه ليس ثمة معنى لسقوط « بيريز » فى مواجهة « قصاب » ، الا أن الصهيونيـة الاقتصـــادية ، لم تعد تشـكل اتجاها أوليا داخل الجيتو ، فقد مثلت فى مرحـلة تجاوبا اسرائيليـا ، صـــحيحا مع متغيرات كبيرة فى موازين القول بالمنطقة ، ولكنه تجاوب كان محكوما عليه بأنه يظل مؤقتا وعارضا ، ومرتهنا ببقاء هذه الموازين ، واطراقها على حالهم ، أقصد انه كان شكلا من التعبير الاسرائيلى المؤقت ، قبل أن يعود الخلل الذى تستند اليـــه الصهيونيـة السياسية ، الى دفعها من جديد ، نحو مقدمة المسرح السياسى الاسرائيلى •

ودون أن أدخل فى تفاصـيل ، فان اسرائيـل تنتقل فى اطار هذا الانقلاب الاستراتيجى فى أوضاع الاقليم ، من مرحلة استراتيجية الردع ، الى مرحلة استراتيجية القدس •

٦ ـ ثم ان الفلسطينيين أنفسهم قد جرى تقشـــير لحمهم كله فى الكامب الأخير ، ولم يكن ممكنا ان يستسلموا أمام موقف اسرائيلى وأمريكى منهجى ، يعمد الى اجبارهم على تســـليم ما تبقى من الهيكل العظمى لهم ولفلسطين • كان من بين عملية تقشـــير اللحم الفلسطينى أو بقاياه ، انتزاع موافقة ببقاء المستوطنات فى كتل استيطانيـــة تحت الســيادة الاسرائيلية ، وكان من بينها ضم اسرائيل لمناطق استيطانية فى القدس الشرقية لتكون داخل حدود القدس القريبة • وفى اطـــار الســيادة الاسرائيلية ، وكان من بينها تجاوز مسالة العودة الى حدود عام ١٩٦٧ ، وكان من بينها وضع قيود على حق العودة ، وطمس دلالاته ومستحقاته

القانونية والسياسية ، وكان من بينهـا التنازل عن حائط البراق والحي اليهودى ، فماذا بقى من اللحـــم الفلسطينى ليضـــاف الى ما اقتطفه « شارلوك » ، حيا وبالدم ، وهل كان يمكن أن يرهن الفلسطينيون ما تبقى من هيكلهم العظمى ؟!

٧ ــ ماذا بمقدورنا ان نفعل ، اذا أدركنا خطر أن مشروع السلام قد سقط بالفعل استراتيجيا ٠

ليس المطلوب بالضرورة أن نعلن عن موتـه ، وليس المطلوب بالضرورة ، أن نذهب لنوارى جثته التراب ٠ لتظل الجثة حاضرة فى عيون الدنيا ، شاهد على أننا فعلنا أكثر مما ينبغى ، وتنازلنا بأكثر مما نطيق ، وكابدنا من أجل هذا السلام ، ودفعنا ثمنا غاليا ، بأكثر مما نحتمل ٠ وعلى الذين قتلوه مع سبق الاصرار والترصد ، أن يواروا هم جثته التراب ، وان يتقبلوا بأنفسهم العزاء فيه ٠

٨ ــ ما هو المطلوب ــ اذن ــ وعلى وجه التحديد ٠

قد يكون المطلوب ٠ مراجعة نقدية صحيحة لتاريخ عربى طويل من طلب السلام ، والسعى من أجله ، وقد يكون المطلوب ، ارادة قوية للبقاء فى التاريخ ، لكن المطلوب بالدرجة الأولى هو أن نوزع على أنفسنا الآن ، رؤية صحيحة لادراك الخطر ، وتوضيحا صحيحا له ، درجة وطبيعة ، ودون ذلك ٠ فسوف ننقل أنفسنا بأيدينا من آفاق الحياة الرحبـــة ، الى جدران متاحف التاريخ !

٤ ـ ردا على توماس فريدمان : أهرامات مصر ليست ملوثة ، وتمثال الحرية ، ليس نظيفا ..

اذا قدر لك ان تقرأ هذا المقال الأخير ، الذى نشرته (يوم ٢٨ مايو ٢٠٠١) • صحيفة نيويورك تايمز موقعا باسم الصحفى الأمريكى ، توماس فريدمان ، فأغلب الظن • انك ستتعرض لتلك الحالة المرضية الغريبة المتتالية الأعراض ، التى أصابتنى :

حجم هائل من الغضب ، تشعر معه أن الدم المصرى الذى يجرى فى عروقك ، قد أصبح لهبا ، وأن مداره فى جسدك ، يوشك أن ينفجر ، به وبك • ثم سرعان ما تتولد فيك ، حالة ، تالية ، غالبة ، من التقزز الذى يقارب الغثيان •

وبين اشتعال الغضب ، وانفجار التقزز ، سوف تجرى الصور ، أمام عينيك ، وسيكون بمقدروك أن تتخيل توماس فريدمان هذا ، فى أشكال غريبة ، ستكون قادرة كلها ، على أن تثير عندك مزيدا من النفور والتقزز •

بالنسبة لى فقد فرضت على ، لحظة جريان الصور ، أن أتخيل قلم فريدمان على صورة أنبوب مفتوح ، من طرفه الآخر ، موصـول بنهاية معدته ، أو على وجه الدقة ، موصول بتلك المسـاحة البعيدة ، التى تنشط فيها البكتريا ، وتتعفن الفضلات ، وتنفجر الأحماض فقاعات من غازات ملوثة ، ذلك أنه ليس فى المقال كلمة أو جملة أو تعبيرا ، يمكن أن يكون قد خرج من غير هذا المكان ، وبغير هذا الأسلوب •

وبالنسبة لى ـ ايضا ـ فقد فرضت على ، لحظة جريان الصور ، أن أرى أن فم فريدمان هذا ، لايخرج كلمات ، وانمـا يقذف فضلات ، وهى ليست فضلات طعام ، ولكنها فضلات روث ، وفضــلات عفونة ،

وفضلات كائنات ليست أليفة ، ولكنها لاتمشى على قدمين ، وانما تمشى على أربــع ٠

تتساءل بينك وبين نفسك ٠ مكلوما :

أيمكن أن يبلغ الحقد على مصر ، ودورها ورسالتهــا ورئيسها هذا الحجـــم كله ؟!

وتتساءل بينك وبين نفســك مكلوما : أو تشكل مصر ، مشكلة مستعصية لهذا العقل الاستعلائى الاستعمارى ، بهذا القدر ؟!

ثم تضبط نفسك ، تهدىء من نفسك وأنت تقول شعر :

(لم يطلبوك بغرمهم

لو لم تكن منهم أعز وأكرما ٠٠ !)

●●

وعندما تخرج من لحظة الانفعال ، الى حالة الفعل يمكنك أن تدون ، عن المقال ، من داخل المقال ، عدة ملاحظات فى الشكل :

● هذا ــ أولا ــ كاتب موتور ، فى داخله مرجـــل وصل الى الغليان ، ولهذا فهو يستقطر كل ما فى روحه من ظلام ، وما فى عقله من ضلال ، وما فى قلبه من حقد ، وما فى مخيلته من أكاذيب ٠ وأى حقد وآلام وأكاذيب ، يمكن أن تختار للتعبير عن نفسها ، عنوانا ، أوضح من العنوان الذى اختاره المقال : الأهرامات الملوثة أو الأهرامات القذرة ، وعندما تكون أهرامات مصر الخالدة ، رمزا بمعنى المكان ، وبمعنى الزمان ، وبدلالة الدور والرسالة والحضارة والقيادة ، فلابد أن يكون هذا الحقد المريض ، مستهدفا ، هذا كله : الدور ، والرسالة ، والحضارة ، والقيادة :

● وهذه ــ ثانيا ــ درجة من الحقد المريض ، لاتتناسب مطلقا مع أن يكون مجرد رد فعل أحمق ، على حكم أصدرته المنصة العالية للقضاء المصرى ، بالسجن على سعد الدين ابراهيم ، ليس فقط لأن صدور الحكم ، مر فى مجرى قانونى خالص ، أحيط فيه المتهم قبل ادانته بكل ضمانات الدفاع ، وبكل حقوق المواطنة ، ولكن لأن الجريمة التى دمغت المتهم ، لا تصنف فى حدود السياسة ، وانما تصنف فى قائمة النصب ، والاحتيال ، والرشوة ، والكذب والافتراء ، وهى جرائم لاتصـــــلح معها ، أى دفوع

سياسية ، سواء تقنعت بالديموقراطية ، أو اختبأت وراء حقوق الانسان ، لأنها جرائم تمس منظومة القيم اجتماعية ، كما تمس الشرف والأخلاق .

بل ان الدفاع الذى اختـــاره سعد الدين ابراهيـــم ، اعترف فى دفوعه ، ودون مواربة ، بأن موكله قد مارس بالفعل جريمة النصب ، لكنه التمس اسقاطها ، على أساس انها تمت مع جهة أجنبية ، لم تطلب تقديم النصاب الى المحاكمة ، وهو ما دحضته النيابة بقولها : ان النصب نصب وان تعددت الشخوص والهيئات ، وان جرائم النصب ليست من جرائم الشكوى والطلب .

ولست أعرف فوق ذلك ، ماذا كان فريدمان هذا ، قد علم من بعض من يتصل بهم فى مواقع النفوذ ، سواء فى واشنطن أو تل أبيب ، ان النيابة المصرية ، لم تكمل تحقيقها مع سعد الدين ابراهيم فى جريمة أخرى مكتملة الأركان ، كان عنوانها التخابر مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ولم تفتح – حتى الآن – ملف جريمة ثالثة ، مكتملة الأركان بالصـــوت والصورة ، عنوانها : التخابر مع اسرائيل !

● وهذه – ثالثا – درجة من الحقد المرضى ، لاتتناسب مطلقا ، مع أن تكون مجرد رد فعل أحمق لحالة أو شخص ، وانما هى بصراحة ووضوح ، أكبر من أن تكون حالة فردية ، أو وجهة نظر شخصية .

ان المقال يذكر بالاسقاط النفسى ، تعبير « المؤسسة » ، مرتين ويذكر بالاسقاط النفسى أيضا ، الجنسية الأمريكية لسعد الدين ابراهيم مرتين ، فى صور المقال مرة ، وفى ختامه مرة ، وهذا التكرار ، وبالاسقاط النفسى الواضح فى الحالتين ، ينبىء عن جانب من الدائرة التى يعبر عنها صـــاحبه .

واذا كانت بعض المفردات الأخـــرى ، تشى ببقية حلقـــات هذه الدائرة ، حين تذكر – مثلا – تعبير : (دولة موز) الذى كان تعبيرا أثيرا عند مناحيم بيجن ، ينتسب أول استخدامه له ، خلال مواجهة مع رئيس أمريكى ، كان يسعى بحكمة وشرف ، لفرض سلام عادل وشامل فى الشرق الأوسط هو جيمى كارتر ، فان بقية المفردات والحلقات ، تبدو مكتملة الوضوح ، والنسب .

● وهذه – رابعا – درجـــة من الحقد المرضى ، يسعى عامدا الى ايلام مصر ، والى استفزازها . بل والى ابتزازها . ان رئيس مصر ،

بالنسبة لشعب مصر ، قطعة من قلبها ، وقطعة من ضميرها ، وهو فوق ذلك رمز لوحدته ، وهيبته ، وكرامته ، انه كالعلم ســواء بســواء ، لايقبل مصرى ، مهما يكن توجهة السياسى ، أو انتماؤه الاجتماعى ، ان يتطاول على ساريته العالية ، منقار غراب أجنبى ، لايحترف سوى التمرغ فى التراب ٠

ان المدهش حقا فى مثل هذا أل (فريدمان) ، ومن هم وراءه ، انهم لا يدركون ، عن جهل فاضح ، طبيعة هذا الشعب المصرى ، ولا مكونه النفسى والانسانى ٠

انهم يتخيلون فى ضلالهم أن التطاول على علم مصر أو ساريته ، سوف يساهم فى تفكيك وحدة مصر الوطنية بينما ما يترتب على ذلك فى الواقع هو العكس تماما ، أى مزيدا من التماســك الوطنى ، ومن الوحدة الوطنية ٠

وهم يتخيلون فى ضلالهم أن التطاول على قيادة مصر ، سوف يساهم فى انصراف الناس من حولها ، بينما ما يترتب على ذلك فى الواقــع هو العكس تماما ، أى مزيدا من التفاف الناس حول قيادتها ٠

ان مصر وحدها دون غيرها ممن حولها ، ليست مجتمعا نمت طبقاته بعوامل الطفرة ، أو أخذت مسارا ضد قوانين الحياة والطبيعة ، وانما كان تطورها تدريجيا وتغيرها تعبيرا عن تراكم أسباب هذا التغيير فى الواقع ، وبالتالى فان مصر المجتمع ليست سريعة التفكك بالقــدر الذى يــراه خصومها ، فليس ثمة بلد من بلدان الأرض تصدق على حضــارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فعلى امتداد خمسة آلاف سنة لم يتغير الدين سوى مرتين ٠ وكذلك اللغة ، فى حين أن بلدا مثل أسبانيا ، عمره أقل من نصف عمر مصر ، تغير الدين فيه ثمــانى مرات ، واللغــة ست مرات ، وماذا يمكن ان يضاف ، اذا كانت مصر الدولة ، لم تتفكك وحدتها السياسية منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد !

عندما تخـــرج مرة أخرى ، من لحظة الانفعال ، الى حالة الفعل ، يمكنك أن تدون من داخل المقال ، عن المقال ، عدة ملاحظات فى المضمون :

● ان الكاتب الأمريكى أولا ـ يفضح نفســه بنفسه ، فالرموز التى يختارها ، تكشف مدى تغلغل العنصرية فى تكوينــه ، وبنيتــه الفكرية ، فهى بنية مشبعة بالاستعلاء والعنصرية ٠

ففى تطاوله على الرئيس مبارك يقول ان الرئيس كان يطمع فى أن يلعب فى شمال أفريقيا ، دور نيلسون مانديلا الذى سيجلب السلام للعرب والاسرائيليين ، ولكنه بعد المحاكمة « الاستعراضية » ، لسعد ابراهيم ، ـ حسب تعبيره ـ سيصبح (موجابى) العرب الذى دمر من وجهة نظره ـ القانون فى زيمبابوى .

وعندما يكون القياس فى هذه الحالة مرة (مانديلا) ، ومرة (موجابى) ، فان اللون الذى يراه فى المرتين هو الأسود ، وعندما يلعب (مانديلا) دورا بين العرب ، الذين ينتسب اليهم ، وبين الاسرائيليين الذين يقاومهم ، يصبح العرب ، بالضرورة ، فى بنية الرمز ، هم الأفارقة السود ، ويصبح الاسرائيليون بالضرورة هم الأوربيون البيض . وذلك بالدلالة العرقية ، والحضارية ، والدلالة واضحة . تعكس الوانها سوادا على جانب ، وبياضا على جانب ، وتخلفا على جانب وحضارة على جانب ، فى مضمون رؤية فريدمان ، المشبعة ضد العرب جميعا ، استعلاء ، وعنصرية .

● والكاتب الأمريكى ـ ثانيا ـ يفضح بنفسه ، عن هدفه النهائى ، وهدف من يكتب باسمهم . واذا كان هذا المقال يتضمن تهديد مصر ، بدرجة عالية من السخف ، أنها ستتحول الى دولة موز ، أو انها لن تستطيع قيادة العالم العربى الى التحديث ، او انها ستكون عاجزة عن تطوير نفسها وتفجير طاقتها ، وكأن مصر هبة الولايات المتحدة ، وليست هبة النيل والحضارة ، فان ذلك كله يلتقى ضمنيا مع هدف واحد ، هو ما حدده فى مقال سابق (غير موقع) نشرته واشنطن بوست ، ثم نقلته عنها نيويورك تايمز ، قبل أيام ، وطالب فيه الادارة الأمريكية بمراجعة المعونات الاقتصادية لمصر ، وربطها بمواقف مصر ، أولا ، من أمن المنطقة وفق منظور الولايات المتحدة لهذا الأمن ، بما يعنى طبيعة وتوجه دور مصر الاقليمى ، وثانيا بموقفها من أوضاعها الداخلية ، خاصة قضية حقوق الانسان . مع تأكيده على ان الولايات المتحدة قد أسرفت فى الدعم السياسى والاقتصادى ، دون دور رئيسى لمصر .

وهذا يعنى بالضبط ، أن جوهر المشكلة ، ليس الحكم القضائى الناصع الذى صدر بحق سعد الدين ابراهيم ، وانما هو محطة فى الطريق اليها . كما أنه يعنى أن التعبير عن هذه المشكلة ، سيأخذ صيغاً مختلفة ، ومظاهر متعددة ، فى اطار حملة اعلامية منظمة هدفها الأساسى ، هو اكراه مصر سياسيا . أو تخويف مصر وقيادتها ، لكى تبتلع مصر دورها الاقليمى ، وتسحب أطرافها الى داخلها ، وتكف عن

دفعها طاقة جديدة لاعادة بناء النظام الاقليمى ، العربى ، وتسحب صدرها من ظهر القضية الفلسطينية • ثم تكمل اندفاعها • فى الاتجاه الآخر ، أى نحو مهمة تقزيم الدولة المصرية ، واضعاف منظومة القوة فيها •

ولحسن الحظ ان مصر تدرك ذلك كله • بالبصيرة قبل البصر ، وبالتجربة العملية ، قبل المعرفة النظرية ، فقد ظلت بتفاعلات الموقع والتاريخ والدور والقوة عامل توحيد وتحديث ودفاع عن المنطقة كلها ، وكما ظل مصير المنطقة معلقا بمصير مصر ، ظل مصير مصر ، ومكانتها فى المنطقة العربية ، وبقوة وفاعلية وحضور دورها الاقليمى •

● والكاتب الأمريكى ثالثا – ينطق بمفردات الحملة المنظمة ، التى يلعب فيها دور رأس الرمح ، بأنه هناك فهما مغلوطا فى الدوائر التى تمد هذه الحملة بالقوة ، لأمرين واضحين :

أولها ان مصر استطاعت أن تتصدى لمحاولات مستميتة ، لاختراقها ، وهز نسيجها الوطنى والاجتماعى ، تارة بقطعان شرطة العولمة المحلية ، التى كان يقودها بنفسه ومركزه سعد الدين ابراهيم (اضافة الى قيادة مركز دراسات الأهرام) ، وتارة باسم الاضطهاد الدينى الذى لم يكن بعيدا أيضا ، عن قطعان هذه الشرطة • وجمعياتها الأهلية الممولة أجنبيا •

وثانيهما ان مصر التى تعانى من متاعب اقتصادية بالدرجة الأولى سوف تكون قابلة – وفق هذا الفهم المغلوط – للاستجابة الى الضغوط التى يمكن توجه اليها ، خاصة اذا اتخذت هذه الضغوط ، اتجاهات متعددة ، بعضها سياسى ، وبعضها اقتصادى ، وسط زخم اعلامى مضاد ، حاد النبرة ، واضح الهدف •

غير أن هذه العقلية الاستعلائية ، تؤكد على هذا النحو ، أنها ماتزال عاجزة عن فهم الخصوصية المصرية • نعم ان مصر تعانى من علة واضحة فى أوضاعها الاقتصادية • زادتها سياسة هذه الوزارة ، بروزا وحدة ، لكننى ما أزال أعتقد أن مظاهر هذه العلة ، تمسك ببعض أطرافها ، ولكن أعراضها لم تصل الى القلب ، فمازال قلب مصر فى مكانه ، قويا ، وصحيحا ، ومعافى ، يستطيع أن يغالب متاعب الأطراف ، وأن يتغلب عليها •

ثم أن مصر قادرة بالفعل على أن تغلب متاعبها ، بذاتها ، وبدوائها ، فوق أنها لا تقبل شعبا وقيادة ، أن ترهن ارادتها · لطرف دولى ، أو اقليمى ، ومهما تكن صعوبات الواقع ، أو حسابات التكلفة ··

●●

شىء عن الفرق بين التواريخ والأشخاص · والمراحل فى الولايات المتحدة الأمريكية ، قد يعكسه بوضوح · تعبير بيجن (دولة الموز) · الذى أعاد فريدمان استخدامه خنجرا ضدنا ·

فى ربيع عام ١٩٧٧ كان كيسنجر ، — حسب الوثائق الاسرائيلية، نقلا عن أندرو ولسلى كوكبرن — يدعو سمحا دينتس سفير اسرائيل فى الولايات المتحدة ، على مائدة عشاء ، وقال كيسنجر لضيفه ، وهو يمضغ طعامه على مهل · أنه لا يستطيع ان يمضى قدما بصفته يهوديا الا اذا كشف لاسرائيل عن جانب من المعلومات التى يراها خطيرة · قبل أن يضيف : ان الرئيس كارتر أبلغ الرئيس السادات عن عزم الولايات المتحدة الأمريكية ارغام اسرائيل على التراجع الى حدود عام ١٩٦٧ والموافقة على قيام دولة فلسطينية ، وارتبك دينتس ، ولم ير غير أن يسأل كيسنجر النصيحة ، فأجابه على النحو التالى : فى تنظيم القوى فى الولايات المتحدة واسرائيل لا تظهر بمظهر المتردد بل كن حازما ، ان الحيلة تقوم على مجابهة خطط كارتر بأسلوب صلب قوى ··

ووصلت النصيحة الى بيجن · وتمثلها بشكل جيد · وفى ربيع العام التالى ، أطلقت اسرائيل عملية الليطانى فى لبنان ، واتخذت الأمم المتحدة قرارا بانسحاب اسرائيل ، وطلب كارتر من بيجن أن يسحب القوات الاسرائيلية · ومع الالحاح الأمريكى حاول بيجن أن يكون أكثر صلابة · فاستخدم تعبير (لسنا دولة موز) · ولكن كارتر أصر على أن تنسحب اسرائيل · ولم يجد بيجن غير أن يؤكد له ، ان اسرائيل قد سحبت قواتها ومعداتها الى داخل الحدود الدولية بالفعل ·

وحيث وضعت صور الأقمار الصناعية أمام كارتر · علم أن بيجن كاذب ، فأرسل اليه رسالة كان منطوقها يقول ، ان الولايات المتحدة ستقطع كل مساعداتها لاسرائيل خلال ٢٤ ساعة اذا لم تكمل اسرائيل انسحابها · ويروى (فيتس) نائب رئيس البعثة الدوبلوماسية فى السفارة الأمريكية فى تل أبيب ، الى كلف بحملة رسالة كارتر ووضعها فى يد بيجن شخصيا ، ما حدث :

« ما ان قرأ بيجن الرسالة ببطء شديد حتى شحب لونه ، ثم توجه الى المنضدة الجانبية ، وسكب الوسكى فى كأسين كبيرين وأخذ جرعة كبيرة ثم قال : لقد فزت يا سيد فيتس (!) ·

فى ربيع آخر بعد عامين (١٩٨٠) التقطت وكالة الأمن القومى ، أحاديث بين عمدة نيويورك (ادكوتش) ، وبين مناحيم بيجن ، ولم تكن الأحاديث الا نصائح اسرائيلية حول أفضل الوسائل ، لهزيمة كارتر فى الانتخابات ، التى كانت تقف على الأبواب ·

أليس ثمة فرق واضح بين التواريخ والأشخاص والادارات والمراحل ، ثم ماذا كان يمكن أن يكتب فريدمان هذا ، فى وقت آخر ، وفى ظل أشخاص آخرين !

●●

لقد جاء فريدمان الى مصر وسط هالة مصطنعة ، سخر لها سعد الدين ابراهيم ، وقبله عبد المنعم سعيد ، مؤسسة الأهرام بمركزها ومطبوعاتها ، لاضفاء صفة العالم المفكر على عقله · الرخو ، المنحاز ·

ولقد اطلقت أمام ركبه فى مصر ، سحب كثيفة من البخور كأنه يمثل فتحا فكريا باسم العولمة ، أو كأنه كاهنها الأعظم ، وحامل انجيلها الجديد · بينما لم يكن فى وزنه العلمى ، أو البحثى ، أكثر من رجع صدى ركيك · لأطروحة هتنجتون عن صراع الحضارات ، ورؤية فوكوياما عن نهاية التاريخ · بل لقد أجلست شرطة العولمة المحلية ، بقيادة هذا النفر ، أعداد خفيرة من الكتاب والمفكرين المصريين ، فى مقاعد أقرب الى مقاعد التلاميذ ، كى يقتبسوا علما ، ممن لا علم عنده ، ويتعلموا أدبا · ممن لا أدب لديه · ومن المؤكد أن هذه الدونية الفكرية ، وهذا التقزم المأجور ، الذى صاحب وجود فريدمان فى مصر ، قد أعطاه صورة غير صحيحة · عن فقر العقل الوطنى ، وعن انطفائه ، وانكفائه ، وانهيار قدراته ابداعا وتجديدا واضافة · وهذا ما يفسر تصاعد نبرته الاستعلائية ، وتورم ذاته ، حد مخاطبته المصريين وكأنهم تلاميذ يجلسون فى مقاعد الدرس ، أو متهمين يتصببون عرقا ، فى قفص الاتهام ·

ولو أن احدا فى مصر ، قال لفريدمان ان كتابه (عربة اليكساس وشجرة الزيتون) ، الذى أقاموا له أفراح الزينة ، ليس أكثر من شروح ثانوية ، على متن هتنجتون ، أولو أن احدا توقف ليسأله عن هذه الصورة

الكبيرة بين دفتى كتابه ، والتى يشرح بها فوائد العولمة على طريقته ، وهى تصور صهيونيا متطرفا يتلو صلواته أمام حائط المبكى — نيابة عن صهيونى متعصب فى فرنسا ، على اتصال به ، من خلال التليفون المحمول ، الذى يشاركهما صلاتهما الصهيونية عبر الأقمار الصناعية ٠

لكنهم للأسف ، أخذوه من عند حائط المبكى ، ثم أجلسوه فوق أكتافنا ، وفوق أكتاف الفكر المصرى ، فماذا عليه ، اذا أدركته نوبة حالة (بيولوجية) ، وهو مايزال يتصور أن هذا هو موقعه ، فأفرغ عفونة جوفه على قمصاننا البيضاء !

●●

وبعد ٠٠

ان فورة الدم لم تهدأ ٠ واشتعال الغضب لم ينطفأ ٠

مع ذلك فقد تجنبت أن يجىء الرد ، قصاصا ، عينا بعين وسنا بسن ، ووطنا بوطن ، وسيكون ذلك عدلا فى المرة القادمة ، لأن أهرامات مصر ليست ملوثة ، ولأن تمثال الحرية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ليس نظيفا !

الفهـــرس

الموضـوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٥٦٤/ ٢٠٠١

ISBN — 977 — 01 — 7440 — 8



◆ ◆ ◆ ◆

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة 1
مهرجان القراءة

١٥٠ قرش
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب